فلسفة الأخلاق
بين
أرسطو و مسكويه

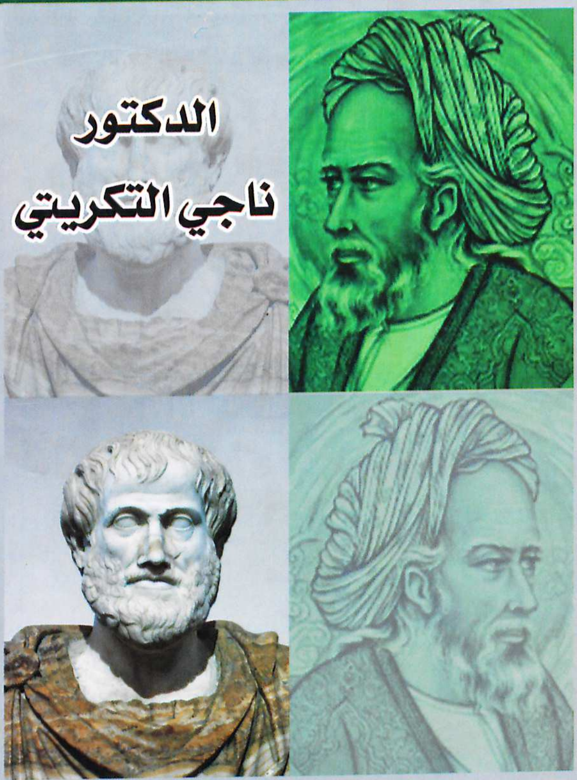

الدكتور
ناجي التكريتي

www.dardjlah.com

فلسفة الأخلاق
بين أرسطو ومسكوية

تأليف

الدكتور ناجي التكريتي

2012

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2011/5/1809)

170

التكريتي ، ناجي عباس .

فلسفة الأخلاق بين أرسطو ومسكوية / ناجي عباس التكريتي. عمان: دار دجلة 2012.

(222) ص

ر.أ: (2011/5/1809).

الواصفات:/ الأخلاق // الفلسفة الاسطورية // الفلسفة /

أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

الآراء الموجودة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الناشرة

دار دجلة
ناشرون وموزعون

المملكة الأردنية الهاشمية

عمان- شارع الملك حسين- مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: 0096264647550

خلوي: 00962795265767

ص. ب: 712773 عمان 11171- الأردن

جمهورية العراق

بغداد- شارع السعدون- عمارة فاطمة

تلفاكس:0096418170792

المحتويات

الرقم	الموضوع		رقم الصفحة
١.	الفصل الأول:	النفس	٣٣
٢.	الفصل الثاني:	الفضيلة	٥٥
٣.	الفصل الثالث:	العقل	٧٧
٤.	الفصل الرابع:	العدل	٩١
٥.	الفصل الخامس:	عدم الاعتدال	١٢٣
٦.	الفصل السادس:	الصداقة	١٣٥
٧.	الفصل السابع:	الخير والسعادة	١٧١
٨.	الفصل الثامن:	اللذة	١٩٩
٩.	المصادر		٢١٩

تقديم

وددت أن أكتب كتاباً في الفلسفة المقارنة بين أرسطو (٣٨٤ ق.م — ٣٢١ ق.م) ومسكوية (٣٢٠ — ٤٢١هـ)، وجدت أن الفيلسوفين يلتقيان في الفلسفة الأخلاقية، أن لم أقل أن مكسوية قد تأثر كثيراً بفلسفة أرسطو الأخلاقية، إضافة إلى ما احتذته ووعاه من تعاليم الدين الإسلامي، أكثر من هذا، فاستطيع التأكيد أن مسكوية، ما أن يستوعب الفكر ة الفلسفية أو يؤمن بها ويتبناها، حتى يخضعها للتعاليم الإسلامية، قبل أن يستعملها وتفوق من صميم إبداعاته الفكرية.

كل دارس للفلسفة، يعلم علم اليقين، إن الاتجاه نحو الاهتمام بالدراسات الأخلاقية، في الفلسفة اليونانية، قد بدأ على يد الفيلسوف فيتاغورس، المهم في هذا الشأن أن الذي خلف الدراسات الطبيعية وراء ظهره، واتجه اتجاهاً كلياً لدراسة أخلاق الإنسان والاهتمام في شؤونه، هو الفيلسوف سقراط.

أما الفيلسوفان اللذان أرسيا قواعد دراسة الأخلاق في الفكر الفلسفي، هما الفيلسوفان الكبيران: أفلاطون وأرسطو.

اتجه أفلاطون اتجاهاً كلياً إلى الكتابات الأخلاقية، حتى تجاوز عدد كتبه على ست وثلاثين محاورة، الكتاب الوحيد الذي كتبه أفلاطون في الفلسفة الطبيعية، هو كتاب (طيماوس)، مع العلم أن هذا الكتاب يعد ضعيفاً في دراسة الفلسفة الطبيعية، على الرغم من أن أفلاطون حتى في هذا الكتاب قد نحا منحى أخلاقياً.

كتاب أرسطو المشهور في الفلسفة الأخلاقية، هو كتاب (الأخلاق إلى نيقوماخوس) أو (الأخلاق النيموماخية) كتاب أرسطو هذا كتاب شامل وواسع وعميق في شؤون الدراسات الأخلاقية، لقد أثر هذا الكتاب في المدارس اليونانية المتأخرة، ثم تجاوز أثره

إلى الفلاسفة المسيحيين والفلاسفة الإسلاميين في العصور الوسطية، أنه في الحقيقة إلى الآن يعد مرجعاً في الفلسفة الأخلاقية، يعتمد عليه الدارسون والأكاديميون.

أما كتاب مسكوية (تهذيب الأخلاق) فيعد أهم كتبه التي كتبها في الفلسفة الأخلاقية، لقد كان لكتاب مسكوية هذا أثر جميل في الدراسات الأخلاقية الإسلامية، لقد تناوله الباحثون في الدرس، كما أولاه الفلاسفة عناية خاصة، وأخذوا منه وتأثروا به، أنه في الحقيقة ما زال حتى الآن يُشعر القارئ بالحيوية والجد في مجال المواضيع التي تناولها الفيلسوف.

لا شك أن مسكوية قد تأثر بمن سبقه من أفكار الفلاسفة واقتبس من آرائهم، واستعمل مقولاتهم، أنه قد تأثر بكتاب (الأخلاق النيقومافية) لأرسطو، كما أنه قد تأثر بكتاب (تهذيب الأخلاق) ليحيى بن عدي التكريتي، وكتاب (الطب الروحاني) للرازي، وكتاب (دفع الأحزان) للكندي.. وغيرهم.

أرسطو نفسه، ما هو إلا صدى لكتابات أستاذه أفلاطون الأخلاقية، لو أراد الباحث أن يحلل أفكار أرسطو جزء بعد جزء لاكتشف أن آراء أرسطو الأخلاقية مستقاة من فلسفة أفلاطون، على أنها كتبت بأسلوب أرسطو العالم المنطقي المدقق.

إن هذا في رأيي شيء طبيعي، في كل حقل من حقول المعرفة، توجد مقولة فلسفية، تذهب في الرأي إلى أنه لا يوجد شيء من لا شيء، بل كل شيء يعتمد على شيء سبقه، وأنه اعتمد أو أنه من ثمر ذلك الشيء.

لو تتبعنا فلسفة أي فيلسوف، أو فكر أي مفكر، أو علم أي عالم، أو أدب أي أديب، أو فن أي فنان، لوجدنا أنه قد اعتمد على من سبقه من المبدعين، في الحقل الذي يكتب فيه، الأهمية تكمن هنا، في مقدار الإبداع الشخصي الذي يضيفه الفيلسوف إلى من سبقه في الحقل الذي ولجه نفسه.

لا شك أن فلسفتي أفلاطون وأرسطو قد أثرتا في الفكر الإنساني جنباً إلى جنب، حتى عرفت المدارس التي تأثرت بأفلاطون أو تبعث تعاليمه بالمدارس الأكاديمية.

أما الفلاسفة الذين تأثروا بفلسفة أرسطو فقد عرفوا بالمشائين.

يقال أن أرسطو، بعد ما جرى لسقراط خاف على نفسه، فكان يدرس طلابه وهو يتمشى، حتى عرف إتباعه بالمشائين، الفلاسفة المسلمون، شأنهم شأن الآخرين قد درسوا كتب أرسطو، وتأثروا بمنطقه وبكتابه على الأخلاق.

لقد أحب العرب أرسطو واحترموا أفكاره، وتشبعوا بفلسفته، حتى أطلقوا عليه مصطلح (المعلم الأول) كونه رائداً كبيراً في المنطق والسياسة والأخلاق والبلاغة والشعر.

أرسطو في الحقيقة، هو الذي اتجه في الكتابة الفلسفية اتجاهاً علمياً دقيقاً، أنه بعبارة أخرى طبق نظرية سقراط بإنزال الفلسفة من السماء عملياً، أي أنه وضع النظريات في الأخلاق والسياسة والمنطق والفن، إذ كان أفلاطون قد سبقه في ذلك، غير أن أسلوب أفلاطون الكتابي لا هو بالشعر ولا هو بالنثر، بل أن أفلاطون كتب فلسفته التي عبر بها عن فكر سقراط بطريقة الحوار، للوصول إلى الحقيقة.

لا شك أن أرسطو نظر إلى الإنسان نظرة موضوعية، فقال: إن الإنسان حيوان ناطق أو أن الإنسان مدني بالطبع، أنه في الوقت بشر بالعدالة، وأن تكون الحرية نصيب الفرد والجماعة على السواء، أما عن علاقة الحاكم بالمحكوم، فإنه أوصى الملك أن يرعى أبناء شعبه، كما يرعى رب العائلة أفراد عائلته، وأن يهتم بهم كاهتمام الطبيب بمرضاه.

يرى أرسطو أن نتعامل مع الإنسان كإنسان، كما هو عليه حاله، لا كما نريده أن يكون، إن الإنسان حيوان عاقل، وهو ليس كامل التكوين، بل أن ديدنة السعي نحو

الكمال، يكفي الإنسان فخراً أنه كائن اجتماعي وعضو في المجتمع الإنساني، ومن خلال التعاون بين بني الإنسان يكون التقدم والازدهار.

لم يقترب أرسطو من السياسة عملياً، ولا اكتوى بنارها.

إنه اعتقد أن الاشتراك في السياسة عملياً تشغل الفيلسوف عن أداء عمله الأصلي الذي أوقف حياته من أجله.

مع ذلك لقي من عنت السياسيين والحاسدين، من خلال الصراع بين أثينا ومقدونيا، ولاسيما بعد وفاة تلميذه الأسكندر.

تجمع المصادر أن أرسطو كان رجلاً فاضلاً في سيرته، حتى قبل أن يكتب كتابه (علم الأخلاق) مع ذلك فإن أرسطو يرى أن على المرء إلا يكتفي بالعلم المجرد ليكون فاضلاً، كما أن الفضيلة ليست كلمة يطلقها الإنسان، بل أن الفضيلة ممارسة ومران.

نسب إلى أرسطو ثلاثة كتب في الأخلاق:

١) علم الأخلاق الكبير.

٢) علم الأخلاق إلى أويديم.

٣) علم الأخلاق إلى نيقوماخوس.

لا شك أن هذه الكتب الثلاثة مذكورة في كثير من المصادر العربية القديمة، على أن كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس أو الأخلاق النيقوماخية، هو المعول عليه، لأن نسبته قد صحت إلى مؤلفه أرسطو، ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية بروفسور روسي أستاذ الفلسفة بجامعة أكسفورد بانجلترا.

أما في اللغة العربية، فتوجد ترجمتان لكتاب الأخلاق النيقوماخيه:

الأول: ترجمة حنين بن إسحق وحققه الدكتور عبدالرحمن بدوي بعنوان (علم الأخلاق).

الثاني: مترجم إلى اللغة الفرنسية عن الأصل اليوناني، ترجمة بارتلمي سانتهلي أستاذ الفلسفة بكلية دي فرانس كولبج، وترجمه إلى العربية الأستاذ أحمد لطفي مدير دار الكتب المصرية بعنوان (علم الأخلاق إلى نيقوماخوس).

وهكذا أقول أن الأخلاق عند أرسطو ما يسعى الإنسان إلى تطبيقه على أرض الواقع، ليست الفضيلة بما تكتسبه من علم، بل أن الأساس في هذا المقام، هو عمل كل ما هو حسن وجميل، وتحقيق الخير في حياتنا، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

يبدو لي أن أرسطو لا يستطيع التخلص من أثر أستاذه أفلاطون الذي كان يقول أن الناس أشرار بالطبع، أرسطو نفسه يذهب هذا المذهب، على أنه يوجب على الفيلسوف أن ينتشل البشر من شرورهم، وإلا يبقيهم في قعر الرذيلة، على الفيلسوف أن يرتفع بهم ويرفعهم إلى نعيم الفضيلة.

يذكرني رأي أرسطو هذا بنظرية المثل الأفلاطونية، أو التي يعرف بنظرية الكهف، التي هي أساس فلسفة أفلاطون في نظريته المعروفة بالجدل الصاعد والجدل النازل، خلاصة النظرية أن الناس كانوا يقعدون في كهف مظلم، والفيلسوف هو الذي يخرجهم إلى دائرة الضوء.

علم الأخلاق إذن من هذا المنطلق نافع للناس كأي علم آخر، ربما أن فائدته أكثر نفعاً للإنسان، مادام الأمر معقوداً بسلوك الإنسان اليومي على مستوى الفرد والجماعة معاً، إذا كان عوام الناس لا يأبهون لقراءة كتاب في علم الأخلاق، على أن رسالة الفيلسوف أن يرشدهم إلى سواء السبيل، مادام الإنسان يتقلب في حياته بين الضار والنافع واللذة والألم، والفضيلة والرذيلة.

هدف علم الأخلاق إذن التجربة العملية، بالغور في أعماق الإنسان، واكتشاف أسراره ونواياه، والإحاطة بما يكنه غيره، والأخذ بيده إلى طريق السلامة في الالتزام بالفضائل عملياً، والابتعاد عن كل ما هو شائن ومرذول.

علم الأخلاق النظري من دون تطبيق على أرض الواقع، يبقى مجرد نظريات مرصوفة على الورق، مهما تكن النصائح النظرية للإنسان، من غير ممارسة فعلية في الحياة ليست بذات فائدة، علينا ألا ننسى أن الإنسان تحركه عوامل داخلية، حسية وإطماع ذاتية وحب التملك قد تدفعه إلى مخالفة النصائح والنواهي، وربما تؤدي به إلى التمرد والعصيان.

أنه من المعروف إن الإنسان شرير بطبعه، أنه ما زال يذكر حياة الغاب، وكيف كان يتمتع بكامل الحرية، التي لا يحدها قانون ولا يقلدها عرف، الإنسان إذن تهمه تحقيق مصلحته واكتمال سعادته، من هنا يجب النفاذ إلى أعماق الإنسان، لاستئصال عنصر الشر أو تخفيفه، وإفهامه أن اندفاعه وسط الجماعة، يؤدي به إلى الشقاء ولا يحقق له السعادة.

ذلك أن اندفاع الإنسان قوي إلى درجة قد يخالف كل الأعراف المتوارثة، والقوانين المدنية والشرائع السماوية، مادام الإنسان يمتلك الإرادة الطبيعية الخاصة به، التي قد نقص العقل ذاته، كما قد تتمرد على روح الجماعة المحيطة أو ما يعرف بالضمير العام.

إن الإنسان يشعر أنه رهن قوة داخلية، تتغلب في كثير من الأحوال على ما هو متعارف عليه من أخلاق ومثل عليا، أن خير العلاج هنا توجيه الإنسان ذاتياً، من أجل أن يتجه نحو كل ما هو خير والابتعاد عن كل ما هو شر، بعد ذلك يأتي دور العدل في تقييم نشاط الإنسان لكي يحظى بالجزاء أو ينال العقاب.

إن مسيرة الإنسان كلها موكولة بين الانسجام أو التصادم بين ما يمتلك من إرادة حرة مكنونة في أعماقه، توجهه بقوة ولا تريد التنازل والخنوع، وبين القوانين الأخلاقية التي فرضها عليه المجتمع، وأوجب عليه طاعتها والتقيد ببنودها وتعليماتها.

إن الإنسان حين يعقل ذاته، ويتأمل ما هو عليه من انفعال واندفاع، وبين ما تجلبه له القوانين المرعية من خيرات سوف يتأمل المنافع التي يجنيها، ولا يستهين بالخيرات التي يمكن أن يحصل عليها من جراء مواقفه وانسجامه مع ما هو مشرع بصالحه، أنه لا شك يرجع ما يعود عليه من الخير، على اندفاع حريته الذاتية، التي قد لا تجلب له غير الأثم والندم على مستوى الهمين الداخلي، والأذى والنظرة الدونية من أفراد المجتمع.

وهكذا نرى أن علم الأخلاق في الوقت الذي يدبر شؤونه ضمن الفرد وإيقاظه للابتعاد عن كل ما هو شرير ومؤذي، فإنه ينظم حياة الجماعة البشرية من حيث حسن التآلف والعيش في مجتمع منسجم عادل لا ظلم فيه ولا إجحاف، أكثر من هذا فإن علم الأخلاق يرتفع بالإنسان من حياته البهيمية إلى الوعي الاجتماعي، بعد هذا فإن علم الأخلاق يرسم الطريق إلى ما هو أعلى من ذلك وأصفى، إلى حيث الحياة الروحية التي تقود إلى السعادة والتوصل إلى الله.

لا شك أن القانون الأخلاقي المنبعث من باطن النفس، وفق ما يراه الإنسان خيراً وعدلاً، إن القانون الذي يفرض عليه من الخارج قد يتغير بتغير ظروف الزمان والمكان، أن القانون المدني قد يشرعه حاكم مستبد، يهمه مصلحته الذاتية قبل أن يرعى مصالح الجمهور.

إن القوة المتأتية من خارج ذاتها، قد لا تقيم الشخص ولا تؤدي الغاية المبتغاة، إن القانون المدني قد يسجن الإنسان أو يبعده عن بلده، لكنه قد يغيره نحو حالة أحسن من ذي قبل، إن العقاب قد يحد من تطرف الإنسان غير أنه لا يقضي على عنصر الشر المتأصل في الأعماق، إذا لا يكون الاقتناع ذاتياً برضى وارتياح.

إن الإنسان حين تكون له قناعة كاملة بالقانون الأخلاقي، تنقاد نفسه إلى كل ما هو جميل، ولا يفعل إلا الفعل الجميل الذي يحقق له السعادة، ويعود بالخير على المجتمع.

وهكذا فإن فضل علم الأخلاق على الإنسان، أنه يرشده إلى مواطن الخير والشر في أعماقه، أكثر من هذا، فإنه يشير إليه بوجوب الالتزام بالفضيلة والابتعاد عن الرذيلة، بالقدر الذي يجعل الإنسان أنه يفعل ذلك سلباً وإيجاباً، بدراية ومعرفة وإدراك.

لا شك أن أول فيلسوف يوناني وقف كتاباته كلها للأخلاق هو أفلاطون، إنه واصل رأي أستاذه سقراط، في أن الطبيعة واحدة في كل مكان، إن الإنسان وحده هذا المخلوق العجيب، المتغير في آن لآخر، العميق الغور، يستحق الدراسة والاهتمام. أرسطو ألمع تلاميذ أفلاطون، وإذا خالفه في بعض الأمور العارضة، فإن في الجوهر مسار في الأخلاق على نهج أستاذه أفلاطون.

استطيع القول أن أفلاطون نفسه، بنى فلسفته الأخلاقية كلها على مقولة أستاذه سقراط: (أعرف نفسك)، إن معرفة الأشياء إذن تبدأ حين يعرف الإنسان قدر نفسه، علينا إذن أن نكون يقظي العقل، ونحكم على أنفسنا بأنفسنا، بما فيها من خير وشر، كيفية تغليب عامل الخير على الشر، بغض النظر عما يصيبه من عقاب أو ثواب، المهم أولاً هو أن يعرف أن في أعماقه يتنازع عنصران حيواني وإنساني، وعليه أن يخضع

الجانب الحيواني للقوة الإنسانية، بالتهذيب والممارسة والتمرين، حتى تتحقق إنسانيته بالكامل.

أفلاطون يلح على إخضاع النفس للعقل، لأن العقل في رأيه سلطان عادل، إن أفلاطون يرى أن تزكية النفس لا تكون بالمال ولا بالجاه، بل إن جمالها يكون بتنمية الفضيلة فيها، إن الفضيلة إذن في نظر أفلاطون أكبر خير يناله الإنسان.

إن الإنسان الفاضل الذي يسلك في الحياة وفقاً لتوجيه العقل، إن العقل سلاح الفيلسوف الذي يرشد به الإشارة.

إن الإنسان إذا سار في طريق الشرف الذي اقتنع به ورسمه لنفسه، لا يخشى ظلم كل ظالم، ولا يهاب حتى الموت الذي قد يأتيه على يد ظالم، أو ربما في سوح القتال، المهم أنه اقتنع بالسير في طريق الفضيلة بغض النظر عما تعود عليه من نفع أم ضرر.

وإن من الطرائف التي يرويها أفلاطون عن أستاذه سقراط، هي أن على الإنسان أن يفعل الخير وأن يبتعد عن فعل الشر، يفعل الخير للأصدقاء والأعداء معاً، وأن يتجنب فعل الشر للأعداء، حين سأله أفلاطون عن مرامي هذه الحكمة التي ساروا فيها بين الأصدقاء والأعداء.

وعلل سقراط ذلك أن من واجبنا أن نحب الأصدقاء ونرعاهم ونقدم الخير لهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً لأنهم أصدقاء الأعداء لنفعهم، إذ ربما نكسبهم من جراء هذا النفع، وقد نحولهم إلى أصدقاء، أو في الأقل نثمن شرهم، أما إذا اقترفنا الشر مع الأعداء، فإننا سنزيدهم عداوة، وسيتضاعف حقدهم عن ذي قبل.

يذهب سقراط أكثر من ذلك، فيقول إن الإنسان الذي يفعل الخير يشعر بالقوة والثقة بالنفس، أكثر من الذي يحقد ويقترف الشر، فإنه يثبت روحاً ضعيفة متهاوية تعوذها الصلابة والثقة والشرف.

أفلاطون لم يكن مغالياً بالتمسك بالفضيلة إلى حرمان الإنسان من التنعم باللذة، غير أنه يوصي الاعتدال مخافة الانزلاق إلى مهاوي الألم، أفلاطون يعرف أن يحيا الإنسان بنعيم السعادة ويتمتع بالحياة كما ينبغي، على أن يكون ديدنه الترفق بنفسه والالتزام بجانب الاعتدال.

إن من حق الإنسان أن يحيا حياة طبيعية، وأن يمارس نشاطه الإنساني كما ينبغي عليه أن يفعله، ولكن شرط إلا يتجاوز حدود الاعتدال، أفلاطون إذن لم يكن مغالياً، ولا يريد أن يحرم الإنسان من التمتع بلذائذ الحياة، كل ما يريده الفيلسوف، إلا يتجاوز الإنسان حدوده، فيغرق في آتون الشقاء، أن هدف أفلاطون من حث الإنسان على الفضيلة، كي يكون أسعد حالاً، ويبتعد عن مهاوي الألم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

يوصي أفلاطون أن تغرس الفضائل في نفس الطفل منذ الصغر، كي يشب على حب الفضائل وممارستها على مدى مرور الأيام وينطبع عليها، حتى تغدق عنده أشبه بالطبع.

لا شك أن كل إنسان منذ الصغر، يفخر أنه يطلق عقله بالمعارف والعلوم، أن كل شخص يجب أن يوصف أنه شجاع وشهم، وكريم وعفيف وصادق وعادل ومعتدل، إلى ما هناك من فضائل اجتماعية تهم كل فرد، في أي مجتمع من المجتمعات.

أما الجانب السلبي، وأقصد به الرذيلة، فاعتقد أن أحدها لا يشرفه أن تلصق به صفات مثل جبان أو شرير أو بخيل أو ظالم أو شره وغني، إلى آخر ما هناك من رذائل يحاول كل شخص أن يبتعد وأن يتحرر من أن تلصق به أية واحدة منها في أية مرحلة من مراحل حياته.

أفلاطون يشير إلى أن الرجل الفاضل يبقى ممجداً طوال حياته، وذكرى أعماله الحسنة تبقى خالدة بعد وفاته، لا ينسى الفيلسوف الكبير إلى أن ينبه إلى أن الإنسان الشرير، الذي تعود على ممارسة الرذائل، مهما حاول أن يخفي أفعاله، فإنها ستظهر يوماً ويكتشفها الآخرون، ويبقى مثار سخرية واحتقار الآخرين له طوال عمره.

لا شك أن أفلاطون نفسه، قد تعلم من أستاذه سقراط، أن التعاليم والمعارف تغرس في نفوس الأطفال، لأن ذواتهم ما تزال طيعة. تقبل ما يصل إليها بسهولة وتقبل، وتنقش في صدورهم الحكمة كالنقش على الحجر.

إن أفلاطون ينقل عن أستاذه سقراط، إن قال أن الرجل الفاضل أسعد من الرجل الشرير، مهما لاقى الأول من منحى وضيق وعوز، ومهما نال الثاني من حظوة ومال وجاه، إن **الأول** رابط الجأش لأن سعادته تكمن في راحته الداخلية وتماسكه وتوازنه واعتداله وبراءة نفسه، أما **الثاني** فمهما تظاهر بالرضا عن نفسه، فهو شقي في أعماقه يعظم روحه بألم، لما اقترفه من آثام.

يذكر أفلاطون أن سقراط يذهب في الرأي إلى إن الإنسان الفاضل لا يعطي الحياة أكثر مما يتحقق من الاهتمام، الإنسان الفاضل يبقى متماسكاً محتفظاً بتوازنه، مهما أصابته المصائب ومهما حلت به الكوارث، حتى لو أنه فقد ولده أو ماله، فإنه يدرك أن كل شيء متغير في هذه الحياة، ولا يبقى حال على حاله.

إن الرجل الفاضل يشعر بما حاقه من ألم، على أنه يتغلب على ذلك، لأنه يعلم علم اليقين أن الحزن يؤذيه ولا يحقق له شيئاً ذا بال، أنه يحكم عقله، إذا ما وقع في محنة شديدة أو خسر خسارة فادحة، ويلتزم جانب العقل ليصلح حاله بأحسن الوسائل بدلاً من التوقع والانحسار.

إننا نلاحظ ببساطة، أن أفلاطون يسجل أفكار أستاذه سقراط، في التغلب على قسوة الحياة بقوة الإرادة وصلابة العقل، أن هذه الفكرة ذاتها سوف تؤسس مدرسة يونانية لاحقة، كل فلسفتها عليها، المعروف أن المدرسة الحرواقية مدرسة أخلاقية متأخرة، اشتهرت بفلاسفتها الأخلاقيين، كل ما جاء به هؤلاء الفلاسفة حكمة بنوا فلسفتهم عليها، مفادها (عش وفاقاً للطبيعة) وهي عين ما ذكره أفلاطون عن أستاذه سقراط في الفقرة أعلاه، وكل ما أتت به المدرسة الابيقورية أيضاً، هو التمتع باللذة من دون ألم، هذا هو عين ما ذكره أفلاطون، أن على الإنسان أن يتمتع باللذة على أن لا يعقب ذلك ألم.

أفلاطون واصل تعاليم أستاذه في التوجه إلى دراسة الأخلاق إلى درجة استطيع القول أن أفلاطون مسكون بكل ما هو أخلاقي، حتى حرية الإنسان، فإن أفلاطون يشترط فيها أو يجب أن تقترن الحرية بالأخلاق.

أفلاطون يرى أن الرذيلة أكبر الشرور، بل هي أساس كل الشرور، مع ذلك فإن أفلاطون لا يخالف أستاذه سقراط في الرأي بأن الإنسان يرتكب الرذيلة وهو جاهل بها، لا شك أن هذا الرأي الذي يتبناه أفلاطون عن أستاذه سقراط، أقرب لمن يعتقد بالقضاء والقدر.

إننا إذا أردنا أن نلتزم جانب الموضوعية في الحكم على الأفكار، فإن الفضيلة ممكن أن تعلم بالممارسة والتوجيه والتدريب، إلى أن تصبح عادة بل قد تغدو أقرب إلى الطبع.

إن العقل الحازم يستطيع أن يقاوم كل أفراط، وأن يتغلب على الشهوات، أنه في الوقت نفسه قادر على الأحكام على ما هو حسن وجميل وممدوح، إن الإنسان له

القدرة على مقاومة الرذائل إذا ما أدرك عواقب شرورها، حتى أنه يبتعد عنها ويتخلص منها ويكون في منأى عن كل ما يسيء إليه من نظر الآخرين.

إن كل إنسان حين يستذكر تاريخ حياته، يرى بوضوح كيف أنه نمّى الخلال الحسنة في نفسه حتى صارت أشبه بالطبع عنده، وتخلص أو ابتعد عن كل العوائق السيئة التي تثير الاحتقار ضده.

القضية إذن منوطة بقوة العقل لدى كل إنسان وتقدم درجة ذكائه، إن الإنسان العاقل أكثر فطنة من محدود الذكاء في هذا الشأن، الإنسان الذكي له القدرة على مقاومة كل ما هو شائن قد يعكر صفو حياته، وعلى أن الآخرين يندفعون وراء شهواتهم، دون أن يحسبوا حساباً لما سوف تأتي به الأيام من عسر الحساب.

إذا أردنا أن نتوضى الدقة في الحكم على سلوك الإنسان، فإن الإنسان يعلم جيداً أنه يقدم على الفعل الحسن، كما أنه يدرك مقدماً حين يقترف نوعاً من الشرور، الإنسان إذن يعلم قبل أن يعمل سواء أكان ذلك سلباً أم إيجاباً، الإنسان يعرف جيداً أنه يلتزم جانب الصواب حين يفعل خيراً، وأنه يخالف الحق حين يقترف ذنباً.

لا شك أن الإنسان الذي يتخذ العقل دليلاً ومرشداً يسعى إلى فعل الخير، ويستحق أن يطلق عليه أنه رجل فاضل، بالمقابل فهناك من يفعل الشر هو عالم أنه يعمل الشر، ولا يهمه ما يترتب على ذلك من نتائج.

لا بأس بعد هذا أن أقول أن كتاب الأخلاق لأرسطو كتاب جليل القدر، تناول فيه كثيراً من القضايا التي تهم الإنسان، مثل الفضيلة والعدل والاعتدال واللذة والسعادة والصداقة إلى آخر ما هناك من مسائل وقضايا أخلاقية.

ما أود ذكره أن أرسطو اشتهر بنظريته في الاعتدال حتى أطلق عليه أن صاحب نظرية الوسط الذهبي، أود أن ألقى على ضوء ساطعاً في هذا المقام، فأقول أن الفيلسوف

أفلاطون هو الذي نادى بوجوب الاعتدال في السيرة، وأن أرسطو قد اقتبس هذه المقولة من أستاذه أفلاطون.

إن أرسطو بنى كل ما قاله وعالجه في كتاب الأخلاق النيقوماخية على نظرية الوسط، التي هي في حقيقة أمرها أفلاطونية، لا شك أن أرسطو قد استقى نظرية الاعتدال من أستاذه أفلاطون، على أننا إذا ذهبنا في أمور أوسع، فإن الآداب العالمية في الحضارات القديمة قد نادت بوجوب الاعتدال في الحياة قبل أرسطو وأفلاطون وسقراط.

إن من يقرأ بنود شريعة حمورابي، يلاحظ بوضوح أن حمورابي يطلب من الناس الاعتدال في السيرة الحالة نفسها موجودة في ملحمة كلكامش، إن على الإنسان أن يلتزم جانب الحكمة في الحياة، إذا أردت أن أعرج إلى الشرق، فإن بوذا وكونغوشيوس، قد بينا حكمتها على الاعتدال وعدم التطرف في الحياة.

إن السبب الذي جعل أفلاطون يوصي بالاعتدال، لأنه قال أنه ليس بالإمكان جماح الفرد وحرمانه من كل شهواته الحسية، لا بأس على الإنسان أن يتمتع بلذائذ الحياة على إلا يفرط وفقاً للطبيعة البشرية، على الإنسان أن يحكم العقل في إشباع شهواته من غير تبذل في الطلب أو الانهماك في اللذات الحسية.

الوسط إذن خيار العقل كما يرى أفلاطون كي يحفظ توازن الإنسان فلا إفراط ولا حرمان أن الاعتدال في الحياة في تناسب مقبول، يكسب الإنسان فيغسله ويحقق له الراحة والسعادة والأمان.

ينتقل أفلاطون من الطريق الذي يحقق السعادة للفرد هو الاعتدال إلى العدل الذي يحقق السعادة للمجموع، أن الفرد الحاكم يحاول أن يفرض أمره على الجمهور

ويريد منه أن يتقبل تعاليمه ويخنع لكل ما يقول، المجتمع بدوره لا يتقبل الظلم بهذه البساطة ولا يستطيع تقبل الذل من ملك مستبد.

هنا تأتي أهمية الاعتدال عند الأفراد، فتتحول إلى ما يعرف بالعدل عند الملك والشعب على السواء، إن المجتمع الذي يروم السعادة ويبغى الأمن والسلام، عليه أن يسير مسيرة توافقية بين طلبات الحاكم ورغبات الجمهور من أجل تحقيق الخير العام.

الفضيلة إذن تعلّم أي يمكن تعليمها، سقراط نفسه الذي أتى بمقولة (إن الفضيلة لا تعلم) كان يعلم تلاميذه الفضيلة ومنهم أفلاطون، الفيلسوف أفلاطون علّم الفضيلة لتلاميذه، ومنهم أرسطو الذي أثبت أنه أذكى تلاميذه وصار أشهرهم.

أرسطو نفسه سار على نهج أستاذه حين كان يعلم الفضيلة لطلابه ماشياً، فأطلق على مدرسته بالمدرسة المشائية.

نلاحظ من خلال استعراض بعض آراء أفلاطون الأخلاقية التي أثرت في جوهر أخلاقيات أرسطو، أفلاطون يؤمن بالعقل، أن أفلاطون يؤمن أن عقلاً مدبراً صنع كل شيء على أحسن ما يكون ونظمه خير نظام، إن على الإنسان إذن أن يتبع عقله، وأن يسعى دائماً إلى الكمال، أنه عن طريق العقل يكون فاضلاً، وبالعقل يحصل على السعادة والهناء.

إذا أردنا الدقة في تتبع حصول فكرة احترام العقل عند أفلاطون هو أن الفيلسوف اليوناني الكساغوراس قال: (إن العقل أصل كل شيء في العالم)، الفيلسوف اليوناني هيماقليطس أيضاً قد سبق أفلاطون، حين قال: (أن أجمل القردة إذا قورن بالإنسان ظهر قبيحاً)، وقوله: (إن الإنسان الحكيم لا يظهر بجانب الله وجماله إلا كالقرد).

لا بأس أن أذكر مقولة لهرقليطس، قد تشتبه على العامة ويفسرونها تفسيراً مغايراً لحقيقتها، مقولة هرقليطس: (إن شخصاً واحداً من عليه القوم خير من ألف ألف من الدهماء).

الحقيقة أن هيراقليطس، لا يقصد هنا الطبقية الاجتماعية، بل يقصد أن حكيماً مميزاً خير من ألف ألف شخص من الجهلاء.

لو نظرنا الآن إلى حياتنا العملية فنسأل أنفسنا: كم يساوي مخترع الكهرباء إلى غيره من الناس؟ ما الفرق بين مكتشف دماء لعلاج مرض مستعصي وبين مليون شخص لا يفقهون من أمرهم شيئاً؟ كم يساوي في حضارتنا العربية أشخاص مثل: (الجاحظ، المتنبي، ابن الهيثم، الفارابي، الغزالي، ابن خلدون...).

إن أفلاطون يرتقي بفكرة العقل، من العقل الإنساني الذي يقوده إلى كل ما خير والابتعاد عن كل ما هو شر إلى عقل الفيلسوف، الذي يسعى للارتقاء والوصول إلى عالم (المثل) عالم (المعقولات الكلية) حين يرى (مُثل الخير والجمال والعدل، ثم ينزل إلى العامة، ليأخذ بأيديهم لما هو خير لهم وأنفع وأجدل.

يبقى أفلاطون عند رأيه، من أن حب الذات مطبوع في نفوسنا، وإنه يرافقنا مدى الحياة، أن حب الذات هذا، الذي ركبته الطبيعة فينا، له فائدة عظمى من حيث إن الإنسان يحافظ على وجوده، بهذه القوة البنائية، يحاول أفلاطون أن يتغلب على هذا العيب الطبيعي عند الإنسان، حين يوصيه أن يلتزم جانب الحق حين يؤدي واجبه، عليه أن لا يفرط في حب ذاته، بل يعمل كل ما هو خير، فيقف موقفاً عادلاً بين ما له وما عليه.

إن سقراط إذن حين أطلق مقولته الشهيرة: (أعرف نفسك!) وسار أفلاطون على نهجها الأخلاقي وكذلك سوف يفعل أرسطو، أقول أن سقراط لا يقتصر هدفه على

معرفة الإنسان بقدر نفسه، والعمل بها كما هي عليه، بل أن هدف سقراط الأخلاقي، يهدف إلى ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان.

اعتقد أنه لا حاجة أن أكرر القول في أن أرسطو صدى بصوت أفلاطون، لولا أفلاطون لما كان أرسطو، أن الأخير قد تعلم في أكاديمية أفلاطون، وأن كتابه في الأخلاق يعتمد اعتماداً كلياً على فلسفة أفلاطون الأخلاقية.

مهما غيّر أرسطو في النظريات التي يعرضها، أو قد يذكرها بصيغة أنه يخالفها، على أن المتتبع لكل ما عرضه أرسطو في كتابه الكبير هذا، مثل: الخير والسعادة والفضيلة والصداقة واللذة، والعدل والاعتدال والوسط، فإنها كلها قد تناولها أفلاطون بصورة مفصلة، وربما كتب كتاباً كاملاً في فضيلة من الفضائل المذكورة.

ربما هناك اختلاف جوهري من حيث أن أفلاطون يؤمن بفراق النفس للجسد، غير أن أرسطو يعدهما شيئاً واحداً، أفلاطون يرتقي بجدله الصاعد من الحسن إلى النفس إلى العقل إلى المُثل (الكليات العقلية) على أن أرسطو مادي المذهب، ينكر كل أثر للروح.

إذا كان أفلاطون يسعى إلى التدرج من طلب الفضيلة ارتفاعاً إلى تحقيق الخير الذي هو الغاية الأسمى للحياة الإنسانية، فأرسطو اكتفى بالقول أن السعادة هي الغاية الأسمى للحياة الإنسانية.

إذا أردت أن أمر مروراً سريعاً، على أهم المواضيع التي تناولها أرسطو، فإنه يولي اهتماماً خاصاً للسعادة، غير أنه مع ذلك يفلسف الحالة ويقول أن من الصعوبة بمكان أن يكون الإنسان سعيداً على الدوام،، أنه يضع شروطاً للسعادة، مثل شرف الموعد وجمال الصورة والصحة وحسن الأصدقاء، مع ذلك فإن أرسطو يقول أن الإنسان معرض للمرض والهرم وخسارة المال وفقدان الأصدقاء.

أرسطو يخالف رأي أستاذه أفلاطون، فيما يخص علاقة الأخلاق بالسياسة، أفلاطون يرى أن السياسة جزء من الإخلاص، أما أرسطو فهو يقول أن الأخلاق تابعة للسياسة، حجته في ذلك أن الأخلاق تهم سلوك الفرد، أما السياسة فتخطط بقيادة الجماعات.

أرسطو إذن يرى أن علم السياسة هو علم الخير الأعلى للإنسان، كونه يشمل أغراض العلوم الأخرى، وهدفه سعادة المجتمع.

على الرغم من أن أرسطو يخصص كتاباً كاملاً للفضيلة، غير أنه لا يخرج عن دائرة أفلاطون في الآراء والأفكار التي يسردها والأمثلة التي يعطيها، كل ما يذكره أرسطو أن الفضيلة مرتبطة بسلوك النفس، وأن الهدف منها تحقيق السعادة، وأنها تقوى بالممارسة والمران.

قد اجتهد أرسطو في تقسيم الفضيلة إلى خلقية وعقلية، على أنه حتى في هذا التقسيم لا يبتعد عن تأثير أفلاطون، أرسطو يذكر الفضائل الخلقية نفسها التي قررها أفلاطون، أن اقتراب أرسطو من العقل هو تقسيم أفلاطون، وارتقائه بالإنسان من الحس إلى العقل.

أرسطو يعطي أهمية للممارسة، فعنده أن الفضيلة العقلية ترقي بالتربية والاجتهاد، والفضيلة العقلية تقوى بالرياضة والعادة، أن هذا هو عين ما كان قد قرره أفلاطون في كتاباته الأخلاقية، كل ما هناك أن أرسطو يستطرد في ذكر الأمثلة والتشبيهات والمقارنات.

أما نظرية الوسط، التي يوليها أرسطو اهتماماً بالغاً، وربما قد أقام عليها فلسفته الأخلاقية، فهي الأخرى أفلاطونية المنبع والأصول، لقد سميت نظرية أرسطو في الوسط (بالوسط الذهبي).

لا بأس أن أذكر أنه ليس حرياً بالالتزام في الوسط بين طرفين، أنه أخلاقي اجتماعي في هذا الشأن، الوسط بين الواحد والمائة ليس خمسين بالضرورة، بل من الممكن أن يكون الوسط بين ثلاثين إلى سبعين، المهم عدم التطرف والاستقطاب في السلوك والتعامل، سواء أكان يهم الفرد أم الجماعة.

يولي أرسطو اهتماماً كبيراً للحرية الإنسانية، فهو مثلاً يخالف أستاذه أفلاطون الذي كان قد قال أن فعل الشر غير إرادي.

أرسطو يعطي البراهين الكثيرة، من أن الإنسان يعي ما يفعل وأنه مسؤول عن تصرفه وما يصدر عنه أفعال، لأن الإنسان يدرك حقيقة ما يفعل، سواء أكان خيراً أم شراً.

إذا كان أفلاطون قد اهتم اهتماماً كبيراً بالعدل، فإن أرسطو أفاض في التوضيح وذكر الأمثلة والمقارنات، أن أرسطو يحاول إلا يترك شيئاً حتى يشبعه درساً وتعميماً.

أما موضوع الصداقة، فإذا كان أفلاطون قد خصص محاور البنديس، لمناقشة الصداقة وأهميتها بين الأفراد، فإن أرسطو قد خصص كتابين (فصلين) من علم الأخلاق، لدراسة الصداقة وشؤونها وأقسامها، أرسطو لم يكتف بدراسة الصداقة عند الأفراد، بل تعدى ذلك إلى الجماعات والممالك أيضاً.

أما مسكوية فهو نتاج الحضارة العربية، وكتاباته الأخلاقية مزيج من التأثر بالفلسفة اليونانية وما أنتجته الثقافة العربية، أنه قد ازدهر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، حين كان النشاط الفلسفي مزدهراً، وخلاصة لما خلفه الفلاسفة السابقون مثل الكندي والرازي والفارابي.

لقد اشتهرت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري مدرسة فارابية عرفت بمدرسة بغداد الفلسفية، ترأسهم الفيلسوف عن ابن عدي التكريتي ألمع تلاميذ

الفارابي، كان لهذه الجماعة أثر في الحركة الفلسفية، منهم أبو سليمان المنطقي وابن زرعة وابن الخمار، وأبي حيان التوحيدي وغيرهم كثيرون.

مسكوية كان أحد أفراد هذه الجماعة، أو أنه على تماس فكري معهم بدليل أن الكتاب المشهور (العوامل والشوامل) كان عبارة عن جواز فكري بينه وبين أبي حيان التوحيدي.

لقد أفاد مسكوية من تراث هذه الجماعة الفلسفية، ولاسيما من فلسفة يحيى بن عدي، إذ أثر في مسكوية تأثيراً مباشراً، ولاسيما في كتابه (تهذيب الأخلاق)، إن مسكوية قد أخذ كثيراً من أفكار يحيى بن عدي المذكورة في كتابه (تهذيب الأخلاق) من هذا فإن مسكوية، على ما يبدو، اقتبس عنوان أهم كتبه الأخلاقية من يحيى بن عدي التكريتي، حين أطلق عليه اسم (تهذيب الأخلاق)، مع أن يحيى بن عدي التكريتي عنده كتاب أخلاقي مشهور بعنوان (تهذيب الأخلاق).

لا شك أن مسكوية، كتب عدة كتب في فلسفة الأخلاق مثل (الفوز الأصغر) و(الفوز الأكبر) و(الحكمة الخالدة) على أن أكثرها أهمية هو كتاب (تهذيب الأخلاق) لقد طبع هذا الكتاب الأخير عدة طبعات، ويعبر تعبيراً شاملاً عن آراء مسكوية في فلسفة الأخلاق.

استطيع القول أن كتاب (تهذيب الأخلاق) لمسكوية، هو خلاصة أو أنه مزيج للفكر اليوناني والعربي وأرسطو، يعتمد على الفكر العربي الإسلامي، بدءِ من القرآن الكريم وانتهاء بفلسفة يحيى بن عدي وكتابه (تهذيب الأخلاق).

لا شك أن فلسفة الأخلاق تعد ركناً مهماً في الدراسات الفلسفية بل أن بعضهم يعدها أهم فروع الفلسفة الأخرى، من حيث أن لها تماساً مباشراً مع الإنسان وحياته وعلاقاته المتشابكة المتنوعة مع الآخرين.

إذا أردت أن استعرض الفكر الأخلاقي العربي، أجد أن العرب قد اهتموا منذ عصور ما قبل الإسلام بالفكر الأخلاقي، على المستوى العملي، فقد عرف العرب مكارم الأخلاق، وتميزوا بالسيرة الأخلاقية، وطبقوها عملياً، مثل الكرم والعفة والشهامة وحماية الجار وضبط النفس عند الغضب.

أما على المستوى النظري، فقد اشتهر العرب في قول الشعر وفي درجة أقل بالخطابة قبل الإسلام، الشعر ديوان العرب، وأن من يتصفح دواوين الشعراء الكبار، ولاسيما الذين اشتهروا بمعلقاتهم الفريدة، يجد أن الحث على مكارم الأخلاق ديدنهم الطبيعي، دون تصنع ولا افتعال.

يستطيع أي متتبع للشعر العربي قبل الإسلام أن يكتشف أن ديوان شعر زهير بن أبي سلمى — مثلاً- شعر أخلاقي بالكامل، وأن هدفه العام الحث على مكارم الأخلاق.

أما الصفات الحميدة العامة، التي كان يحث عليها أو تغنى بها الشعراء العرب قبل الإسلام، مثل الكرم والحلم والعفو عند المقدرة، فهي مشهورة، يحفل بها شعرهم البليغ الشهير.

إن من يتتبع حياة حاتم الطائي، يجدها تزخر بحياة العربي الحر الكريم، حاتم الطائي نفسه، يسجل بعض وقائع كرمه شعراً، حين يأخذه الوجد أو يصف حالة من الحالات التي وقعت له، أو أنه يعد الطعام بانتظار الضيوف.

لقد افتخر العرب بالشجاعة وعدوها أم الفضائل، العربي كان يتمنى أن يلقى حتفه في المواقع الحربية وليس على فراش الموت، شعر عنترة بن شداد مشهود له في القتال، وكيف أنه يعف عند المغنم، أما الإباء فقد مثل عمرو بن كلثوم في شعره، وحفظ العهد فإن خير مثال اذكره في هذا المقام.

إذا كان مصطلح فلسفة يونانياً، فإن العرب قد ترجموا كلمة فلسفة إلى مصطلح حكمة، كما أطلقوا على الفيلسوف اسم حكيم.

مسكوية ابن العراق، والمعروف أن الحكمة وجدت في العراق، وإن العراق منبع الحضارة الإنسانية، ففي العراق رسم الحرف وصنعت الكلمة وكتبت الحكمة.

إن الوعي الإنساني بدأ في العراق، حين استطاع العراقي أن يرسم الدائرة ويبني العجلة ويقيم السدود اتقاء الفيضان ويبني الدور ويضبط تعاقب فصول السنة بحساب دقيق إلى أن استطاع أن يكتب الملاحم المملوءة بالحكمة، ويشرع القوانين التي فيها خير الإنسان وسعادته.

المعروف في الفلسفة اليونانية، أن فيثاغورس هو أول فيلسوف يوناني لا يهتم في ما بعد الطبيعة، بل أن اتجاهه أخلاقي رياضي، أن تأثير فيثاغورس في أفلاطون واضح ومعروف.

إن فيثاغورس درس في بابل، وأن المسحة الشرقية واضحة في منهجه إضافة إلى آرائه الرياضية التي استقاها من العراق، أن فكرة العدد التي أقام عليها فلسفته مأخوذة من الرياضيات العراقية.

إن فكرة العدل مثلاً، التي يهتم فيها كل من أرسطو ومسكوية على السواء، فإن العراقيين عرفوا فضيلة العدل، وكتبوها في شرائعهم المتعاقبة التي أبرزها وأكثرها تكاملاً، وهي شريعة حمورابي، إن العراقيين مارسوا فضيلة العدل عملياً، من حيث أقامت المجالس الشعبية، أو ما يعرف الآن بالمجالس النيابية، أما على المستوى النظري، فقد دونوا القوانين لتنسجم العلاقة بين الحاكم (الملك) والجمهور (الشعب).

المعروف عن مسكوية أنه لا يستعمل رأياً فلسفياً إلا بعد أن يخضعه للفكر الإسلامي، أن مسكوية يستشهد بآيات من القرآن الكريم ومن الأحاديث النبوية،

إضافة إلى آراء الأدباء مثل ابن المقفع ثم الفلاسفة اللاحقين إلى عصره الذي كتب فيه كتبه الأخلاقية.

لا شك أن القرآن الكريم كتاب أخلاقي، ويحمل من القيم الإنسانية، التي يخاطب فيها الناس أجمعين، ما لا يحمله كتاب آخر، القرآن الكريم يدعو إلى الفضيلة والأعمال الصالحة في الوقت نفسه الذي يحذر من الرذيلة والأعمال الشريرة.

حين أقول، أن القرآن الكريم كتاب كامل في الأخلاق، فهو يدعو على الفضيلة ويحذر من الشر، القرآن الكريم يحث على طلب العلم والمعرفة ويشيد بالعلماء والعاملين في سبيل العلم في الوقت نفسه، فإن القرآن الكريم يحث على عمل الخير ويوصي بالوالدين والعطف على الفقراء والمساكين.

القرآن الكريم يحث على إقامة العدل بين الناس، إن العدل أساس الملك بين الحاكم والمواطنين، كما أن العدل أساس متين للحياة الاجتماعية والتماسك الاجتماعي سواء أكان ذلك بين الأفراد أم بين الجماعات.

لا شك أن الأخلاق القرآنية أثرت في العرب جميعاً، سواء العوام منهم أم العلماء، إن العامة تخلقت بأخلاق القرآن، وأضافوا ما جاء في القرآن من مفاهيم أخلاقية وتربوية على ما ورثوه من فضائل كان الآباء والأجداد يتمثلون بها قبل الإسلام.

أما العلماء والأدباء، فقد أثر القرآن الكريم فيها من حيث الأسلوب البليغ مع ما جاء فيه من حكم ووصايا ومعرفة، صار الأديب يقتدي بالأسلوب القرآني، والفقيه يجتهد في التفسير، أما الحكيم (الفيلسوف) فإنه يستنير به ويهتدي بهديه.

الفيلسوف العربي مهما تشبع بدراسة الفلسفة اليونانية، فإنه لا يستطيع التخلي عما جاء في القرآن وحكمه، أو ما تلا ذلك من دراسات قرآنية، هكذا فعل الفيلسوف الفارابي في كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) والشيء نفسه عمله مسكوية في كتابه

(تهذيب الأخلاق)، حين كتب كلاً من الفيلسوفين المذكورين، وهو يمزج مزجاً منسجماً متناغماً بين تراث الفلسفة اليونانية، وبين ما وصل إليه من الدراسات في الأخلاق القرآنية وما تلا ذلك من اجتهادات إسلامية.

يولي مسكوية اهتماماً خاصاً بالحديث النبوي الشريف، ويستشهد بالأحاديث النبوية في كتاباته الأخلاقية، لا شك أن الحديث النبوي، هو كل ما قاله أو فعله أو قرره نبينا الكريم (ﷺ).

تأتي أهمية الأحاديث النبوية في الدراسات الإسلامية بعد القرآن الكريم مباشرة من حيث أن الأحاديث النبوية مكملة للشريعة، لقد اهتم بدراسة الأحاديث النبوية أصحاب الحديث وعلماء الكلام والفقهاء والأدباء والفلاسفة على السواء.

سبب هذا الاهتمام لأن الأحاديث قول الرسول أو فعله، فهي إذن أساس متين للتعاليم الإسلامية بعد الهداية القرآنية، إن الأخلاقيين بخاصة، اهتموا بالأحاديث النبوية، لأنها أنموذج للتوجيه الأخلاقي، مثل: (خياركم أحاسنكم أخلاقاً) أو (بعثت لأتمم مكارم الخلق) أو (أحب لغيرك ما تحب لنفسك).

الحقيقة إن الأحاديث النبوية تعد بعد القرآن الكريم مدرسة من حيث التوجيه نحو مكارم الخلاق والحث على عمل الخير والتحلي بالفضيلة، الحديث النبوي يحث على طلب العلم، كما أنه يوصي بالعدل بين الناس، لأن الناس سواسية كأسنان المشط، الأحاديث النبوية تنهى عن كل ما هو شر، مثل الكذب والحسد والظلم.

لا شك أن الدراسات العلمية قد بدأت في البصرة والكوفة حين ازدهرت دراسة الحديث النبوي، ثم جاء الاعتزال فتكونت مدرسة المعتزلة، التي كان لها أثر كبير في الحركة العقلية فيما بعد، في بغداد ولاسيما في العصر العباسي الأول، وبالأخص في زمن المأمون والمعتصم.

اشتهرت أيضاً في البصرة أول جماعة صوفية، عرفوا بكتاباتهم الشعرية والنثرية، لا شك أن التصوف مذهب أخلاقي في السيرة والسلوك، إلى جانب التعمق في الدراسات العقلية.

استطيع القول أن الحركات السياسية وما تبعها من مدارس في الفقه والعقيدة قد نشأت في العراق، لقد كان العراق ساحة نزاع عملي إلى جانب تساؤل فكري، النزاع العملي تمثل بالصراع وما نشأ من هروب، أما التساؤل الفكري، فكان يتلخص في من هو أحق بالإمامة؟

مسكوية إذن تمثل ما سبقه من معطيات الحضارة العربية الإسلامية، بدء من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ثم أفاد كثيراً من أدب الأدباء وتصوف المتصوفة وفقه الفقهاء، أنه حين يذكر الحكمة التي يستند إليها أو يعترض عليها، يذكر اسم قائلها صراحة وهذا منتهى الصدق العملي.

أما الفلاسفة المسلمون الذين سبقوه، فإنه من دون أدنى شك قد أطلع على فلسفاتهم، واستفاد كثيراً من حكمهم الأخلاقية واستعمالها في كتابه تهذيب الأخلاق، إلى جانب ما وعاه واستوعبه من الفلسفة اليونانية.

لا شك أن مسكوية قد تأثر كثيراً بفلسفة الكندي (ت ٢٥٢ هـ) أول فيلسوف تفلسف عند العرب، أو أنه قد تحول من علم الكلام إلى الفلسفة.

الكندي له آراء أخلاقية قيمة في الإنسان، وما يتوجب عليه من التحلي بالفضائل وتجنب الرذائل.

أما تحفة الكندي في فلسفة الأخلاق — في رأيي- فهو كتابه (في الحيلة لدفع الأحزان) هذا الكتاب الفريد الذي عالج فيه الكندي مشكلات النفس والتخلص منها بطريقة لم يسبقه إليها فيلسوف من قبل، لا إسلامي ولا يوناني.

أن أثر هذا الكتاب واضح، في كتابات الفلاسفة الذين أتوا بعد الكندي، مثل أبي بكر الرازي وابن سينا وغيرهم، أن من يقرأ هذا الكتاب ويرى النظرية الجديدة التي عالج فيها الكندي التغلب على أمراض النفس، يظن أن موثق هذا الكتاب من علماء النفس في القرن العشرين.

يختص الكندي سبب المخرج في مشكلتين: فقد المحبوبات وفوت المطلوبات، أن الكندي ينصح الإنسان بأنه خاضع للكون والعدم، ولذا عليه إلا يأسف ما يفوته من رغبة في هذه الحياة، يشير الكندي في كتابه القيم هذا إلى كثير من الطرق التي تجعل الإنسان قادراً على التخلص من الحزن وآثاره على النفس والجسم.

المهم في هذه المقدمة، أن أذكر إلى أن مسكوية، قرأ كتب الفيلسوف الكندي واستوعبها وأفاد منها، إن مسكوية نفسه، سوف يستعمل أفكار الكندي الأخلاقية – كما سنرى- ولاسيما كتابه في دفع الأحزان.

أما أبو بكر الرازي (ت ٣٢٠هـ) فهو الطبيب الإنساني الأشهر، في تاريخ الطب دراسة وتطبيقاً، أنه طبيب عالم، ويكفيه فخراً أنه كتب كتاب (الحاوي)، أما في التطبيق، فإن المصادر تذكر أنه كان يداوي الفقراء مجاناً، ويجري عليه الجرايات.

للرازي كتابات كثيرة في الطب والفلسفة، إن ما يهم الموضوع الذي أنا بصدده كتابان كبيران في قيمتهما، وهما (الطب الروحاني) و(السيرة الفلسفية) استطيع أن أعرف كتاب الطب الروحاني، بأنه كتاب في علم النفس، لمعالجة الأنفس المريضة، أما كتاب (السيرة الفلسفية) فإن أبا بكر الرازي أول فيلسوف في تاريخ الفلسفة – بحسب علمي – يسجل اعترافاته في كتاب يمكننا أن نتصور عدد السنين التي سبق فيها الرازي، الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو حين كتب اعترافاته في أواخر القرن الثامن عشر.

المهم في موضوعنا هذا، أننا سنلاحظ ببساطة كيف أن مسكوية قد استفاد من كتاب (الطب الروحاني) واستعمل فقرات كثيرة منه، في كتابه (تهذيب الأخلاق) ولاسيما ما يخص الخوف من الموت.

أما أبو نصر الفارابي (ت٣٣٩هـ) فقد كتب كتباً عديدة في فلسفة الأخلاق، الفارابي في الحقيقة هو مؤسس (الفلسفة الإسلامية) وكتاباته في السياسة مشهورة، ولاسيما كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة).

إذا كان مسكوية لم يذكر اسم الفارابي – بحسب ما أعلم – صراحة في كتاباته الأخلاقية، ولاسيما في كتابه الأهم (تهذيب الأخلاق) على أنني وجدت كثيراً من الاصطلاحات والجمل والعبارات في هذا الكتاب فارابية، مثل علاقة رئيس الدولة بأهل المدينة، أو كيف احتاج الناس إلى بعضهم واجتمعوا في مجتمع واحد.

أما تأثر مسكوية بفلسفة يحيى بن عدي التكريتي (ت ٣٦٥هـ) فواضح كل الوضوح، ولاسيما في أن مسكوية كان على صلة ثقافية حميمة مع أعضاء مدرسة يحيى بن عدي المنطقية، مسكوية إذن لا بد أنه أطلع على كتابات أعضاء هذه المدرسة الذين ازدهروا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.

أطلق مسكوية على أهم كتبه الأخلاقية عنواناً يشبه أو يتطابق أو بالأحرى ربما أخذه من عنوان كتاب يحيى بن عدي في الموضوع نفسه، كتاب يحيى بن عدي التكريتي عنوانه (تهذيب الأخلاق) يأتي مسكوية بعد ذلك ليطلق على كتابه أيضاً اسم (تهذيب الأخلاق).

إن مسكوية في الحقيقة قد قرأ كتاب يحيى بن عدي جيداً، وتأثر به بل استعمل كثيراً من الحكم والأفكار والآراء والعبارات نفسها، أو ما يطلق عليه: الحافر على الحافر، مسكوية لم يتردد في استعمال كثير من أفكار يحيى بن عدي، دون أن يشير إلى ذلك.

أود أن اذكر أنني عملت مقارنة واسعة دقيقة بين الأفكار التي تأثر بها مسكوية بابن عدي، والتي اقتبسها منه اقتباساً، والتي نقلها نقلاً ووضعها في كتابه وكأنها من

إبداعه، ذكرت كل ذلك في كتابي (يحيى بن عدي وكتابه تهذيب الأخلاق-بالإنجليزية)، فمن شاء أن يطلع على ذلك فالكتاب مطبوع ومتوفر في المكتبات.

بعد هذا، لا بأس أن اذكر وجود كثيراً من المشابهات والاختلافات بين أرسطو ومسكوية، أرسطو كان مربياً ومستشاراً للأسكندر الأكبر، أما مسكوية فكان وزيراً لعضد الدولة البويهي.

أما في منحاهما الفكري، فإن أرسطو درس كتب أستاذه أفلاطون، إضافة إلى إطلاعه على التراث اليوناني قبل سقراط، مسكوية درس واستفاد من التراث الفلسفي اليوناني والإسلامي.

أرسطو كتب في جميع فروع المعرفة، وقد خصص للدراسات الأخلاقية كتاب (الأخلاق النيوماخية)، كما نجد بعض الملامح الأخلاقية في كتبه الأخرى، ولاسيما كتاب (النفس)، أما مسكوية تكاد كتاباته تنحصر في الأخلاق، ماعدا كتابه (تجارب الأمم) فهو يبحث في التاريخ.

هدفي من هذا الكتاب، يقوم على المقارنة في فلسفة الأخلاق بين أرسطو ومسكوية، وإظهار خصائص كل من الفيلسوفين، ومدى تأثرهما بفلسفة وأفكار الفلاسفة السابقين.

سأجتهد أيضاً في إظهار إبداع كل من الفيلسوفين في حقل فلسفة الأخلاق، وإظهار أوجه التشابه والتباين في فلسفتهما الأخلاقية.

عمان — مرج الحمام

تموز — آب/ ٢٠١١

الفصل الأول

النفس

النفس

إن هدف مسكوية الأول من كتاباته الأخلاقية، هو تقويم النفس، والحصول على الخلق الجميل، أنه يبدأ كتابه (تهذيب الأخلاق)، فيقول: إن غرضنا من هذا الكتاب هو أن نحصل لأنفسنا خلقاً، تصدر به الأفعال عنا كلها جميلة، أنه إذن يريد قبل كل شيء أن نعرف نفوسنا، وما هي الوسائل التي تزكيها فتفلح، وما هي الأشياء التي تعيقها عن طريق كمالها فتخيب.

مسكوية يريد إذن أن يؤسس فلسفة الأخلاق على النفس وقواها وملكاتها، وبما أن مسكوية مشائي في كليات فلسفته، يذكر أرسطو ويعتمد عليه في كثير من شروح آراءه وضرب الأمثلة، لا بأس إذن أن اذكر آراء الفيلسوف اليوناني، من خلال عرضي لفلسفة مسكوية وآرائه في النفس.

على الرغم من علمي في تاريخ الفلسفة، إن أول فيلسوف يبني الأخلاق على المعرفة هو سقراط، إن كلمة سقراط (أعرف نفسك) مشهورة في تأريخ الفكر الأخلاقي، أرسطو نفسه، فإن مصدره في كتاباته الأخلاقية، هما سقراط وأفلاطون، إضافة إلى من سبقهما من فلاسفة اليونان.

أما مسكوية، إذ على الرغم من تأثره بالفلاسفة اليونان والمسلمين، فهو يرجع إلى مصدره الأول (القرآن الكريم)، أنه يشير إلى قول الله عز وجل ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها﴾.

من الجدير بالذكر هنا، إن أغلب فلاسفة الإسلام، أقاموا فكرهم الأخلاقي على النفس وقواها ووجودها وخلودها: كالكندي والرازي والفارابي ويحيى بن عدي وابن سينا والغزالي وابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن حزم وغيرهم.

النفس عند مسكوية ليست بجسم ولا جزء منه ولا عرضي، بل هي جوهر بسيط غير محسوس بشيء من الحواس، أنها لا تستحيل ولا تتغير، كما يستحيل ويتغير الجسم، هي إذن جوهر مغاير لجوهر الجسم.

إن لكل جسم صورة، وهو لا يقبل صورة أخرى إلا بعد مفارقته الصورة الأولى مفارقة تامة، إذا اتخذ الجسم مثلاً صورة المثلث فإنه لا يقبل صورة المربع أو الدائرة إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول أنه لا يقبل الصورتين معاً، وذلك لاختلافهما.

الجسم يخلص لصورة واحدة تمام الوضوح، مثال ذلك إذا قبل الشمع صورة نقش في الخاتم، لا يقبل نقشاً آخر، لا إذا زال النقش الأول، مع أن أنفسنا تقبل صورة الأشياء على اختلافها من المحسوسات والمعقولات على التمام والكمال، من غير مفارقة للرسم الأول، الصورة الأولى تبقى تامة كاملة، ثم تقبل النفس بعد ذلك صورة بعد صورة، دون أن تضعف أو يطرأ عليها شيء من القصور، النفس إذن لا يلحقها فتور ولا تعب ولا كلال.

يأتي مسكوية بمثال آخر ما يثبت إن النفس تباين الجسم وتتميز عليه، إن الجسم له صورة الطول والعرض والهموم، وبهذه الخواص صار الجسم جسمان ولكن النفس لا تعتبر طويلة أو عريضة أو عميقة.

النفس عند فيلسوف إغريقي كبير مثل أرسطو، أساس الحياة، مع ذلك فهو يقول أن من الصعوبة جداً معرفة أمر جوهر النفس، ومع أن النفس في نظر أرسطو واحدة، إلا أن قواها متعددة، أن هذا بلا شك بسبب تأثير أفلاطون عليه، لقد بقي أرسطو يرى

أن النفس لا يمكن أن تفعل أو تنفعل بغير جسم، الغضب والرغبة وحتى الفكر، لا يمكن أن تكون بغير جسم، إن كل النزعات النفسية، مثل السرور أو الحزن أو الغضب تحدث تغيراً في الجسم.

نلاحظ أن أرسطو، يستشهد بالفلاسفة السابقين، فيما يخص أمر النفس، أنه يشير إلى الفلاسفة اليونان والقدماء، قائلاً أن السابقين، قالوا أن المتنفس يختلف عن غير المتنفس بالحركة والإحساس، يذكر أرسطو أيضاً، إن بعضهم يقول: مشيراً إلى فلاسفة متقدمين- إن النفس هي الجوهر المحرك، ولذلك قال ديمقوقريطس، إن النفس نوع من النار، وإن ذراتها كروية، لأن الذرة الكروية تكون قادرة على الحركة والنفاذ.

لهذا السبب، فإن الفلاسفة الذريين، مثل ديموقريطس ولوقيبوس، يذهبون إلى أن النفس هي التي تمنح الحياة للجسم، وهي التي تجعله قادراً على الحركة، إن الكائن الحي يبقى حياً، مادام قادراً على أخذ هذه الذرات مع التنفس، يعقب أرسطو من أن الفيثاغوريين يؤيدون الذريين، لأن بعضهم يقول أن النفس هي غبار الهواء، وبعضهم الآخر يقول أنها تحرك الغبار، على كل حال، فإن الفيثاغوريين يرون أن النفس تحرك نفسها، فإذن عندهم أن أهم ميزة للنفس وهي الحركة وبسبب رأيهم هذا، فإن كل محرك هو في الوقت نفسه يتحرك.

يضيف أرسطو قائلاً: ويذهب انكساغوراس إلى أن النفس هي الجوهر المحرك، كذلك عند انكساغوراس أن العقل هو الذي يحرك العالم، يذكر أرسطو أيضاً، أن النفس عند أنباذوقليس مركبة من العناصر الأربعة: التراب والماء والهواء والنار، وأن كل عنصر هو نفس أيضاً.

أما عندما يذكر أرسطو، أستاذه أفلاطون، فهو يقول أن أفلاطون في كتابه (طيماوس) عنده أن النفس تتكون من العناصر، وإن النفس محركة ودرّاكة.

أؤيد ما ذهب إليه أرسطو، من أن أفلاطون يعالج قضية النفس وعناصرها في كتاب (طيماوس)، أود أن أضيف أن أرسطو قد فاته أن يذكر أن أفلاطون يسهب القول في محاورة كاملة عن خلود النفس، هي محاورة (فيدون) ويذكر فيها أيضاً أن النفس هي التي تدرك وتحرك، وما الجسم إلا آلة النفس.

يبدو لي أن أرسطو نظر إلى الموضوع هنا من الناحية الطبيعية فقط، وتجاهل الناحية الأخلاقية، وإلا فإن أفلاطون قد ناقش قضايا النفس في أكثر من محاورة، أنه إضافة إلى كتابي (طيماوس) و(فيدون) فقد ناقش أفلاطون أمر النفس في كتب أخرى، مثل: (الجمهورية) و(فايدروس) و(المأدبة) وغيرها.

يذكر أرسطو أيضاً، أن بعض الفلاسفة ذهبوا إلى أن النفس نار، وذلك لأن النار أخف العناصر، ولأن هرقليطس يقول أن النفس عنده نار، وهي مبدأ الأشياء وفي حركة دائمة، أما حين يستشهد بطاليس، فيرى أرسطو أن طاليس في هذا الصدد، فالنفس عند ديوجينوس هي الهواء، لأن الهواء ألطف الأشياء.

ينتهي أرسطو من عرضه لآراء الفلاسفة قبله في النفس فيقول: وهكذا، فجميع الفلاسفة يتفقون بأن النفس تتحرك وتحس، وأنها غير جسمية.

ينتقد أرسطو بعد ذلك، المذاهب السابقة في النفس، النفس في رأي أرسطو لا تتحرك، وإن الجسم فقط الذي يتحرك.

النفس إذن في رأيه، محركة غير متحركة، يتابع نقده قائلاً: إذا تحركت النفس إلى أعلى فهي النار، وإذا تحركت إلى أسفل فهي الأرض، ولكن هاتين الحركتين تخصان الأجسام النار والأرض.

إذا قلنا كذلك، إن النفس تتحرك بالتنقل، فمعنى هذا أنها تبتعد عن الجسم فيموت ثم تعود إليه، وهذا يعني أن الأحياء تعود إليها الحياة من جديد، بعد أن تعود إليها النفس، ومع أن النفس في رأي أرسطو تحفظ الجسم، لكنها إذا فارقته فسد وتلاشى في الحال.

يذكر أرسطو، أن أفلاطون في كتاب (طيماوس) يقول أن النفس تحرك نفسها وتحرك الجسم في الوقت نفسه، لأنها متداخلة فيه، يقول أرسطو، أننا نتصور حالات النفس، كالفرح والألم والخوف والغضب والحس والفكر، أنها حركات، حتى لو فرضنا أن هذه الأحوال حركات، فإنها حركات لأعضاء جسمية، الغضب مثلاً حركة خاصة بعضو القلب.

ليست النفس هي التي تغضب أو تحب، بل الأولى أن نقول أن الإنسان يفعل ذلك عن طريق النفس، النفس إذن لا تتحرك فهي لا تحرك نفسها.

عندما يستعرض أرسطو المذهب الأورفي، في أن النفس تنفذ من عالم خارجي إلى الكائنات عند التنفس، يرد عليهم قائلاً: لقد فات هؤلاء أنهم كتبوا، من أن الكائنات النباتية والحيوانية لا تتنفس، أرسطو لا يتفق أيضاً مع طاليس، الذي يقول إن العالم مملوء بالأنفس، وذلك لأن أرسطو يؤمن بوحدة النفس، أرسطو حين يلاحظ أن بعض الحيوانات تنقسم، كما تبقى في الجزء المفصول، أي أن جميع أجزاء النفس الأصلية تبقى في كل وحدة أو عضو مشطور عن الأصل.

أرسطو إذن يفرق بين النفس والجسم، وأن النفس عنده صورة الجسم، يجد أرسطو النفس بأنها كمال أول الجسم طبيعي آلي، كما أن النفس عنده لا تفارق الجسم، لأنه يمكن أن توجد نفس بلا جسم، إن من الجدير بالإشارة، إن أرسطو يسند رأيه هذا إلى من سبقه من الفلاسفة، إذ يقول: صح ما ذهب إليه بعض المفكرين، إن

النفس لا توجد بغير جسم، هذا يعني أن الرأي إذن ليس له، بل هو قد اقتبسه من السابقين.

النفس عند أرسطو علة الحركة، بل هي أساس الحركة، لا شك أن الفكرة هذه أفلاطونية، ناقشها أفلاطون بالتفصيل في محاورة (فيدون).

أما قوى النفس عند أرسطو فهي خمس، وهي: الغاذية والنزوعية والحساسة والمحركة والمفكرة، هذه القوى توجد جميعاً في بعض الكائنات، وبعض هذه القوى يوجد في كائنات أخرى، كما أن نوعاً من الكائنات لا يوجد فيه إلا قوة واحدة فقط، النبات مثلاً، ليس غير القوة الغاذية.

القوة الغاذية توجد في الإنسان والحيوان والنبات، وظيفتها التغذية والتوليد، يمكن القول أن هذه القوة عند أرسطو أقرب إلى القوة الشهوانية عند أفلاطون.

أما القوى النزوعية والحساسة والمحركة، فتوجد عند الإنسان والحيوان، يمكن مقارنتها جميعاً بصورة متداخلة، بالنفس الغضبية عند أفلاطون، أما المفكرة فيرى أرسطو أنها عند الإنسان فقط، يمكن مقابلتها بالقوة العاقلة والناطقة عند أفلاطون، نلاحظ إذن أرسطو يبقى تحت تأثير أستاذه أفلاطون، فيما يخص تقسيمه لقوى النفس.

النفس عند مسكوية أشرف من الجسم، لأن الجسم وقواه لا تعرف العلوم إلا من الحواس، الجسم يعرفها ويتشوقها بالملابسة والمشابكة كالشهوات البدنية ومحبة الانتقام والغلبة، كل هذه يتوصل إليها عن طريق الحس، ويزداد بها قوة وكمالاً، بينما يزداد كمال النفس كلما ابتعدت عن تأثير الحواس، واتجهت نحو العقل، إن طبيعة النفس إذن مغايرة لطبيعة الجسم، وأشرف منه جوهراً وأفضل طبيعة.

وعلى الرغم من أن جوهر الجسم يبقى محصوراً في إيثار اللذات الجسمانية، نرى أن جوهر النفس يحرص على معرفة حقائق الأمور الإلهية، ويميل دائماً إلى الأمور التي هي أفضل من الأمور الجسمانية، وانصرافه تماماً عن اللذات الجسمية، أن سعي جوهر النفس، على تحصيل اللذات العقلية خير دليل على أن جوهر النفس يختلف عن جوهر الجسم، لأن كل جوهر يتشوق إلى ما يلائم طبيعته، جوهر النفس أشرف من جوهر الجسم، مادام الأول يتطلع إلى الأمور العقلية والحقائق الإلهية، على أن الثاني يتجه إلى الأمور الجسدية.

ومع أن النفس تأخذ كثيراً من مبادئ العلوم من الحواس، ولكن هذه المعلومات تبقى في دائرة الحواس فقط، لأن الحواس لا تدرك غير المحسوسات، أما النفس فلها مبادؤها الشريفة، التي تبني عليها القياسات الصحيحة، وهي معقولاتها التي لا تستعين عليها بشيء من الجسم، أن هذه المعقولات تدرك أسباب الاتفاقات وأسباب الاختلافات بين المحسوسات، إذا حكمنا مثلاً على الحس أنه صدق أو كذب، لا نأخذ هذا الحكم من الحس، لأن الحس لا يضاد نفسه فيما يحكم به، بينما النفس العاقلة تدرك كثيراً من أخطاء الحس، فحاسة البصر مثلاً تخطئ فيما تراه عن قرب وبعد، أن الخطأ في المدى البعيد، في رؤية قرص الشمس صغيراً، مع أن البرهان العقلي يشهد بأن الشمس تكبر الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، أما في المدى القريب، فيرى البصر، الشيء معوجاً بينما هو مستقيم، أو يرى الشيء مكسوراً وهو في الحقيقة صحيح، أما العقل فإنه يستخرج من مبادئ عظيمة، ويحكم عليها أحكاماً سليمة، الحال نفسه ينطبق على باقي الحواس، فمثلاً حاسة الذوق تخلط في الحلو فتجده مراً.

نستخرج من كل هذا، إن الحس لا يعطينا الأحكام الصحيحة، أنه يكذب مرة ويصدق مرة، غير أن النفس إذا علمت أن الحس لا يصدق في حكمه، اتجهت إلى ذاتها وجوهرها وإلى العقل، فتدرك المعقولات، بينما الحواس لا تدرك ذاتها.

يظهر مما تقدم إذن أن النفس ليست بجسم، وإنما هي شيء آخر مفارق للجسم، بجوهره وأحكامه وأفعاله.

للنفس عند مسكوية ثلاث قوى:

١) القوة العقلية أو القوى الناطقة، ويسمى أيضاً بالقوة الملكية وآلتها الدماغ.

٢) القوة الثانية هي القوة الغضبية، التي تسمى بالسبعية، وأن آلتها القلب، وبهذه القوة يكون الغضب وحب التسلط والإقدام على الأهوال.

٣) أما القوة الثالثة، فهي الشهوية، وهي البهيمية، وآلتها من الجسم هو الكبد، وبهذه القوة تكون الشهوة وطلب الغذاء والشوق إلى المآكل والمشارب وباقي اللذات الحسية.

لا يفوت مسكوية، أن يذكر أن هذه النفوس الثلاث أو هذه القوى الثلاث متباينة في اتجاهاتها، إذا قويت أحداها ضعفت الأخرى، كما أن أي واحدة من هذه النفوس أو القوى، تقوى وتضعف بحسب العادة والمران والتأديب، إذا اتجه إنسان إلى العلوم والمعارف قويت نفسه الناطقة واتجهت إلى الأمور العقلية والإلهية، وإذا اعتاد الشهوات والمآكل والمشارب، قويت عنده النفس الشهوانية، وقادته إلى لذائذ الأمور، أما إذا أدّب المرء نفسه على حب السيطرة والإقدام واقتحام الأهوال، فتقوى وتشتد عنده النفس الغضبية.

لا بد أن أشير هنا إلى إن فكرة تقسيم النفس إلى ثلاث نفوس أو ثلاث قوى، هي فكرة أفلاطونية، تأثر بها إلى حد بعيد تلميذه أرسطو ومن بعده جالينوس وأفلاطون.

كذلك فإن كثيراً من الفلاسفة الإسلاميين قد قسموا النفس إلى ثلاث قوى وبنوا كثيراً من آرائهم الأخلاقية على هذا التقسيم، أنهم أرجعوا سبب العدالة واكتساب الفضيلة من جراء التوازن بين قوى النفس الثلاث، وسيطرة القوة العقلية على القوة الغضبية والقوة الشهوانية، من أولئك الفلاسفة، اذكر أسماء الكندي والرازي والفارابي ويحيى بن عدي وأخوان الصفا ومسكوية وابن سينا والغزالي.

يخصص مسكوية جزءً كبيراً من كتابه (تهذيب الأخلاق) في صحة النفس وحفظها وردها إلى حالتها الطبيعية، فيما إذا اعتورها مرض من الأمراض، يرى مسكوية أن النفس تمرض كما تمرض الأبدان، أن أطباء الأجسام يقدمون على علاج أمراض بعد أن يفحصوا الجسم جيداً، ليتوصلوا إلى سبب المرض الجسماني، ثم يبدأون العلاج عن طريق الحمية والأدوية، التي ربما تكون خفيفة لطيفة في أول الأمر، وربما يتطلب الأمر بعد ذلك إلى القطع أو الكي بالنار.

النفس عند مسكوية، قوة إلهية غير جسمانية، غير أنها مرتبطة بالجسم، تمرض بمرضه وتصح بصحته، القول نفسه ينطبق على الجسم، فإنه يمرض بمرض النفس ويصح بصحتها، إذا لحق النفس سورة من الغضب أو أفرطت في الحزن أو العشق، نرى الجسم يتغير ويمرض، وربما يصيبه الاضطراب والهزال والاصفرار وبعض صنوف التغير التي تلحقه من جراء ذلك بمرض الاضطراب النفسي.

يرسم مسكوية ببراعة طريق العلاج النفساني، فيبدأ النصيحة في أن نتتبع بداية المرض في نفوسنا، ونرى هل أن سبب المرض متأتٍ من ذات النفس، كالتفكير في الأشياء الرديئة أو الخوف من بعض الأمور، أو نتيجة لهيجان الشهوات، إذا كانت الأسباب في ذات النفس يكون العلاج بما يخص النفس ذاتياً، أما إذا كان السبب متأتياً من مرض جسماني، قصد هذا بالعلاج أيضاً.

يستشهد مسكوية كذلك بأطباء البدن، إذ أن هدفهم حفظ صحة الجسم، فإذا كان سليماً معافى، وأما رد الصحة إلى حالتها الطبيعية فيما إذا مرضت الأجسام، النفس كذلك، إذا كانت سليمة صحيحة، وجب المحافظة على سلامتها والتطور في تقدم كمالها، ومعالجتها إذا مرضت.

إذا كانت النفس فاضلة، تحرص على الميل إلى المعارف الصحيحة والعلوم الحقيقية، وجب على صاحبها أن يخالط الأخيار من الناس، الذين يحبون نيل الفضائل ويشتاقون إلى دراسة العلوم الحقيقية، حتى يحافظ المرء على نفسه الفاضلة، ويديم تربيتها بالاتجاه نحو الفضيلة.

في الوقت نفسه، عليه أن يحذر كل الحذر من معاشرة الأشرار الذين ليس لهم هدف سوى ارتكاب الفواحش والانهماك في اللذات الجسدية، ويبتعد أيضاً ما أمكنه الابتعاد عن أخبار هؤلاء المجان، وأن لا يقرأ أشعارهم أو يحضر مجلساً من مجالسهم.

أن ما يعلق بالنفس من أوضار الأشرار، لا يتخلص منها إلا بالعلاج الصعب والزمن الطويل، ربما يكون في ذلك سبب في فساد النفس الفاضلة، أن ذلك يكون أسهل للحدث الناشئ، لأنه سريع التقليد والأخذ عن الآخرين، أن الحدث يتأثر بسرعة، ولا يستطيع أن يفارق العادة المرذولة بالسرعة نفسها التي اكتسبها فيها.

إن المتمتع بكامل صحة نفسه، إنما يحفظ كنوزاً عظيمة، ونعماً موهوبة، لذا يجب المحافظة على صحة النفس هذه، لأنها موهبة لا تحتاج أن تأتيه من خارج، ولا تكلف بذل الأموال في سبيل الحصول عليها، أنه لو أهمل صحة النفس، فإنه ملوم في فعله هذا، لأنه يفقد كنزاً ثميناً لا يستطيع الظفر به بعد زواله، حتى ولو خسر الأموال وتجشم الأسفار وتعرض للمهالك، من دون أن يعيد إليه حالته الطبيعية الأولى،

فتعقب الحالة الندامات الكثيرة والحسرات المفرطة، ويبقى صاحبها شديد الوجل مضطرب النفس مثقوب الجسم.

ينصح مسكوية للحفاظ على الصحة النفسية، أن يتبع الإنسان دائماً ما تشير به النفس الناطقة ويجعلها المدبرة لأمره، ولا يخضع لقوتي النفس الشهوانية والغضبية، إن هاتين القوتين الأخيرتين، تدفعان الإنسان دائماً نحو تحقيق الغايات السفلى من الحواس، بإصابة الشهوات والانغماس فيها، والاعتداء على ما للغير من مال أو أكرامات، أن على الإنسان أن لا يحرك هاتين القوتين، بتذكر أن أحديهما تضطر إلى استعمال النفس الناطقة، في سبيل تحقيق أغراضها، إلى العز والسلطان والغلبة أو إلى تحقيق ما تستطيعه من شهوات.

إن العاقل لا يفعل هذا، وليست هذه صفة من صفاته، بل هي صفة المجانين، إن العاقل من يغلب قوته العاقلة على قوتي النفس الآخريين، ويترك القوتين الشهوانية والغضبية لحالهما، أنهما تثوران وتهيجان عند الحاجة، وبما ترسمه لهما الطبيعة، فينال حاجاتهما الطبيعية.

لم ينس مسكوية أن يستشهد بتأثير الدين الإسلامي، أنه يذهب في القول، إلى أن التعادل الطبيعي هو إمضاء مشيئة الله وإتمام سياسته في البشر، لأنه تعالى وهب لنا هاتين القوتين، لنستخدمهما عند حاجتنا إليهما، لا لنخدمهما ونكون عبيداً لهما، يذهب مسكوية أبعد من هذا، حتى أنه يكفّر الذي يضع نفسه الناطقة في خدمة النفس الغضبية والنفس الشهوانية، إن مثل هذا الإنسان — في رأيه- قد تجاوز أمر الله وتعدى حدوده، إضافة إلى أنه خالف العدل في سياسة نفسه، فهو بذلك ظالم لنفسه أبداً.

يعالج مسكوية إشباع القوتين الشهوية والغضبية بالاعتدال الذي هو أقرب للزهد منه للبطر، أنه يقول، ينبغي لمن رزق الكفاية ووجد القصد من السعادة الخارجية، أن لا يشتغل بفضول العيش لأنها لا نهاية لها، وأن من طلبها أوقعته في مكارة لا نهاية لها، أن القصد الطبيعي والغرض الصحيح منهما، هو مداواة الآلام والتحرز من الوقوع فيها، لا التمتع وطلب اللذة، إن من عالج الجوع والعطش، اللذين هما مرضان وألمان حادثان، عليه أن يطلب الراحة والصحة لا الإفراط في اللذة.

إن من لم يرزق الكفاية واحتاج إلى السعي في تحصيلها، يجب عليه أن لا يتجاوز القصد، بل قدر حاجته منها، لئلا يعرض نفسه إلى السعي الحثيث والحرص الشديد والتعرض القبيح المكاسب وضروب المهالك والمعاطب.

ينبغي إذن أن ننظر إلى أقواتنا بهذه العين، ونال منها لأجل الضرورة، علينا أن لا نشغل عقولنا بالتمتع ونفني أعمارنا بالتأنق، بل أن نسعى في طلب الغذاء الموافق لأبداننا، الذي لا يخلف لنا الوحشة والآلام.

ينبغي لمن يريد المحافظة على صحته، أن لا يحرك قوته الشهوية ولا قوته البدنية، بل يتركهما حتى يتحركا على الطبيعة، دون قهر ولا إلحاح، إذا اضطر الإنسان إلى تحريك قوة شهوية أو قوة غضبية، فعليه استعمال الروية واستخدام النفس الناطقة فيه لتدبر له الوصول إلى ما يشتهي ويريد.

ينبغي لحافظ الصحة على نفسه، أن يلطف نظره في كل ما يفعل ويدبر، عليه أن يستعمل آلات بدنه ونفسه بما يوجبه تمييزه ورويته، إن الإنسان الذي يخالف الطبيعة، سيعاقب نفسه ويتحمل من الآلام، بحسب أخطائه، إذ تناول مزيداً من الطعام بشره، فإنه سيضطر إلى معاقبة نفسه بالامتناع عن الأكل، بعد أن جرب مرارة الآلام.

أنه إذا حرك قوته الغضبية لسبب بسيط، أو أنه غضب غضباً في غير موضعه، أو على من لا يستحقه، فربما تعرض لسفيه يقابله بالبذاء، أنه ربما يندم بعد أن لا يفيد الندم.

الأولى بالإنسان إذن ضبط النفس والحلم عند ثورة الغضب، عليه حفظ لسانه واحتمال أقرانه، وهذا هو الطريق إلى الفضائل واجتناب الرذائل.

جدير بالإنسان إذن أن يتعود على الصبر على ما يجب الصبر عليه، والحلم عمن ينبغي أن يحلم عنه، جدير به أن يضبط النفس عن الشهوات الرديئة، قبل أن يفكر في دفع هذه الرذائل وقت هيجانها، لأن الأمر عند ذلك صعب جداً، وربما هو غير ممكن البتة.

يلح مسكوية على الشخص الذي يريد أن يحافظ على صحته النفسية أن يستقصي عيوبه، مسكوية في هذا الرأي يخالف جالينوس، الذي يرى أن الإنسان يحب نفسه، ولهذا فإن عيوبه طالما تخفى عليه. جالينوس يطلب من الشخص أن يختار صديقاً صدوقاً، ويطلب منه أن يرشده على عيوب نفسه، حتى يتغلب عليها ويطمس أثرها، يجب عليه أن يلح على الصديق، حتى يذكر له بعض عيوبه، فيظهر له الشكر والامتنان، ويتباسط معه، حتى يزيد ذلك الصديق إيناساً له وإظهاراً لعيوبه، التي يريد أن يقضي عليها قضاءً تاماً.

أقول أن مسكوية لا يوافق على نصائح جالينوس هذه بل هو يخالفها، مسكوية يعتقد أن أبعد وأنفع من الصديق في هذا الشأن، أن العدو - في رأي مسكوية- لا يتردد في إظهار عيوب خصمه، بل أنه قد يتجاوز إلى الاتهام بما ليس فيه عدوه، إن الذي يريد إصلاح نفسه، أن ينتبه إلى العيوب التي ذكرها الأعداء، أنه يحاول التغلب عليها وتجنب ما يغذيها ويزيد أوارها.

يذكر مسكوية أن جالينوس يقول في مكان آخر من كتابه (كتاب الأخلاق) أن جالينوس يقول أن خيار الناس ينتفعون بأعدائهم، أن الحقيقة التي توصل إليها جالينوس إذن أن كل واحد من الناس يرى عيوب غيره على الاستقصاء، على أنه لا يرى شيئاً من عيوب نفسه.

إذا أردنا أن نتوخى واقع الحال، فإن الإنسان الذي ينشد الفضيلة يحتاج إلى الصديق المخلص الناصح، في الوقت نفسه على الإنسان أن يجتنب العيوب، حتى لا يتهم بها من قبل الأعداء، الشيء الواضح أيضاً، إن الإنسان يرى عيوب غيره، بينما لا يرى عيوب نفسه.

يستشهد مسكوية بما قاله الكندي في هذا الشأن في كتابه (رسالة في دفع الأحزان) حتى أن مسكوية يقول أن كلام الكندي هذا أبلغ من كل الذي سبقوه، إن الكندي نصح طالب الفضيلة أن يتصفح أعمال جميع معارفه، ثم يلاحظ صور سيئاتهم فيتجنبها، عن طريق برنامج يومي لا يحيد عنه، أنه في انتهاء كل يوم وليلة، يتصفح أعماله أيضاً، ويذم ما قبح منها، ويردع نفسه عنها، فيتخلص منها، ولا يعود إليها، حتى لا يأتي زمان إلا وقد عفى عنها، هذا وفي الوقت ذاته، يجب على الإنسان أن يعوّد نفسه على الأعمال الحسنة، حتى تتجه النفس كلياً إلى السيرة الفاضلة، ويمتنع نهائياً عن آتيان الأعمال القبيحة، أكثر من هذا، يجب على الإنسان أن يكون مثالاً للآخرين في اكتساب الفضيلة والابتعاد عن موطن الرذيلة، حتى يفيد نفسه ويفيد الآخرين أيضاً.

إما إذا مرضت النفس وخرجت عن حالتها الطبيعية، فلا بد من البدء بمداواة ما عظم أثره واشتدت جنايته على الإنسان، أن أمراض النفس الشديدة، في رأي مسكوية ما خرجت من الوسط، سواء إلى التفريط أو إلى الإفراط.

لعل أحد الأمراض الشديدة التي تصيب النفس، هو الخوف الشديد في غير موضعه، أن سبب الخوف -في رأي مسكوية- هو توقع مكروه وانتظار محذور، هذا يعني الخوف من حوادث المستقبل، بغض النظر من أن هذه الحوادث ربما تكون شديدة أو سهلة يسيرة يكون الشخص نفسه سببها أو يتوقعها من غيره، مع هذا، فإن الإنسان العاقل، لا ينبغي أن يخاف من أي منها، لأنه ربما ستكون أو لا تكون، فلماذا إذن يتوقع الإنسان المكروه، وربما يتعجله ويخاف منه.

يستشهد مسكوية بقول الشاعر في هذا الشأن مستحسناً قوله:

وقل للفؤاد أن نزا بك نزوة	من الروع أخرج أكثر الروع باطله

إن على الإنسان الذي يخاف على نفسه من المكارة، إن يتجنب سبب حدوث المكارة، وذلك بترك الذنوب والجنايات، وأن لا يقدم على عمل إلا إذا أمن شره وحتى لو وقع المكروه على الإنسان فيجب عليه أن يتجمل فيحسن عيشه كي تطيب له الحياة.

إما إذا كانت أسباب الخوف ضرورية كالهرم مثلاً، فعلى الإنسان أن يفكر أنه ليس بمخلد في هذه الحياة، أنه إذا أحب طول الحياة، فلا بد أن تنتهي به الحياة إلى الهرم، إن علاج الخوف من آفات الشيخوخة، هو أن يعلم الإنسان أن مع تقدم العمر يحدث عنده نقصان الحرارة الأصلية، وتصاب أعضاؤه بالضعف، إضافة إلى ما يقابل ذلك من موت الأحبة وفقدان الأقران.

مع ذلك، فبدلاً من أن يستشعر الخوف والفزع، عليه أن يتوقع ذلك ويتصبر، نلاحظ أن مسكوية، بتأثير الدين الإسلامي عليه، ينصح من يصل إلى هذه الحالة بدلاً من أن يفزع ويخاف عليه أن يتجه إلى الله ويكثر الصلاة في المساجد.

لعل أعظم ما يلحق الإنسان من الخوف — في رأي مسكوية — هو الخوف من الموت، مع هذا، فإن مسكوية يعلل بأن الذي يخاف من الموت، يجهل حقيقة الموت ويجهل أين

تصير نفسه بعد الموت، أنه يتصور أن نفسه ستنحل، كما يتحلل جسمه، أو أنه يتصور أن للموت ألماً عظيماً أشد من ألم الأمراض التي تقدمته وأدت إليه، أنه ربما يعتقد بالعقوبة التي تحل به بعد الموت، أو أنه لا يدري على أي شيء يقدم بعد الموت، أو ربما هو يحزن على ما يخلفه من مال ومقتنيات.

يرد مسكوية على ذلك فيقول، أن كل هذه ظنون باطلة لا حقيقة لها، أن حقيقة الموت ليست بأكثر من ترك النفس، استعمال آلتها، الذي هو البدن، أن النفس جوهر غير جسماني، فهي إذن غير قابلة للفناء، أن الذي يفني هو الجسم فقط، لأنه جوهر عرضي، أما جوهر النفس فهو باق خالد.

يضرب مسكوية مثلاً بالماء، وكيف يستحيل إلى بخار أو هواء يستحيل إلى ماء أو نار، أن هذا المثل يدل على أن الأعراض تستحيل وتتغير، لكن الجوهر باق لا سبيل إلى عدمه، الجسم أيضاً يستحيل ويتغير من حال إلى حال، ولكن جوهر النفس باق لا يستحيل ولا يتغير.

إن الذي يخاف من الموت، فهو يجهل مصير النفس بعد الموت، أو هو يتصور أنه إذا انحل بدنه تلاشت نفسه وعدمت أيضاً، إن ذلك سببه الجهل بحقيقة النفس، وهذا الجهل هو الذي حمل الحكماء على طلب الحكمة، وطرح لذات الجسم، وترك ما يستعظمه الجمهور من المال والعقار، فتهون عندهم الدنيا، وهم يبلغون الغايات العليا، حتى يصلوا حقيقة الروح.

يشير مسكوية قائلاً، لذلك جزم الحكماء، بأن الموت موتان: موت إرادي وموت طبيعي، وكذلك الحياة هو مفارقة النفس للجسم، كذلك الحياة الإرادية هي ما يسعى إليه الإنسان في الحياة الدنيا من المآكل والمشارب، والحياة الطبيعية هي خلود النفس وبقاؤها السرمدي.

وبالرغم من أن مسكوية لم يذكر هؤلاء الحكماء غير أنه في الحقيقة، أن أول فيلسوف أخلاقي أشار إلى ذلك هو سقراط.

مع ذلك فإن مسكوية يستشهد بأفلاطون ووصيته إلى طالب الحكمة قائلاً: (مت بالإرادة تحيا بالطبيعة)، أن الذي يخاف من الموت الطبيعي، فإنه يجهل إن الإنسان حي ناطق مائت، وفي الموت تمامه، نلاحظ أن مسكوية يعالج المشكلة معالجة دينية، إذ يقول أن الإنسان بالموت يصير إلى أفقه الأعلى، ويقرب من بارئه، ويفوز بجوار رب العالمين، ويخالط الأرواح الطيبة من أشباهه.

أما الذي يخاف من الموت، فإنه يعتقد أن للموت ألماً عظيماً، أن هذا وهم لا أساس له من الحقيقة، لأن التي تحس وتفرح هي النفس، أما الجسم فلا يشعر بالألم، الموت هو مفارقة النفس للجسم، وبما أن الجسم كان يحس ويتألم بالنفس، فإذا فارقته النفس، فلا يبقى فيه شعور بحس أم ألم.

أما الذي يخاف العقاب بعد الموت، فهو إذن يعترف بخلود النفس، ويعترف بحاكم عادل يعاقب على السيئات، أنه إذن في هذه الحالة يخاف العقاب لا يخاف الموت نفسه، والواجب عليه أن يجتنب الشر في حياته.

والذي يخاف الموت، لأنه لا يدري ما هو مقدم عليه بعد الموت، فهو إذن جاهل، وما عليه إلا أن يتعلم حتى يعلم، فيعرف سبيل السعادة، أن مسكوية وبحسب منهاجه، يمزج طريق الفلسفة مع طريق الدين للذين يريدون التعلم والثقة والوصول إلى السعادة، أنه يقول: أن الثقة التي تكون بالعلم هي اليقين، وهي حال المستبصر في دينه المتمسك بحكمته.

أما الذي يخاف الموت، لحزنه على ما خلف من أهل وولد ومال، فهو يتعجل على مفارقة ملاذ الدنيا وشهواتها، وهو يتعجل الحزن والألم، على شيء لا يجدي عليه

الحزن بطائل، أننا لو لم يمت أسلافنا، لم ينته الوجود إلينا، ولو بقي الناس مع تناسلهم ولم يموتوا لما وسعتهم الأرض، علينا كذلك أن نعلم، إن الإنسان كائن، وكل كائن مائت، فالموت إذن ليس برديء، بل أن الرديء هو الخوف منه، وما يخاف من الموت إلا الجاهل به وبذاته.

أرى من المناسب أن أشير إلى أن أبا بكر الرازي قد سبق مسكوية في هذا المقام، أبو بكر الرازي كتب فصلاً كاملاً في كتابه الطب الروحاني سماه (الخوف من الموت)، لقد ذهب الرازي إلى أن العاقل يرى أن الموت شيء طبيعي، وأن النفس تصير من بعد الموت إلى ما هو أصلح لها على ما كانت فيه، إن الإنسان لا يصيبه بعد الموت أذى لأن الأذى حس، وليس الحس إلا للحي، أن العاقل لا يغتم للموت، لأنه شيء لا بد منه، لا بأس أن اذكر كذلك، أن ياقوت الحموي صاحب كتاب (معجم الأدباء) يخبرنا أن مسكوية كان مفتوناً بكتب الرازي.

الحزن أيضاً عند مسكوية ألم نفساني يعرض لفقد محبوب أو فوت مطلوب، أن الحزن يأتي من جراء فقدان شيء يرغب الإنسان فيه، أو أنه لا يستطيع أن ينال شيئاً يريده ويتمناه، أنه إذن يحزن، أما المهني أمر لم يحصل عليه، أو أنه يحزن ويجزع لأمر يتلهفه ولا يستطيع الوصول إليه.

لا بد من الإشارة في هذا المقام، إلى أن الكندي وأبا بكر الرازي قد سبقا مسكوية فيما ذهب إليه، أن الكندي عرف الحزن بأنه ألم نفساني يعرض لفقد المحبوبات أو فوت المطلوبات، الرازي يرى أيضاً أن الغم يتولد بسبب توقع فقد المحبوبات، يوصي الرازي بوجوب الاحتراس قبل حدوث فقدان الشيء، يجب أن نعلم أن كل شيء خاضع للكون والنفس فلا نحزن عليه، وأن الرجل العاقل لا يغتنم أبداً.

أرجع إلى مسكوية الذي يضيف قائلاً بأن الأمر يهون عند الإنسان إذا ما علم أن كل ما في هذه الدنيا خاضع للكون والفساد، وغير باقٍ ولا ثابت، أن الشيء يأتي ويتغير ويذهب، وإن الثابت هو ما كان في عالم العقل، على الإنسان إذن أن يخفف من غلوائه في طلب ما لا يستطيع الحصول عليه، فيصرف همته على المطلوبات الباقية، وما يستطيع أن يناله، فيأخذ منه مقدار الحاجة فقط، ولا يتجه إلى المباهاة والادخار، حتى إذا فارقه ذلك الشيء ما لم يحزن عليه ولا يأسف، بل يجب أن يعلم حق العلم أن عالمنا هذا هو عالم الكينونة والعدم.

إن من طمع من الكائن الفاسد إلا يعدم فقد طلب المحال، ويبقى نتيجة لذلك محزوناً خائباً شقياً، إما إذا جمّل نفسه، على أن يرضى بما يجده ولا يحزن لما يفوته، عاش سعيداً مسروراً، عليه في الوقت نفسه، أن ينظر إلى حال الناس في مجتمعه، فسوف يرى سرور القانعين بحرفهم ورزقهم، فيستشعر الفرح بما آتاه الله من نعم، مثل الصحة والرزق والسعادة.

لم ينس مسكوية أن يضرب مثلاً بآية كريمة، فيشير إلى أن الله تعالى قال: **﴿ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** لأن الإنسان الذي يحمد الله على نعمه التي اسبغها عليه يكون من أولياء الله الصالحين.

وعلى ذكر مسكوية هنا، أن الدنيا خاضعة للكون والفساد، وأن كل شيء يتغير ثم ما يلبث أن يقول إن الثبات لعالم العقل وحده، أقول أن فيلسوف التغير هو هرقليطس، الذي عرف بغموضه وبمقولاته في الحركة والتغير، مثل (كل شيء ينساب ولا شيء يسكن) أو (كل شيء يتغير ولا شيء يدوم على الثبات) أو مقولته الشهيرة: (أنت لا تنزل إلى النهر مرتين، لأن مياهاً جديدة تجري تحتك باستمرار)، كما أن فلسفة هرقليطس كانت معروفة في العالم الإسلامي، أما فيلسوف الوحدة والثبات فهو بارميندس، وفيلسوف العقل انكسارغوراس، إذ ما لبث أفلاطون أن تمثل فكرهما،

وطبق ثبات العقل على المثل في (كتاب الجمهورية) وأن جمهورية أفلاطون كانت متداولة في دوائر الفلاسفة المسلمين.

ينهي مسكوية كتابه (تهذيب الأخلاق) بأخذ مقتطفات من الكندي، أنه يذكر صراحة: وقال الكندي في كتاب (دفع الأحزان) أن المحزونين من الناس هم أولئك الذين فقدوا ملكاً أو طلبوا أمراً فلم يجدوه، المعنى نفسه، ما قاله أبو بكر الرازي ومسكوية فقد سبقهما إليه أبو يوسف الكندي.

يعلل الكندي أيضاً، أن كثيراً من الناس ليس لهم ذلك، وغير قادرين الحصول عليه، ومع ذلك فهم مغتبطون وغير محزونين، نرى الكندي يحلل الأمر تحليلاً لطيفاً عندما يذكر أن مثل هؤلاء الحزانى سرعان ما يعودون إلى حالهم الطبيعي، وإلى المسرة والأفراح، لأن كثيراً يفقدون المتاع والأولاد والمال، ومع هذا فإن الزمن ينسيهم مصدر أحزانهم.

إن العاقل إذا نظر إلى أحوال الآخرين، وجد أنه ليس الوحيد الذي يعاني من مصائب الحياة وأن الحزن هو مرض عارض، ما يلبث أن يزول لأنه غير طبيعي، كذلك عند الكندي، أن الحسد من دواعي الحزن، إن الإنسان الحسود ينظر إلى ما بأيدي الآخرين، فيديم حسده لهم ويشتد حزنه، مع كل هذا فإن العاقل من ينظر إلى هذه الأشياء أنها ودائع الله عند خلقه ما تلبث أن تزول، أن الأفضل للإنسان إذن، أن يهتم بالحصول على ما يفيد النفس والعقل لأنها باقية غير زائلة، أننا إذا كنا نحزن على كل شيء نفقده، لبقينا طوال عمرنا محزونين، وإذا على العاقل أن يقل من المقتنيات لأن فقدها يكون سبباً للأحزان.

الفصل الثاني

الفضيلة

الفضيلة

يميز أرسطو بين نوعين من الفضيلة، أحدهما عقلي والآخر أخلاقي، الفضيلة العقلية، تنتج وتنمو من التعليم والتجربة والزمان، أما الفضيلة الأخلاقية، فإنها تتولد من العادة والشيم.

الفضائل الأخلاقية لا توجد بالطبع، ولكن الطبع يتقبلها والعادة تنميها وتثبتها، الفضائل الخلقية إذن تكون بالممارسة، الحال نفسه ينطبق على جميع الفنون، لأننا لا يمكن فعل الشيء إلا بعد تعلمه ثم تمارسه، الإنسان يصير معماراً بأن يبني ويصير موسيقياً بأن يمارس الموسيقى، يصير المرء عادلاً بإقامة العدل، وحكيماً بمزاولة الحكمة، وشجاعاً باستعمال الشجاعة.

أن هذا ينطبق في السياسة فيما يخص الممارسة، أن الحكومة الطيبة تحاول أن تصيّر الأهالي فضلاء بتعويدهم، وذلك بالإرادة الجازمة والممارسة الدائمة، أما الحكومة الخبيثة فهي لا تؤدي هذه المهمة، وهي مخطئة في العرض والقصد معاً.

يلح أرسطو على أن الفضيلة تتكون وتتطور بالممارسة، الناحية السلبية هي الأخرى يصدق فيها القول، بأن الذي لا يواصل الممارسة يفشل أو يقصر في بلوغ الفضيلة.

أرسطو يعطي الأمثلة بالفنون المختلفة، فإنه يقول أن الفنان كلما واصل التمرين في فنه أبدع أكثر، وتحسن أداءه، وإذا اتماهل يكون نتاجه رديئاً، أنه يقول أن المعمار إذا أحسن البناء فهو معمار طيب، وإذا أساء البناء فهو رديء.

لا بأس من الإشارة إلى أن الفن يكوّنه الاستعداد الطبيعي وتنميه الممارسة، أن الموهبة تفرز في جبلة الإنسان بالطبع، وإن الإنسان يدرك نوع الموهبة، التي تدفعه إلى الرسم أو الشعر أو الموسيقي أو النحت، أرسطو يغفل هذه الحقيقة الطبيعية، ويعطي الأهمية للعادة والرياضة، ينس أرسطو أو يجهل، أن القريحة أولاً، ثم يأتي دور الممارسة والتمرين في طريق كل إبداع فني.

المهم أن أرسطو يعطي أهمية كبيرة للممارسة في الأفعال الأخلاقية، أنه يقول أننا نكسب الفضائل أو الرذائل من جراء العادة ومواصلة السلوك في اتجاه معين من الناس من يتبعون شهواتهم فيكونون مفرطين وغير معتدلين، ومنهم من يلتزمون ويزمون أنفسهم، فيكونون معتدلين حلماء.

أرسطو لا يرتضي أن يكون علم الأخلاق نظرياً فحسب، بل أن العلم يراد لأجل العمل وأن على الأخلاق هدفه أن يصيرنا فضلاء، لا بد من إتباع العقل في العمل، ليكون تصرفنا تصرفاً أخلاقياً وكي نكتسب ملكاتنا الحميدة.

أرسطو يؤكد على الوسط بالأفعال من دون إفراط ولا تفريط، يضرب أرسطو مثلاً بقوة البدن والصحة، فهو يقول أن الشدة في التمرينات البدنية أو التفريط فيهما، فكلاهما يؤدي بالقوة على السواء، كثرة الأطعمة أو قلتها تفسد الصحة وأن التوسط في تناول الطعام يوجد الصحة ويديهما.

ينتقل أرسطو بعد ذلك إلى ضرب الأمثلة بالفضائل الأخلاقية، حين يقول أن العفة والشجاعة وجميع الفضائل الأخرى تكون بالتوسط والاعتدال وتنعدم بالإفراط أو التفريط بالنسبة للشجاعة، فإن الإنسان المقدام هو شجاع، غير أن الذي يقتحم الأخطار دون تفكير هو متهور، والذي لا يحتمل شيئاً فهو جبان، بالنسبة للعفة، فإن

الذي ينغمس في اللذات فهو شره، والذي يمتنع تماماً فهو جامد، أما الذي يتمتع بالذات بمقدار ما يمليه العقل فهو عفيف.

يعرف مسكوية الفضيلة بأنها وسط بين رذائل، أنه في الوقت نفسه يقول أن الوسط صعب، وأن التمسك به بعد وجوده أصعب، يذكر مسكوية بعد ذلك أن الفضائل تتم بالاجتماع، لأن الإنسان مدني بالطبع.

الإنسان إذن محتاج إلى الحياة المدنية كي يمارس الفضيلة، وتتم له السعادة الإنسانية، أن الإنسان بالطبع يحتاج إلى غيره، وأنه مضطر إلى معاشرتهم العشرة الجميلة ومحبتهم المحبة الصادقة لأن إنسانيته تتم بهذه المخالطة وهذا الاجتماع.

مسكوية بعد ذلك يحمل حملة عنيفة على الذين يفضلون التفرد والتخلي عن الناس، ولاسيما أولئك الذين يلازمون المغارات في الجبال، أو السياحة في البلدان دون هدف، مسكوية يؤكد أن العفة والنجدة والسخاء والعدالة تظهر بالمخالطة في المدن.

يقول مسكوية أن الفضائل أفعال، وهذه الأفعال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم والتعامل معهم في مختلف ضروب الاجتماعات، أن الفضائل يتعلمها الناس من خلال المخالطة، ليصل بها إلى السعادة.

أرسطو يؤيد أستاذه أفلاطون في الرأي، بحيث ينبغي علينا منذ الطفولة أن نوجه أنفسنا، بحسب مسراتنا وآلامنا، أن الفضيلة تظهر بأفعالنا، فإن الإنسان الذي يمتنع عن لذات الجسم فهو معتدل عفيف، وهكذا فإن الفضيلة الأخلاقية تتعلق باللذات والآلام.

إن ملكات النفس تفسد باللذة والألم، حين تصيرها إلى أحسن أو أقبح، أن ذلك يكون حين يتجاوز الإنسان فيه ذلك، ولا الطريقة التي حصلت بها، مما يسهل على

العقل تصورها وتمييزها، فالفضيلة هي ما يصرف أمرنا تلقاء اللذات والآلام بحيث يكون سلوكنا أحسن ما يمكن أما الرذيلة فهي ضد ذلك.

توجد ثلاثة أشياء في رأي أرسطو تطلب، وتوجد ثلاثة أشياء تجتنب، المطلوبات: هي الخير والنافع والملائم، أما التي يجب تجنبها، فهي: الشر والضار وغير الملائم، إن الرجل الفاضل هو الذي يسلك سلوكاً حسناً ويتبع الطريق المستقيم، أما الشرير فهو الذي يرتكب الخطايا.

اللذة أحساس عام لجميع الكائنات الحية، أكثر من هذا، فإن اللذة منذ طفولتنا غذيت بوجه ما وشبت معنا، إن اللذة والألم هما اللتان تنظمان سلوكنا، كثيراً أم قليلاً، إن الذي يحسن استعمال هذين الإحساسين يكون خيراً، أما الشرير فهو الذي يسيء استعمالها.

الإنسان يكون فاضلاً حين يأتي أعمال الفضيلة، بعد هذا يلزم ثلاثة شروط، هي العلم والإرادة والثبات، لأن الإنسان يحصل على الفضيلة بالممارسة والتكرار، الإنسان الذي يريد أن يكون عادلاً يمارس العدل، والذي يريد أن يكون عفيفاً أن يمارس الاعتدال.

نلاحظ هنا أن أرسطو يضع العلم بالعمل، وهي نظرية أفلاطونية، طالما انتقدها أرسطو، أرسطو يقول أن على الفاعل أن يعلم ما يفعل، أرسطو يستأنف رأيه فيقول في الفنون يجب أن نضع حساباً للعلم بما نعمل، أما في الفضيلة فإن العلم هو قليل القيمة.

يقرر أرسطو أن الفضائل والرذائل ليسا انفعالات أننا لا نمدح الإنسان أو نذمه بسبب انفعالاته، بل يكون ذلك بقدر ما يخص فضائله ورذائله، أننا لا نصف الشخص بأنه فاضل أو شرير بسبب انفعاله.

فضيلة الإنسان هي تلك الكيفية الأخلاقية التي تصيره إنساناً صالحاً، أي تعمل منه رجلاً خيراً، يعرف كيف يؤدي عمله الخاص به، بعد هذا، يحد أرسطو الفضيلة بالوسط، بلا إفراط ولا تفريط.

يعالج أرسطو مشكلة الوسط الأخلاقي، ويقول أن من الصعوبة حدها كالوسط الحسابي، يعطي مثلاً رياضياً هو أن العدد ستة يكون وسطاً بين العدد اثنين والعدد عشرة، لأن الستة تزيد عن الاثنين بمبلغ يساوي المبلغ الذي به زادت عنها العشرة.

هذا وسط حقيقي في التناسب، ولكن ليس هكذا يؤخذ الوسط دائماً، يضرب أرسطو مثلاً ظريفاً ، فحين يأكل رجل عشرة أرطال من الطعام، فهو أكثر مما يلزم، وإذا أكل رطلين فهو أقل مما يلزم، مع ذلك فليس من الصواب أن ننصح كل واحد أن يأكل ستة أرطال من الطعام، ربما أن ستة أرطال من الطعام تكون ضخمة لشخص وغير كافية لشخص آخر، إن الإنسان الحكيم العاقل إذن من يجتنب الإكثار والإقلال ويكتفي بالوسط، الذي هو الاعتدال المناسب.

أننا قد نطلق على شيء متكامل كلمة المتوسط، ونريد مدحه ونصفه بالكمال، نقول عن شيء متقن، ونحن نحاول إطراءه، أنه لا يمكن أن ينقص منه شيء ولا يزاد عليه شيء، وهكذا إذا كان الإفراط والتفريط يفسدان الكمال، فإن الوسط يؤكده. أننا دائماً نضرب المثل الذي يقول: خير الأمور أوسطها.

الوسط الأخلاقي إذن هو الكمال الذي لا يوجد إلا في الفضيلة، والفضيلة هي الوسط الذي نطلبه بلا انقطاع.

أما الرذيلة فتتجلى بالإفراط أو التفريط، الإفراط بالأكثر خطيئة والتفريط في الأقل خطيئة وكلاهما مذموم.

يذهب أرسطو في الرأي إلى أن إتيان الشر سهل، أما الخير فهو صعب، أنه يضيف انه من السهل أن تخطئ الغرض، ومن الصعب أن تصيبه، وهذا هو السبب في أن الإفراط والتفريط يتعلقان بالرذيلة، أما الوسط فهو وحده متعلق بالفضيلة.

يذكر أرسطو بعض الأفعال والانفعالات، أنها ليست إفراطاً ولا تفريطاً، ولا وسط لها، مع ذلك فهي شرور ورذائل: مثل قابلية التلذذ بمصائب الغير والفجور والحسد، وكأفعال الزنى والسرقة والقتل، إن كل هذه الأشياء خبيثة وقبيحة لا بسبب إفراطها ولا تفريطها، أنها اقتراف آثام فحسب.

حين يذكر أرسطو بعض الفضائل، فإنه يشير إلى الإسراف أو التقصير الذي يخصهما، الشجاعة عنده وسط، وأما الإفراط فيها فهو تهور، والتفريط هو جبن، الاعتدال هو الوسط في ممارسة اللذات التي لا يلحق بها آلام، أما الإفراط في اللذات فهو ممارسة اللذات التي لا يلحق بها آلام، أما الإفراط في اللذات فهو الفجور والتفريط هو الخمود، ما يهم العطاء والتصرف بالأموال، فإن الوسط هو السخاء، والإفراط هو الإسراف، أما التفريط فهو البخل.

يذكر أرسطو صفات وسجايا لا يريد أن يغفل عنها، أنه يقول إذا كان السخاء صفة صاحب الأموال، فإن الذي عنده الاستعداد نفسه ولا مال عنده، فبدلاً من السخاء يتميز بالأريحية.

إفراط الإريحية سوء الذوق والزهو الغليظ، أما التفريط فهو التقتير أو التصاغر، أما في أمور الشرف فإن الوسط هو كبير النفس، والإفراط هي الوقاحة والتفريط صنعة النفس.

أما في ما يخفى الغضب، فإن الوسط هو الحلم والإفراط هو الخلق الشرس والتفريط الفتور للذي لا يعرف الغضب، بالنسبة للصدق، فالوسط يسمى الصدق،

والرجل يسمى رجل صدق، إذا غلا وأفرط في الصدق يسمى نفاجاً، وإذا كان منه العند يسمى تعميمه، والرجل معمياً.

ما يتعلق باللذة، ففي المزاح يسمى الرجل الوسط، أنه بشوش، وإذا أفرط تحول إلى السخرية، وإذا كان منه الضد تحول إلى الفظاظة، وفي ما يتعلق بالحياة العادية، فالرجل المقبول بعامة هو الصديق، أما الذي يغالي ويفرط فهو المتملق، والذي يكون غير المقبول إلى حد التفريط فهو الشرس الصعب في التحمل.

في الانفعالات الشخصية يقرر أرسطو أن التواضع ليس فضيلة، ولكنه يعقب بأن الإنسان المتواضع موضع ثنائياً، المهم في هذا إن على الإنسان أن يلزم الوسط، لأن الذي يشعر بالإفراط في حالة وجدانية معينة يحمّد وجهه ويشعر بالحيرة، أما الذي يأثم بالتفريط ولا يحمّدن شيء مطلقاً فهو عديم الحياء، والوسط بين هذين الإفراطين هو الإنسان المتواضع.

يدقق أرسطو في أحوال الأوسط إلى الدقة المتناهية، بحيث لا يرد أن يفوته شيء دون أن يذكره ويشبعه نقاشاً، أرسطو يرى أن كثيراً من المساوئ تبدو نوعاً من المحاسن، وبعض التفريغات تبدو إفراطات، ويصدق القول على الضد، فإن بعض الإفراطات تبدو تفريطات.. وهكذا.

يعطي أرسطو أمثلة على ذلك، فيقول أن الرجل الشجاع يظهر متهوراً إذا قورن بالجبان، ويظهر إلى جانب المتهور جباناً، الإنسان المعتدل يظهر فاجراً إذا قورن بالخامد، والمعتدل نفسه يظن خامداً بالنسبة للفاجر، السخي يظهر مسرفاً بالإضافة إلى البخيل، ويظهر بخيلاً بالنسبة للمسرف.

في نسبة الطرفين إلى الوسط، تارة يكون التفريط هو الأكثر تضاداً، وتارة يكون الإفراط. الرذيلة الأكثر تضاداً مع الشجاعة ليست التهور الذي هو إفراط، بل الجبن

الذي هو تفريط، على الضد نجد في الاعتدال، فإن الحل الذي يبتعد عنه أكثر ليس هو اللاحساسية التي هي عيب التفريط، بل هو الفجور الذي هو عيب الإفراط.

يحلل أرسطو ذلك، فيقول أن طبعنا يميل بنا أكثر إلى اللذات، وهذا هو الذي يجعلنا ميالين إلى عدم الاعتدال، أكثر منا إلى القناعة والزهد، لهذا نجد أنفسنا تخرج عن الوسط إلى الإفراط أكثر منه إلى التفريط.

من هنا يجد الإنسان مشقة في أن يكون فاضلاً، لأن إدراك الوسط صعب جداً في كل شيء، ولهذا كان الخير يجد نفسه نادراً وممدوحاً وجميلاً، ليس أمام الإنسان إذن وهو الضد في زمّ نفسه، وعدم الاندفاع نحو الخطيئة.

إننا إذن ملزمون نحو اختيار الوسط، على الرغم من الصعوبة باتخاذ القرار ، ولاسيما في الحياة اليومية، أن الإنسان لا يعرف متى سيغضب ومتى سيكون حليماً، على الإنسان أن يدرك أنه سيكون ممدوحاً، إذا ما تصرف تصرفاً حكيماً، ليضع نصب عينيه إن الاعتدال في كل شيء حالة ممدوحة، ولهذا يحاول الابتعاد عن كل إفراط أو تفريط لأنه بالسيرة الوسط سيكون ممدوحاً وخيّراً.

ينتبه أرسطو إلى أفعال نفعلها بكامل إرادتنا على أننا مرغومين على فعلها، أنه يطلق على هذه الأفعال إرادية وأنها في الوقت نفسه غير إرادية، أننا نفعلها وإرادتنا معنا، على أننا نفعلها مضطرين غير راغبين.

يعطي أرسطو مثالاً على شخص يقع تحت حكم السلطان جائر مستبد، ذو سيادة وسطوة على أولاده وأقربائه، وهذا السلطان يجبر الرجل على آتيان فعل مخز، حتى ينجي أفراد عائلته وإلا يهلكهم السلطان، مثال آخر، هبوب عاصفة، تكاد تغرق السفينة في وسط البحر إذا لم يرمى شيئاً حمولة من السفينة في البحر، كي تخف وتنجو من الغرق.

أرسطو يقول إن الإنسان يفعل مثل هذه الأفعال خشية أضرار أكبر منها، أرسطو يطلق عايها مصطلح: الأفعال المختلطة، أنها إرادية وغير إرادية، لا يوجد إنسان يقدم على أفعال مخزية أو أن يرمي أموال في البحر، أنه فعل ذلك بكامل إرادته، فهي أفعال إرادية، وأنه مجبر على أدائها فهي أفعال لا إرادية.

لا شك أن من يقدم على مثل هذه الأفعال يقابل باللوم والاحتقار، وربما يلحقه العار والألم من جراء ما أقدم عليه في الوقت نفسه، ربما يمدح ويكرم، إذا كان الهدف شريفاً، أو على الأقل ربما يغفر له الآخرون فعلته، إذا ما أدركوا الأسباب التي أجبرته على ما أقدم عليه من فعال.

يتساءل أرسطو بعد ذلك، عن الأفعال التي نعدها لا إرادية وقسرية، هل سببها عوامل خارجية، أو أنها أفعال ذاتية، يفلسف أرسطو الحالة، فيقول أن أفعالنا هي دائماً تابعة للأحوال الخاصة، والأحوال الخاصة تتعلق بإرادتنا، مع هذا فإن أرسطو يضيف أنه من الصعوبة الجزم، لأن هناك ما لا يحصى من الفروق الدقيقة التي تستتبعها الظروف الخاصة.

يعود أرسطو إلى اللذة أو الخير، فيقول ليس من الصواب، أن نقول أن هناك سلطاناً خارجياً يكرهنا عليهما، أنه يضع التبعية على الإنسان نفسه، حين تجذبه الغوايات من أجل اللذة، ثم ما يلبث أن يلقي اللوم على الخارج.

إن القسري واللاإرادي ما كانت علته من الخارج، ولا يستطيع الذي وقع عليه القسر أو الإكراه، رد ذلك أو التخلص من تبعاته.

يضيف أرسطو، إن الفعل اللاإرادي إذا وقع بالقوة القاهرة أو الجهل، فإن الفعل الإرادي، هو الفعل الذي أصله في ذات الفاعل، لأنه يعرف جميع الشروط والأوضاع التي

وقع بها في فعله، لا يمكن مثلاً أن نسمي تلك الأفعال التي يحمل الفاعل على إتيانها الغضب أو الرغبة، أنها أفعال لا إرادية.

عندما يأتي أرسطو على ذكر القصد أو الاختيار، يقول أنه الأصل الأولي للفضيلة، بل هو أدل من أفعال الفاعل نفسها على تقدير ملكاته الأخلاقية.

يذهب أرسطو في القول، إن عديم الاعتدال، الذي لا يعرف أن يحكم نفسه، إنما يفعل بالرغبة، أنه لا يفعل بالقصد والاختيار، الرجل المعتدل هو الذي يفعل بالقصد والاختيار المدبر، ولا يفعل بدافع الرغبة.

إن الرغبة في الغالب تكون معارضة للقصد، كما أن الرغبة تتجه إلى ما هو لذيذ أو مؤلم، أما القصد أو الاختيار المدبر، فلا يتجه لا إلى الألم ولا إلى اللذة.

يشير أرسطو إلى أن القصد أو الاختيار ليس هو الإرادة، ولكنه مواز لها إلى حد ما، القصد أو الاختيار لا يتجه إلى الأشياء المستحيلة، غير أن الإرادة يمكن أن تتعلق بالأشياء المستحيلة، إن الاختيار أو القصد هو دائماً مصحوب بالعقل والتدبر، فهو ينتخب بعض الأشياء لها على البعض الآخر.

مع ذلك، فإن موضوع الإرادة هو الخير، كما أن الخير هو موضوع الإرادة، يعقب أرسطو متفلسفاً، إن لكل شخص الخير الذي يظهر له أنه خير، الرجل الفاضل يكون الخير عنده هو الخير الحقيقي، أما الشرير فالأمر موكول إلى المصادفة التي تقع له، الشائن في هذا كالشائن في الأجسام، فإن الأشياء سليمة تكون مفيدة للأجسام الصحيحة، وتكون غير ذلك بالنسبة للأجسام التي تصاب بالمرض.

إن الرجل الفاضل، ينحصر جلة في أن يرى الحق في جميع الأشياء، أما بالنسبة للعامي، فإن خطأه يأتي على العموم من اللذة، التي تظهر له أنها هي الواقع، مع أنها في الواقع غير ذلك.

يقرر أرسطو أن الفضيلة والرذيلة إراديتان، أنه في الوقت الذي نستطيع أن نقول (لا) نستطيع أن نقول (نعم)، أن هذا يعني، أنه كما يتعلق بنا الفعل الصالح، فإننا من الممكن أن نبتعد عن الفعل الطالح.

لا بأس أن أشير إلى أن أفلاطون يعتقد أن الرذيلة لا إرادية، أرسطو يخالفه في هذا الشأن، إذ أنه يقول ما دامت الفضائل ميدان الإنسان بالإرادة، فلا بد أن تتبعها بحسب هذا القياس، الرذائل أيضاً، وهكذا فإن الأمر يتعلق بنا في أن نكون أفاضل أو أراذل.

أننا نرى أن المشرعين ورجال القانون، يكافئون أصحاب الأعمال الفاضلة، ويعاقبون الذين يأتون الأفعال الشريرة، أنهم يفعلون هذا الفعل المزدوج، تشجيعاً للأولين وصداً للآخرين.

ما أن يبدأ أرسطو بتحليل الفضائل، حتى يقول أنها أوساط، يبدأ القول في الشجاعة، فيجدها أنها وسط بين الخوف والجرأة، لا شك أننا نخاف الشرور من كل نوع: (العار، الفقر، المرض، الموت)، إن الرجل الشجاع قد يخاف من بعض الشرور، بل من الشرف أن يخاف، ويكون من المخجل أن لا يخاف أبداً، كذلك لا يمكن أن يقال عن رجل أنه جبان لأنه يخشى الشتم على أولاده وزوجه، كما لا يقال عن رجل أنه شجاع، لأنه يظهر ثباتاً في انتظار ضربات السيف التي تهدده.

يمكن أن يسمى الرجل شجاعاً حقاً، إذا بقي بلا خوف أمام موت جميل، وأمام الأخطار التي يمكن أن تذهب به في أية لحظة، أن الشجاعة تظهر أيضاً في الأحوال التي يمكن فيها المرء أن يدافع عن نفسه بشهامة، والتي يمكن أن يكون الموت فيها شريفاً.

إن الرجل الشجاع لا يتزعزع، ولكن على قدر ما هو إنسان ليس معنى هذا، أنه لا يخاف الأخطار التي يجب على الرجل العاقل أن يهدبها، عليه أن يخافها كما ينبغي أن

تخاف، ويحتملها بشعور القيام بالواجب كما يشاء العقل أن تحتمل، وذلك هو عين غاية الفضيلة، إن الرجل يعمل بتقدير صحيح للأشياء، وطبقاً لأوامر العقل.

إن عيب الشجاعة هو الإفراط، الذي هو العدم التام لكل نوع من الخوف، إن إفراط الطمأنينة تلقاء الأخطار يسمى تهوراً، أنه من الجنون أو عدم إحساس بالألم، إلى حد أن لا يخاف الإنسان من الزلازل على الأرض، أو الأمواج الثائرة المتلاطمة إذا كان في البحر.

أما التفريط في الشجاعة فهو الجبن، إن الإنسان الذي ينخدع في موضوعات الخوف، وترتبط به وتتبعه فهو جبان، أنه يظهر ضعفه في الألم، باستسلامه بدون حد إلى درجة الحزن، أنه يجد مشقة في إدراك الرجاء، فهو يخاف دائماً.

وهكذا فإن الجبان والمتهور والشجاع هم ما هم بالإضافة إلى الموضوعات أنفسها، علاقتهم فقط بهذه الموضوعات المختلفة، بعضهم يخطئ بالإفراط وآخرون بالتفريط، المتهورون يندفعون إلى الخطر، ولكن إذا داهمهم الخطر نكصوا على أعقابهم، الرجال الشجعان، يقدمون مهربين على فعلهم، وقلوبهم ملأى بالسكينة.

الشجاعة إذن هي وسط بالنسبة للأشياء التي يمكن أن تلقي في قلب الإنسان، الخوف أو الطمأنينة، الشجاعة الحقة إذن هي التي تقتحم الخطر وتحتمله لأن الواجب يقضي باحتماله، أو لأنه يكون من المخجل التخلي عنه.

يذكر أرسطو خمسة أنواع من الشجاعة:

١) الشجاعة المدنية: الجنود المطيعون خوفاً من رئيسهم.

٢) شجاعة الخبرة: الجند المدربون على الحروب.

٣) شجاعة الغضب: لو كان في الغضب تدبر لكان شجاعة حقة.

٤) الشجاعة التي تأتي من الثقة في النجاح.

٥) شجاعة الجهل: وهي لا تقف أمام الخطر الحق.

الشجاعة هي دائماً شاقة جداً، وهذا هو ما يجعلها أهلاً للاحترام، أن الذي يسمى شجاعاً، يشترك فيه الصبر على المشقات، لذلك يكون الثناء على الشجاعة لأنها أمر صعب، لأن احتمال الألم أصعب من الامتناع عن اللذة.

أما الاعتدال (العفة) فهو الوسط في كل ما يتعلق باللذات، يقسم أرسطو اللذات إلى لذات روح ولذات بدن، لذات الروح مثل الطمع وحب العلم، وهي ليس فيها اعتدال وعدم اعتدال، لأن الذي يحب العلم يتمتع به تمتعاً حاداً دون انقطاع.

الاعتدال إذن ينطبق على لذات البدن، وإن عدم الاعتدال هو إفراط في اللذات وهو مذموم، أن عديم الاعتدال هو الإنسان الذي يتألم أكثر مما يلزم لفوات ما يرضيه، الإنسان المعتدل أو الحكيم، هو الذي لم يتألم من فقد لذة، إن الإنسان الحكيم المعتدل، يعرف أن يتخذ الوسط المناسب، أنه لا ينجرف وراء اللذات التي يشغف بها عديم الاعتدال، بل يتجنب مثل هذا الاستهتار، رغبات المعتدل دائماً معتدلة، ولا يتعدى الحدود المقبولة، إنه يقدر اللذات التي تفيد الصحة والعيشة الراضية، أنه باختصار لا يعمل إلا بما يقتضيه العقل القيم.

إن الإنسان الذي يعرف كيف يطيع العقل هو إنسان معتدل، إن الجزء الشهواني من نفس الإنسان ينبغي أن يبطن الرغبات المطابقة للعقل، إن العاقل ليس له غرض آخر غير الخير، فهو يرغب فيما ينبغي، وكما ينبغي ومتى ينبغي وهذا هو ما يأمر به العقل.

أما السخاء فهو الوسط القيم في كل ما يتعلق بالثروة، السخاء وسط بين الوسط والبخل، وهما الإفراطان فيما يخص الأموال، إن المسرف هو الذي يتلف ثروته بيده، أما

الرجل الجواد، فهو الذي ينتفع بثروته على أحسن ما يكون، فضيلة السخاء هنا، في آتيان الأشياء الجميلة، لأن في فعل الإعطاء يجتمع عمل الخير وعمل أشياء جميلة.

إن الذين يقبلون العطايا، لا يستحقون أي مدح، إن السخاء هو المستحب من بين جميع الفضائل، لأن الأسخياء نافعون لأمثالهم من بني الإنسان، أن الرجل السخي يعطي، لأن العطاء خير وجميل.

مع ذلك، فإن السخاء يجب أن يقدر بحسب الثروة، إن السخاء الحق ينحصر لا في قيمة ما يعطي، بل في وضع الذي يعطي، لأنه يبذل عطاياه بنسبة ثروته، يذكر أرسطو حالة معروفة، هو إن الإنسان يكون أكثر سخاء إذا لم يكن قد حصل ثروته بنفسه، كأن قد تلقاها عن غيره بالإرث.

السخاء إذن وسط في جميع ما يمس الأموال، في حال إعطائها أو قبولها، السخي يعطي ويقبل عندما ينبغي، وبقدر ما ينبغي، وأن يكون ذلك مصحوباً بارتياح، إن المرء متى عرف كيف يحسن العطاء، يعرف كيف يحسن القبول.

إن المسرف أعلى كثيراً من البخيل، المسرف يحسن إلى طائفة من الناس، أما البخيل فلا يحسن إلى أحد ولا إلى نفسه، أن المسرف بقدر ما يظهر ضعفاً في السخاء، يكون شرهاً في القبول لأنه يريد دائماً أن ينفق، ولهذا فإن المسرف عديم الاعتدال.

أما البخل فهو أدخل في طبع الإنسان من السرف، لأن أكثرنا يستحب حفظ ماله على أعطائه، لا شك أن البخل رذيلة، وهو ليس في كل الناس على السواء، يقرر أرسطو، إن البخل رذيلة أكثر استحقاقاً للوم من السرف.

الأريحية كالسخاء تتناول الأفعال التي تتعلق بالأموال، أنها في بعض الأحوال تفوق السخاء لأنها إنفاق المال إنفاقاً مناسباً في ظرف عظيم، أما الذي ينفق في الأشياء

الصغيرة والمادية، فلا يستحق تعب إريحي، أن عديم الأريحية يسمى صغيراً أو حقيراً والإفراط في الأريحية بهرجة وأبهة.

الأريحي إذن هو رجل تدبر وحكمة، ما دام أنه كفء، لأنه يرى ما يناسب كل مقام، ولأنه ينفق النفقات في القدر اللازم، أنه سبيل الخير والجميل أن ينفق الأريحي هذه النفقات الكبيرة، لأن قصد الخير هو الخلق العام لجميع الفضائل، أزيد من هذا، فإن الأريحي ينفقها بلذة وسهولة شريفة، أن من الطبيعي أن يكون الأريحي سخياً، ولكن العظمة في هذا الشأن هي خاصية الأريحي.

المروءة أو عظم النفس، يكفي اسمها في تعريفها لأنها تنطبق على الأشياء العظيمة، أما عظيم النفس (المرئ) فإنه الإنسان الذي يحس أنه أهل لعظائم الأشياء، والذي هو في الواقع كذلك، أن عظيم النفس هو في الطرف الأعلى بعظمته ذاتها، كما أنه في الوسط القديم الذي ينبغي عليه أن يكون، أنه يقدر نفسه حق مقدرها، في حين أن أغياره على ضد ذلك خاطئون أما بالإفراط وأما بالتفريط.

إن التفريط بالمروءة هو صغر النفس، حين يكون الرجل أدنى مما هو، ومن الإحساس الشريف عيبه الإفراط، حين يغلو في أهليته، ولكنه مع ذلك لا يقاس بصاحب المروءة.

الوسط القويم بين طمع مغال في المجد، وبين قعود تام عنه، يقول أرسطو أن هذا الوسط لا اسم محدد له، أنه بالنسبة للمروءة كالسخاء بالنسبة للأريحية، لا شك أنه يوجد وسط قويم بين أعطاء الأموال وقبولها، يمكن أن يميز بالرغبة في الشرف والمجد، جهتان أحداهما بالأكثر والأخرى بالأقل، ووسط لا يُسعى فيه إلى الشرف، إلا في الظروف وبالطريقة بين اللازمة للسعي إليه.

أما الحلم، فهو وسط بين الغضب والبلادة، أنه وسط في كل ما يختفي الإحساسات الغضبية، الإفراط في هذا النوع يمكن أن يسمى سرعة الغضب، أما التفريط في هذا النوع يمكن أن يسمى عجزاً عن الغضب أم سمي بأي اسم آخر، فإنه خليق بالذم، أنهم في الحقيقة، بلداء أولئك الذين لا يغضبون في الأمور التي يلزم الشعور فيها بغضب حقيق.

في روح الاجتماع، هناك الإنسان الرضيّ، وهناك الإنسان يبحث أكثر مما يلزم ليرضى، الوضع الوسط في هذا المعنى يقرب من الصداقة، الإنسان الذي يحاول أن يرضى يجب أن يكون على شيء من الثبات في بعض الأحوال، وأن يعرف كيف يعامل الناس تبعاً لأقدارهم.

إن الناس في معاملاتهم، يسعون إلى أن يكونوا مقبولين لدى الجميع، يحاولون القيام بأداء الواجب، ولا يسيئون للأشخاص الذين يقابلونهم، أناس آخرون على خلق مضاد لأولئك، فهم يعارضون كل شيء، ولا يهمهم ما يسببون للغير من ألم، وهؤلاء عسرون مشاغبون، أرسطو يرى أن هذين الوضعين جديران باللوم، أن الوسط الممدوح في هذه الحالة، هو أم يقبل المرء أو يرفض كما ينبغي من الناس والأشياء ما ينبغي قبوله أو رفضه.

في الصدق أو في الصراحة، هذه الفضيلة وسط بين الفخفخة الفارغة الذي ينسب الفخور له خلالاً لا يمتلكها، وبين التواضع الذي يصغر حتى ماله من خلال.

الفخور الأحمق والصلف، هو الذي يتعلق بأشياء من أجل أن تجعل منه نابه الذكر، ويحاول أن يدخل في عقول الناس أن له خلالاً ليست له في الواقع، أو الذي يريد أن يجعل من خلاله أكبر مما هي في الواقع.

أما الرجل (المترفع) أو بالأحرى الذي يبالغ في التواضع، فإنه يابى على نفسه من خلال حسنة، أو يصغر من قدرها أو الذي لا يريد أن يظهرها أمام الآخرين.

أن الرجل الصدوق في قوله وفي عيشه، هو الذي يستمسك بالوسط من هذين الطرفين، أنه حين يتكلم عن نفسه، يذكر ماله من صفات الخير كما هي، فهو لا يجعلها أكبر ولا أصغر مما هي فيه، أن رجلاً من هذه فطرته، هو في الواقع رجل نبل، أنه يقول الحق، وقوله له أهمية، لأنه يجتنب الكذب، إن هذا الخلق هو على الحقيقة أهل للاحترام.

في ملكة المزاح فإن الرجل الأنيس يعرف أن يلزم الوسط القويم، بين الرجل المسخرة الذي يحاول إضحاك غيره دائماً ربما من غير سبب، ومن العبوس الذي لا يعرف البشاشة، لا شك أن في الحياة أوقات راحة، ولا بأس أن يكون فيها حديث تسليط ورقة وحسن ذوقه.

من الطبيعي أن يقع في هذه الأحوال أما إفراط وأما تفريط، وكلاهما فيه تجاوز على الوسط، أن من الناس من يدفعهم إلى الإفراط ديدن الإضحاك، فيأتون بالهذر في كل مقام، وهم يحاولون أن يضحكوا من حولهم، من دون أن يكون في كلامهم هدف معين، وربما هو في حقيقته لا يضحك، من الناس على الضد من ذلك، لا يجدون قولاً يسرون به الآخرين، أكثر من هذا، فهم يحقدون على من هم أكثر منهم استعداداً للتنكيت، هذا النوع من الناس قوم غلاظ أفظاظ.

أما الحياء أو الخجل، فإنه أرسطو يقول لا يمكن أن نعد أياً من الخجل أو الحياء فضيلة، السبب لأن كلاً منهما هو تغير وقتي وليس ملكه حقيقية، أما حد الحياء فهو ضرب من خوف العار، وأن الخجل يدل على إحساس بالعار.

إن المرء إذا اقترف خطيئة أيا كانت، فمن الحسن أن يخجل منها، مع ذلك فإن أرسطو يقول أن ذلك لا علاقة به بالفضائل الحقيقية، حتى عدم الحياء، الذي يجعل المرء لا يعتريه خجل، إنما هو رذيلة، أن الذي لا يحمر البتة مما فعله من سوء فهو ساقط، وأنه لا يشرفه بمجرد أن يخجل، بعد أن آتى من الآثام ما آتى.

إن الوسط بين الشعور بالخجل وعدم الحياء هو ضبط النفس، مع ذلك، فإن أرسطو لا يعد هذا الوسط فضيلة، بل يقول أنه أشبه بفضيلة منه بالفضيلة.

الفضائل عند مسكوية أربع، تضادها أربع رذائل، إذا كانت حركة النفس الناطقة معتدلة وغير خارجة عن ذاتها، وكان شوقها إلى المعارف الصحيحة، حدثت عنها فضيلة العلم وتتبعها الحكمة، أما النفس البهيمية فمتى كانت معتدلة منقادة للنفس العاقلة، حدثت عنها العفة وتتبعها فضيلة السخاء، أما النفس السبعية فمتى كانت معتدلة، تطيع النفس العاقلة فيما تقسطه لها، حدثت فضيلة الحلم وتتبعها الشجاعة، يحدث عن هذه الفضائل الثلاث باعتدالها ونسبة بغضها إلى بعض، فضيلة هي كمالها وتمامها وهي فضيلة العدالة.

سند مسكوية رأيه إلى الفلاسفة أو يستشهد بهم، حين يقول أن الحكماء أجمعوا أن أجناس الفضائل أربعة، وهي: الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة، يعقب مسكوية قائلاً، أن على الإنسان أن يفتخر ويباهي بهذه الفضائل فقط، لا بآبائه وأجداده.

أما الرذائل الأربع التي تقابلها فهي: الجهل والشره والجبن والجور، تحت كل واحد من هذه الأجناس أنواع كثيرة، أما ما يحدث منها من أمراض نفسانية تحدث منها آلام كثيرة، كالخوف والحزن والغضب وأنواع العشق والشهوات وضروب من سوء الخلق.

حين يفصل مسكوية القول في الفضائل يقول: الحكمة هي فضيلة النفس الناطقة المميزة، أنها تعلم الموجودات كلها من حيث أنها موجودة، ولا بأس أن نذكر أنها تعلم الأمور الإلهية والأمور الإنسانية.

أما العفة فهي فضيلة الجزء الشهواني، أن ظهور هذه الفضيلة في الإنسان بأن يصرف شهواته بحسب الرأي، أي يوافق التمييز الصحيح حتى لا ينقاد لها، ليكون حراً لا ينقاد بشيء من شهواته.

الشجاعة هي فضيلة النفس الغضبية، تظهر في الإنسان بحسب انقياد النفس الناطقة، واستعمال ما يوجبه الرأي في الأمور الهائلة.

أما العدالة فهي فضيلة النفس تحدث لها من اجتماع الفضائل الثلاث أعلاه، هذه الفضيلة تكون في الإنسان حين تنسجم القوى مع بعضها، ولا تتغالب ولا تتحرك نحو مطلوباتها، بل تستسلم لزمام القوة المميزة.

يفصل مسكوية القول في فضائل تتفرع من كل فضيلة أو بالأحرى أنه عرف كل فضيلة فرعية بسطر أو سطرين، أنه أطلق عليها أنها أمام كل فضيلة من الفضائل.

أقسام فضيلة الحكمة، فهي:

- الذكاء
- الذكر
- التعقل
- سرعة الفهم وقوته
- صفاء الذهن
- سهولة التعلم.

أقسام فضيلة العفة، هي:

- الحياء
- الدعة
- الصبر
- السخاء
- الحرية
- القناعة
- الدماثة
- الانتظام
- حسن الهدي

- المسالمة
- الوقار
- الورع.

أقسام فضيلة الشجاعة، هي:

- كبر النفس
- النجدة
- عظم الهمة
- الثبات
- الحلم
- عدم الطيش
- الشهامة
- احتمال الكد

أقسام فضيلة العفة، هي:

- الكرم
- الإيثار
- النبل
- المؤاساة
- السماحة
- المسامحة

الفصل الثالث

العقل

العقل

يعطي أرسطو أهمية كبيرة للعقل، إذ على الرغم من أنه ألزم في الفضائل الخلقية الأخذ بالوسط، دون ميل إلى الإفراط أو التفريط، يوضح أرسطو ان هذا الوسط يأمر به العقل السليم، أن الرجل العاقل هو الذي ينتبه ويوازن قواه، من غير أن تشتط به إلى إحدى الرذيلتين المتطرفتين، فيبقى يتصرف في أموره في وسط مطابق لرؤى العقل.

أما مسكوية فيرى إن الإنسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص به لا يشاركه فيه غيره، القوة الناطقة عند مسكوية هي التي تسمى الملكية، وآلتها التي تستعملها من البدن الدماغ.

ومتى كانت حركة النفس الناطقة معتدلة وغير خارجة عن ذاتها، ومتى كان شوقها إلى المعارف الصحيحة لا المظنون، لأن المعارف الصحيحة تحدث عنها فضيلة العلم وتتبعها الحكمة.

مع أن أرسطو يلح بالتزام الطريق الوسط الذي يأمر به العقل بالنسبة للعلم وما يحتاج إليه الشخص من الراحة، ولكن مع هذا يتساءل أرسطو إذا التزم إنسان بهذه القاعدة ثم تصادفه أوامر الطبيب بشأن الحفاظ على صحته، ففي هذه الحالة يجب عليه الالتزام بكل ما يأمر به الطبيب.

وكما أن للنفس قوة عاقلة وأخرى غير عاقلة، كذلك فالجزء العاقل يقسم إلى قسمين، أحدهما الجزء العلمي والآخر الجزء المفكر، كما إن في الإنسان ثلاثة أصول يصدر عنها الفعل عند الإنسان وهي الإحساس والعقل والرغبة، فالإحساس لا ينفرد

به الإنسان، إذ أن للحيوان إحساساً، أما الرغبة والتدبر في الأمور، فينبغي أن يقر العقل ما يطلبه ويرغبه الإنسان.

الكمال الخاص بالإنسان عند مسكوية كمالان، وذلك لأنه له قوتين أحداهما العالمة والأخرى العاملة، إن الإنسان يشتاق بإحدى القوتين إلى المعارف والعلوم، ويشتاق بالأخرى إلى تنظيم الأمور وترتيبها، إن كماله الأول بإحدة قوتيه أي العالمة، وهي التي يشتاق بها إلى العلم، أنه يعبر في العلم بحيث يصدق نظره وتصح بصيرته وتستقيم رؤيته، فلا يغلط في اعتقاد ولا يشك في حقيقة، أنه ينتهي في العلم بأمور الموجودات على الترتيب إلى العلم الإلهي، الذي هو آخر مرتبة العلوم، ويثق به ويسكن إليه، ويطمئن قلبه وتذهب حيويته، ويتجلى له المطلوب الأخير حتى يتحد به، إن الإنسان يصير إلى كماله، ويصدر عنه فعله الخاص به، إذا علم الموجودات كلها، أي أنه يعلم كلياتها وحدودها، التي هي ذواتها لا أغراضها وخواصها التي تصيرها بلا نهاية.

إن العقل التأملي المحض عند أرسطو ليس عملياً ولا محدثاً، إن الأحداث هو اختيار النفس للشيء الذي تصدر عنه الحركة الأولية، ولا اختيار بلا عقل أو عمل العقل، إن العقل في ذاته لا يحرك شيئاً، بل الذي يحرك هو العقل الذي يتصدى إلى غرض معين فينقلب عملياً، أنه إذن يأمر الجزء الآخر من العقل الذي ينفذ.

أما الوسائل التي تصل بواسطتها النفس إلى الحق فهي خمس:

١) الفن ٢) العلم

٣) التدبر ٤) الحكمة

٥) العقل

العلم عند أرسطو لا يمكن أن يكون على خلاف ما هو عليه، أما الأشياء التي تكون على خلاف ما هي، فإننا لا ندري إذا كانت في الواقع أم لا، أما الشيء الذي علم،

والذي يكون موضوعاً للعلم فهو موجود، وهو إذن بالضرورة أزلي، كما أن الأشياء الأزلية غير حادثة ولا فانية، يمكن القول أيضاً أن كل علم قابل لأن يعلم، وكل شيء قد علم يمكن أن يعلّم.

إن كل معلوم جاء، سواء بالاستقراء أو الاستنتاج هو كسبي إن الاستقراء هو أصل القضايا الكلية، كما أن الاستنتاج مستخرج من الكليات، العلم إذن بالنسبة للعقل ملكة على طريقة منظمة وإن الإنسان متى اعتقد عقيدة، وكان يعلم الأصول التي اعتقد بواسطتها فإنه حاصل على العلم.

الفن عند أرسطو ملكة الإنتاج يديرها العقل، بعكس الفن الفاسد أو عدم المهارة فهو نتاج ملكة يديرهما عقل فاسد إن الفن موجود فإذا أخذنا مثلاً فن العمارة فإن هذا الفن هو ثمرة ملكة الإنتاج لنوع ما، هذه الملكة يضيئها العقل، إذن ما من فن إلا هو ملكة الإنتاج يهديها العقل.

كل فن مهما كان يرمي إلى الإنتاج فليس لمجهوداته ونظرياته إلا غرض واحد، هو توليد واحد من الأشياء من جهة أخرى الإنتاج والأحداث بما أنهما متباينان، فينتج من ذلك أن الفن هو في دائرة الإنتاج والأحداث بالمعنى الخاص يمكن أن يقال على وجه ما أن الثروة والفن ينطقبان على الأشياء عينها.

أما حسن الرأي والحكمة فإن حسن الرأي يفعل بمساعدة العقل في الأعمال الإنسانية، إن الرجل المدبر له إلمام بشيء ما ويكون كفئاً لعمل شيء فينتج يعرف أرسطو الرجل حسن الرأي، الذي يحسن عمل شيء يوصله إلى غاية معينة.

التدبير (الخبرة) في رأي أرسطو، يمكن الإلمام به باعتبار من هم الرجال الذين يشرفون بتسميتهم مدبرين (خبراء) إن الميزة في الرجل المدبر (الخبير) هي أن يكون

كفأ للمعادلة والحكم على الأشياء التي يمكن أن تكون طيبة ونافعة لا على بعض الاعتبارات الخاصة، بل التي يجب على وجه العموم أن تساعد على فضيلة وسعادته.

إننا نقول على بعض الناس إنهم مدبرون في مسألة خاصة بعينها متى أحسنوا التدبير لبلوغ غاية شريفة يمكن إذن أن يقال بكلمة واحدة، إن الرجل المدبر، هو على العموم الرجل الذي يحسن المعادلة.

التدبير في رأي أرسطو ليس هو العلم ولا الفن، هو ليس العلم لأن موضوع الفعل يمكن أن يكون غير ما هو كائن كما أن التدبير ليس الفن لأن الجنس الذي أحدث يختلف عن جنسه الذي ينتمي إليه الشيء نفسه.

المدبرون (الخبراء) إذن حكماء يدبرون الأمور حق قدرها، هذا يصدق على أمثلة كثيرة مثل رؤساء العوائل ورجال الدولة، إن حكمة التدبير لها علاقة بسلوكها، من حيث أن تكون الأشياء صالحة لنا، فالتدبير أو الحكمة إذن فضيلة ولما كان الرأي ينطبق على ما سيكون أي ما يمكنه وجوده أو يمكن عدمه فالحكمة أو حسن الرأي يصاحبه العقل، ويبقى كملكة لا تزول أبداً.

يقول مسكويه، إن على العاقل أن يعرف ما ابتلى به الإنسان من نقصانات في جسمه، فيلتمس في نفسه العاقلة، التي بها صار إنساناً، فيربى على أدب الشريعة ويأخذ بوظائفها وشرائعها حتى يتعودها وينظر بعد ذلك في كتب الأخلاق، حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن في نفسه بالبراهين.

ينظر بعدها في الحساب والهندسة حتى يتعود على القول وصحة البرهان فلا يسكن إلا إليها ثم يتدرج إلى أقصى مرتبة الإنسان، فهو السيد الكامل.

يشبه مسكويه الرجل الذي أهمل سياسة نفسه العاقلة، وجعل سلطان الشهوة ومحبة الكرامة، يستوليان عليها يشبهه برجل معه يا قوته شريفة حمراء، لا تقدر

بالذهب والفضة، جلالة ونفاسة وكان هذا الرجل بين يديه نار تضطرم، فرماها في جباها حتى صارت كلساً لا منفعة فيها فخسرها وخسر ضروب منافعها.

النفس العاقلة — عند مسكويه — إذا عرفت شرف نفسها، وأحست بمرتبتها من الله عز وجل، أحسنت خلافته في ترتيب هذه القوى وسياسيتها، ونهضت بالقوة التي أعطاها الله إلى محلها من كرامته، وأنزلها منزلتها من العلو والشرف، فإذا صار إلى آخر أفقه ما اتصل بأول أفق الملائكة، وهذا أعلى مرتبة الإنسان.

أما العلم عند ارسطو، فهو إدراك الأشياء الكلية والأشياء واجبة الوجود، إن هناك مبادئ لكل القضايا التي يمكن إيضاحها ولكل علم أيا كان، لأن العلم مقترن دائماً وبالفكر إن الملكات التي نصل بها إلى الحق ما هي العلم والتدبير والحكمة والفطنة، أما إذا كان فوق ذلك، ولا يمكن للتدبير والحكمة والعلم معرفة المبادئ فإن الفهم هو وحده الذي يختص بالمبادئ ويفهمها.

أما الحذق فيختص به الذي يجيد نوعاً من الفنون إجادة تامة، إن الحذق الحاذق هو النبوغ السامي في الفن أما إذا مازج الحذق حكمة، فقد يصل الإنسان إلى الكمال في جميع الأشياء التي يمكن أن يعملها، ذلك أن الحكمة مركبة من العلم والفطنة، أو أنها العلم بالأشياء العليا، وأن قابضة على ناصية جميع العلوم الأخرى.

أرسطو لا يرى أن العلم السياسي هو أسمى العلوم، إلا اللهم إذا كان الرجل الذي تشغله السياسة هو أفضل رجل في العالم، وإذا فهمنا أن الحكمة شيء والسياسة شيء آخر، وعنينا بالحكمة أن يميز المرء منفعته الذاتية ومصلحته الخاصة وجب الاعتراف بأنواع مختلفة من الحكمة.

لا توجد حكمة بعينها مفيدة لجميع الموجودات، إلا اللهم إذا قررنا مثلاً أن الطب واحد لجميع الموجودات ومع أن الإنسان يدعي أنه أكمل الموجودات إلا أن أرسطو

يرى أن كثيراً من الكائنات أقدس طبعاً من الإنسان، مثل الإجرام التي يتكون منها العالم.

يعطى أرسطو أهمية للتدبير والتجربة إن بعض الناس ينجحون ويرجحون على من هم أكثر علماً منهم، الرجل الذي يعرف بالتجربة، إن الطير خفيفة وسهلة الهضم بالرغم من أنه لا يعرف علمياً لماذا أن لحوم الطير سهلة الهضم وصحية.

أما علاقة التدبير بالسياسة، فكلاهما استعداد أخلاقي، إن التدبير الفردي يهتم بمنفعة الفرد كفرد أو جزء من عائلة، أما السياسة فتهتم بتدبير المملكة علم السياسة هو نظري وعملي مع أن الرجل العامي يتصور إن الذين يصدرون الأوامر هم يباشرون الأعمال بأيديهم.

إن المرء الذي يدرك منفعته الشخصية، عنده نوع من المعرفة ولكن هناك فرقاً كبيراً بين تدبير الفرد أمور نفسه وبين علم السياسة، إن الفرد يدبر منفعته الخاصة، وهي أمر جزئي بينهما الاشتغال بالسياسة عناية بأمور كثيرة التباين.

التدبير ليس هو العلم، لأن التدبير لا يتناول إلا الأمور الجزئية، وإن الأمور الجزئية يمكن أن نعرفها عن طريق التجربة والمران، فمثلاً شخص يمكن أن يكون رياضياً، ولكن لا يمكن أن يكون حكيماً، التدبير أيضاً يقابل الفهم، ولأن الفهم ينطبق على الحدود التي لا محل فيها للفكر، وبما أن التدبير لا يتناول إلا الأمر الجزئي والحد الأدنى الذي لا مكان للعلم، بل هناك مجال للإحساس فقط.

يرى مسكويه أن الحواس تخطىء الحقيقة حاسة البصر مثلاً ترى قرص الشمس صغيراً، وهذا خلاف ما يبرهنه العقل، والشاطئ ويخطى في منظر النخيل من بعيد، حتى يراها مختلفة في أوضاعها، كذلك يخطئ في الأشياء التي تتحرك على الاستدارة، حتى يراها مختلفة في أوضاعها كذلك يخطئ في الأشياء التي تتحرك على

الاستدارة حتى يراها كالحلقة والطوق، يخطئ أيضاً في الأشياء الفائضة في الماء حتى يرى بعضها أكبر من مقداره، ويرى بعضها مكسوراً وهو صحيح، وبعضها معوجاً وهو مستقيم، وبعضها منكوساً وهو منتصب.

هو العقل الذي يستخرج أسباب هذه كلها من مبادئ عقلية، ويحكم عليها أحكاماً صحيحة، كذلك الحال في باقي الحواس، كالسمع والذوق والشم واللمس فحاسية الذوق تغلط في الحلو فتجده مراً، وحاسة الشم تغلط كثيراً في الأشياء المشمومة، ولا سيما المتنقل من رائحة إلى رائحة، العقل يرد هذه القضايا، ويقف فيها أيستخرج أسبابها، ويحكم فيها أحكاماً صحيحة.

لا بأس أن أشير هنا أن أبا بكر الرازي قد سبق مسكويه في هذا الشأن ذاته، إن الرازي يمجد العقل ويعده أعظم نعمة تميز بها الإنسان عن الحيوان فهو يفرق بين النافع والضار، يقول الرازي في مكان أخره أن العقل يدعونا إلى ترك اللذات الحاضرة بعد هذا أرى من المناسب أن اذكر هنا، أن الفلاسفة المسلمين قد احترموا العقل ونصحوا بالسير على هدية، وكأمثلة على ذلك: الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد وابن حزم وغيرهم.

الرؤية كذلك عند أرسطو ليست علماً حتى لو كانت الرؤية حكمة، لا يمكن القول أيضاً أن الرؤية الحكيمة مصادفة سعيدة، لأن المصادفة السعيدة شيء وقتي، ذكاء العقل كذلك لا يمكن القول أنه رؤية حكيمة، لأنه شيء غير الرؤية الحكيمة، إن ذكاء العقل أقرب إلى اللقيا الموفقة والمصادفة السعيدة.

ولكن مع هذا فإن الذي يسيء الرؤية يضل الطريق السوي والذي يحسن الرؤية يعادل بحسب العقل السليم، إن الذي يرى ويفحص شيئاً ما يوازن دائماً بالتفكير سواء أكان الشيء سيئاً أم حسناً، كما لا يغيب عن البال، أن الرؤية الحكيمة الطيبة تلزم

تقويم الإرادة وإلا فإن الرجل الشديد قد يجد بالفكر حلا لما يعانيه من مشكلة تحدث له.

الرؤية هنا تكون مستقيمة على الرغم من الشر الذي يكنه، وعلى الرغم من أن الرؤية الحكيمة تكون في الظاهر حسنة، مع ذلك لا يمكن لإنسان أن يبلغ الخير عن طريق الفكر الفاسد، لأن النتيجة لا تكون رؤية حكيمة وخبرة بالرغم من نتيجتها الناجحة لأن الطريق الذي سلكه غير مشروع.

الرؤية الحكيمة إذن تتميز بالاستقامة، في تمييز الغرض الذي تسعى إليه وبالوسيلة الخيرة والوقت الملائم الذي يجب العمل فيه، الرؤية الحكيمة المطلقة التي غرضها الخير الأسمى، هي التي ترتب سلوك الإنسان وفقاً للمصلحة العليا للحياة الإنسانية، أما الرؤية الحكيمة الأخرى لا تترتب إلى على غرض جزئي، ينهي أرسطو رأيه، بأن الرؤية الحكيمة إذا كانت أية الناس أولى الفطنة والتدبير ما تكون الرؤية تقويماً للحكم نحو غرض نافع.

الفطنة والبلادة عند أرسطو ملكتان، حين نسمي بعض الناس أذكياء والآخرين بلداء، الفطنة لا تشبه بالعلم ولا بالرأي، وإلا كان جميع الناس أذكياء فطنين، الفطنة كذلك لا تشبه بأي من العلوم الخاصة كالطب مثلاً أو الهندسة لأنها لا تتعلق بالصحة ولا بالمقاييس، إنها لا تنطبق أيضاً الأشياء الأزلية، ولا على تلك التي تكون وتعدم، أنها تنطبق فقط على الأشياء التي يقع فيها الشك والرؤية.

وبالرغم من أن الفطنة تشتغل لنفس الأشياء التي يشتغل بها التدبير إلا أنهما ملكتان مختلفتان، إن التدبير له أمر وفاعلية بما يجب عمله أولاً، بينما الفطنة تنقد وتفهم وتحكم.

أما ما يسمى بالذوق، ونطلق على إنسان بأنه سليم الذوق، فهو الحكم الذي يصدره رجل كامل العدالة، إن الرجل العادل عند أرسطو، يشابه الرجل الذي يميل إلى العفو، لأن من العدالة أن نميل إلى الرأفة بالآخرين ونغفر خطاياهم، لأن الرفق ميزة الرجل العادل الذي يقوده إلى الحق.

ينتهي أرسطو في القول، إلى أن جميع الفضائل العقلية، وهي العلم والفن والفطنة والتدبير والذوق السليم، ترمي إلى هدف واحد، لا نستغرب مثلاً، إذا قلنا على فرد بعينه، أنه فطن ومدبر وعنده علم وله ذوق سليم كل هذه الملكات تنطبق على الحدود النهائية والأفعال الجزئية.

إذا أبدى إنسان حكماً في دائرة التدبير فهو إذن فطن يفهم الأمور، وعنده ذوق في الأمور، وفي الوقت المناسب، نراه رؤوفاً غفاراً.

أما مناحي العدالة — في رأي أرسطو — فهي تلك التي ينحوها جميع الرجال الأخيار، في علاقاتهم مع غيرهم من الناس، الفضائل العقلية — في رأيه — هبات من الطمع، ولا يمكن أن تكتسب، مع ذلك فإن أرسطو يقرر أنها تكون كبيرة للرجال المجربين وكبار السن.

إن الأفعال التي نأتيها لا تنطبق إلا على الأشياء الجزئية، مثل أن يعرف الرجل المدبر ما يجب عمله، والفطنة أن نفهم الأشياء، أما الفهم فإنه ينطبق على النهايات في كلا الاتجاهين، لأن الفهم يصعد إلى الحدود العليا، وكذلك ينزل إلى الحدود السفلى.

يتساءل أرسطو، فيما إذا كانت الفضائل العقلية نافعة للإنسان؟ يوضح بعد ذلك وهو يحلل، أنها بلا أدنى شك لها منفعة عملية للإنسان، ومع أن الحكمة عند أرسطو ليست غايتها السعادة لأنها لا تنتج شيئاً، ولكن التدبير له الخاصية والوسائل

التي تجعل الإنسان سعيداً، إن التدبير يقود إلى كل ما هو حق وجميل، وهذا ما يجب على الإنسان الفاضل أن يفعله.

وبما أن الفضائل استعدادات أخلاقية، لكنها لا تصير أكثر حذقاً إذا لم نستعملها، إن شأنها كشأن الأدوية والرياضة البدنية، فهي لا تعني شيئاً إذا لم نزاولها، إننا لا نكون أحسن صحة وعافية، لمجرد أننا نعرف علم الطب وفنون الرياضة البدنية.

يجيز أرسطو للإنسان الذي يجيد التدبير، أن يتبع آراء غيره من أولي التدبير، ومع أن التدبير هو سيد الحكمة ويديرها، لأنه ملكة فاعلة تأمر وتوجه وتقود، وبما أن العمل الخاص للإنسان لا يتم إلا بالتدبير والفضيلة الخلقية ما فالبفضيلة يكون الهدف الشريف، وبالتدبير يكون الطريق الحسن الذي يسلكه الإنسان، ولهذا ربما كان التدبير لا يجعل المرء عادياً ولا خيراً، ما لم يلزم الإنسان نفسه باستعداد خلقي يجعله فاضلاً، أي أن يكون الإنسان هو الاختيار فيما يجب عليه فعله، وإن الفضيلة وحدها التي تجعل من هذا الاختيار حسناً.

أما الحذق فإنه ملكه تساعد على بلوغ الغرض المراد الوصول إليه، فإذا كان الغرض جيداً كانت هذه الملكة ممدوحة، وإذا كان سيئاً، فإن الحذق في هذه الحالة يكون خبثاً، لهذا يطلق على الناس أنهم أكياس وليسو خبثاء.

وعلى الرغم من أن التدبير ليس هو مملكة الحذق، إلا أن المرء لا يكون حاذقاً من دون تدبير، لأن التدبير باصرة النفس، التدبير أيضاً لا يمكن أن يكون بلا فضيلة، ولهذا فالحكم الصحيح لا يظهر واضحاً بجلاء إلا للرجل الفاضل، بينما إلى الرذيلة تفسد العقل وتجره إلى أحكام فاسدة، والنتيجة تقودنا إلى الاقتناع بأن الإنسان لا يكون مدبراً ما لم يكن فاضلاً.

يقسم مسكويه فضائل الحكمة إلى: الذكاء والتذكر والتعقل وسرعة الفهم وقوته وصفاء الذهن وسهولة التعلم، أما الذكاء فهو سرعة انقداح النتائج وسهولتها على النفس، التذكر هو ثبات صورة ما يخلصه العقل من الأمور، التعقل هو موافقة بحث النفس عن الأشياء الموضوعة بقدر ما هي عليه.

صفاء الذهن هو استعداد النفس لاستخراج المطلوب جودة الفهم هو تأمل النفس لما قد لزم من المقدم، أما سهولة التعلم فهي قوة للعقل وحدة في الفهم، بإدراك الأمور النظرية.

يقسم أرسطو الفضيلة إلى فضيلة طبيعية وفضيلة مكتسبة، ثم يردف قائلاً أن نسب الأولى إلى الثانية كنسب ملكة التدبير إلى الكياسة (الذوق) كل إنسان في الحقيقة يظن أنه توجد فيه فضيلة بالطبع، وكل إنسان فيه استعداد ليكون شجاعاً وحكيماً وعادلاً، مع هذا فربما كانت هذه الاستعدادات موجودة في الأطفال والحيوانات وهي بذلك ربما تكون للضرر لهذا فإننا بحاجة إلى فضيلة الفهم التي لا تحصل إلا بفعل التبصر والتدبير.

الفصل الرابع

العــــدل

العدل

لعل أول تعريف يحد أرسطو فيه العدل ويفرقه عن الظلم، أنه الفعل الوسط بين طرفين غير ممدوحين، الوسط إذن هو العدل فهو ممدوح، أما الطرفان منهما يجافيان العدل ولا يلتزمان بحدوده.

بعد هذا، يقول أرسطو أن العدل هو كيف أخلاقي، يحمل الناس على إيتان أشياء عادلة، العدل إذن هو العلة في فعلها وفي إرادة فعلها، أما الظلم فهو الكيف المضاد، الذي هو علة إيتان الظلم، وفي إرادة إيتانة أيضاً.

أما مسكويه فإن العدل عنده توسط بين أطراف، وهيأة يقتدر بها على رد الزائد والناقص إليه، لهذا صار العدل أتم الفضائل وأشبه بالوحدة، إن كل زيادة أو نقصان عند مسكويه يفسدان الشيء، على أن الاعتدال هو الذي يحفظ ذلك الشيء، وحدته ويزيل رذيلة التفاوت والاضطراب.

إن الوحدة — برأي مسكويه — هي التي لها الشرف الأعلى والرتبة القصوى، إن كل كثرة لا ينظمها معنى توحدها، لا قوام بها ولا ثبات، الزيادة والنقصان، والكثرة والقلة، هي التي تفسد الأشياء، إذا لم يكن بينها تناسب يحفظ عليها الاعتدال بوجه ما،إن الاعتدال الذي يرد عليها ظل الوحدة ومعناها، هو الذي يلبسها الوحدة، ويزيل عنها رذيلة الكثرة ورذيلة النقصان، إن الاعتدال يمد ويضبط بالمساواة، التي هي حليفة الوحدة في جميع الكثرات.

يجد أرسطو الظالم أنه الذي يتحدى حدود القوانين، والعادل هو الذي يطيع القوانين، والذي يلاحظ قواعد المساواة، ينتج من ذلك، أن العمل العادل يطابق القانون والمساواة، أما العمل الظالم فهو اللاقانوني وغير المطابق للمساواة.

يذهب أرسطو أكثر من ذلك، فيقول كما أن الظالم هو الذي يطلب أكثر مما له، فالظالم الذي يقبل الظلم بأخذ نصيب أقل مما ينبغي، إن الظالم هنا يأتي بمعنى انتهاك المساواة، إذ يتعدى حدود القوانين، إن من المعروف أن غرض القوانين هو حماية المصلحة العامة لجميع الأهالي، إن القوانين بوجه ما عادلة إذا كانت توجد سعادة الاجتماع السياسي أو تحميها.

إن القانون بعامة يبسط سلطانه على جميع الفضائل والرذائل، إنه يأمر بأفعال بعينها، وينهى عن أفعال بعينها، القانون يأمر بأفعال الشجاعة فلا يلقى رجل سلاحه في وقت المعركة أو يهرب من الساحة، القانون يأمر بأفعال الحكمة والاعتدال، كالنهي عن الأضرار بالغير، والنهي عن الضرب والشتم.

يعرف مسكويه الظالم بعامة، أنه الذي يتجاوز القانون والذي لا يعطي للمستحقين حقوقهم على أن الرجل العادل هو الذي يطيع القوانين ويلتزم قواعد المساواة في معاملاته مع الآخرين النتيجة تكون أن العدل ما طابق القانون والمساواة أما الظلم فهو ما ليس بقانوني ومجاف للمساواة، في الوقت نفسه، يمكن عد الرجل الشرة، الذي يطلب أكثر مماله بأنه رجل ظالم أيضاً.

أرسطو يعرف الظالم، الشخص الذي يتعدى حدود القوانين، والشخص الشرة والذي يحظى الاغيار بنصيب ناقص، العادل هو الذي يطيع القوانين، ويعامل الآخرين بالمساواة، العمل العادل إذن هو الذي يطابق القانون والمساواة، والعمل الظالم هو اللاقانوني وغير المطابق للمساواة.

يضع أرسطو الشدة تحت طائلة الظلم، لأنه يطلب أكثر مما له، فهو إذن ظالم، الشدة بحث لنفسه أكثر مما يستحق وهو أيضاً ينتهك حرمة المساواة فهو باغ، لأن البغي عام يتناول أيضاً هذا المعنى من المعاني الظلم، انه فوق ذلك يتعدى حدود

القوانين، أنا لشدة يتجاوز حدوده المساواة وأن التعدي على المساواة يشمل جميع الأفعال الظالمة.

يبني أرسطو على تقديره السابق، أن الذي يلتزم جوانب القوانين عادل، أما الذي يتجاوزها فهو ظالم، أن الأمور القانونية نفسها عادلة، لأن أهداف القوانين إما أن تكون لحماية مصالح الشعب بأجمعه وحماية مصلحة الأقلية التي تشكل سادة المملكة.

يصل أرسطو بعد هذا مستنتجاً مما سبق، أن القوانين تكون عادلة إذا وجدت السعادة لأعضاء الدولة، وتحمي هذه السعادة أو على الأقل، توجد بعض عناصر هذه السعادة وتحميها.

العادل الحقيقي عند مسكويه، الذي يعدل في أفعاله وأحواله، فلا يزيد بعضها على بعض، أنه يقصد بذلك فضيلة العدالة، إذ ليس بعادل ذلك الذي يعدل في بعض الأمور، حتى يصل عن طريق ذلك إلى جاه أو مال، أو يحقق رغبة من الرغبات أو ينال شهوة من الشهوات.

يرى أرسطو أن العدل فضيلة تامة، على أن هذه الفضيلة مرتبطة بالآخرين، هذا السبب يجعل العدل أهم الفضائل، إن كثيراً من الناس يستطيعون أن يكونوا فضلاء، في ما يتعلق بهم شخصياً، غير أنهم ليسوا أهلاً لفضيلة ما يتعلق بالآخرين.

من هنا يأتي أرسطو بالمقولة (السلطان محك الإنسان)، يعني أرسطو بذلك، أن الإنسان إذا ما تمنى من سلطة ما تظهر مدى عدالته من جراء تعامله مع الآخرين.

على ذكر السلطة والسلطان فإن مسكويه يقول، إن الملك الفاضل من بسط العدل وأوسع العمارة، ووفر للناس ما يؤمن مصالحهم ومعاشهم، ومنع من التظالم، إنه في هذه الحالة قد أحسن إلى كل واحد منهم.

يطلب مسكويه من الرعية مقابلة الملك بالإخلاص والدعاء ونشر المحاسن وجميل الشكر وبذل الطاعة وترك المخالفة في السر والعلانية، والمحبة الصادقة، وإتمام سيرته بنحو استطاعته والاقتداء به في تدبير منزله وأهله وولده وعشيرته، يذهب مسكويه بعد ذلك إلى القول أن نسبة الملك إلى مدينته ورعيته كنسبة صاحب المنزل إلى منزله وأهله، أن من لم يقابل ذلك الإحسان بهذه الطاعة والمحبة فقد جار وظلم.

يرى مسكويه، أن مقابلة كل نعمة إنما تكون بحسب منزلتها وموقعها، وبقدر فائدتها وعائدتها، وعلى مقدار عددها إذا كانت النعم كثيرة العدد وعظيمة الموقع، فكيف يكون حال من لا يلتزم لها حقاً، ولا يرى عليها مقابلة بطاعة ولا شكر ولا محبة صادقة ولا مسعاة صالحة.

إنه ليس من السهل أن يكون الإنسان متمثلاً بفضيلة العدل، إلا إذا كان قد وصل إلى درجة كبيرة من الفضيلة بل يغدو هو الفضيلة كل الفضيلة في الوقت نفسه، فإن الظلم هو ضد العدل، الظلم ليس جزء من الرذيلة بل هو الرذيلة كلها.

يمكننا أن نقول إذن، العادل هو القانوني والمنصف، أما الظالم فهو غير القانوني والمضاد لقواعد العدالة إن من طبع الظلم هو عدم المساواة، وما دام الظالم هو غير المساوي، فينتج منه أنه يجب أن يكون هناك وسط لغير المساوي، وهذا الوسط هو المساواة، وهكذا نرى أنه إذا كان الظالم هو غير المساوي، فالعادل هو المساوي وإذا كان المساوي وسطاً، فالعادل يجب أن يكون وسطاً.

يرى أرسطو أن العدل من بين جميع الفضائل يرجع على الآخرين، لذلك فهو يرى أن شر الناس، هو الذي يضر نفسه، وفي الوقت ذاته فإنه يضر الآخرين أيضاً، أما الرجل الكامل فهو الذي لا يستخدم فضيلته لنفسه فقط بل هو يستخدمها لغيره أيضاً أنه عمل – من دون شك – غاية في المشقة، لذلك فإن العدل فضيلة والظلم رذيلة.

أما عن الفرق أو التمييز بين العدل والفضيلة، فإن الفضيلة هي ما دامت متعلقة بالشخص نفسه، وإذا كانت الفضيلة متعلقة بالخير، فهي العدل عينه.

يرى مسكويه أن سبب تشبيه العدالة بالوحدة، لأن الوحدة لها الشرف الأعلى والرتبة القصوى، إن كل كثرة لا ينظمها معنى توحدها، لا قوام لها ولا ثبات، إن المساواة إذا تحققت تحفظ تناسب العدالة على أحسن وجه.

إن أرسطو الذي عد العدل فضيلة، فهو من وجهه نظر أخرى، يراه جزء من الفضيلة، أنه في الوقت ذاته يعد الظلم جزء من رذيلة، أن الذي يقترف الشرور بجميع أنواعها ظالم، كما أن الرجل الشره، على الرغم من أنه يؤذي نفسه وقد يؤذي إنساناً أخر، فهو ظالم، لأنه بهذا الشره قد خالف فضيلة العدالة، ينطبق القول أيضاً على الرجل الذي يجبن في الحرب وقت اللقاء، أو الذي يسعى بنميمة بين رجلين، أو الرجل الذي يربح بطريقة جائرة.

إن مخالفة القانون في رأي أرسطو ظلم، وقد يكون المرء ظالماً من غير أن يكون مخالفاً للقانون، إن من يقترف رذيلة الزنا – مثلاً – فهو ظالم بفعلته، سواء أكان يقصد من عمله هذا، أن يكسب مالاً أم ينال شهوة.

رغم أن كثيراً من الرذائل التي يعدها أرسطو نوعاً من الظلم، يمكن أن نلحقها برذائل خاصة معينة، الرجل الزاني مثلاً، يمكن أن نعد رذيلته فجوراً، والذي يهرب أثناء الحرب، تكون رذيلته جبناً، وإذا ضرب أحداً ألحقت بالغضب.

يمكننا أن نعد الرجل الذي يربح ربحاً جائراً، أنه قد ارتكب رذيلة الظلم، فهو إذن ظالم، كما يمكننا أن ندرج جميع اللذات التي تنتج عن طريق الربح الظالم ظلماً، أما العدل فهو يكون على خلاف ذلك، إذ أن الرجل الفاضل يتميز بأنه عادل.

وكما عد أرسطو الرجل الظالم أنه غير القانوني، فالعادل يدعو إلى عمل الفضيلة، ويحذر من اقتراف الرذيلة، يلزم أرسطو القانون ببث مبادئ التربية الصالحة في النشئ الجديد، لتجعل رجال المستقبل أخياراً أفاضل.

لا بد أن أشير، إلى أن أرسطو يعتقد أن من العدل توزيع الثروة على جميع أبناء المدينة، إن من الضروري توزيع الثروة والإمكانات الأخرى بين أعضاء المدينة، على الرغم من أنه يرى مع ذلك، قد تقع المساواة الكاملة من جراء هذا التوزيع أو ربما لا تكون المساواة كاملة.

أما مسكويه فيرى أن نسبة المساواة عزيزة لأنها نظيرة الوحدة، إن العدالة الخارجة عنا، موجودة في ثلاثة مواضع:

احدها: في قسمة الأموال والكرامات.

والثاني: في قسمة المعاملات الإرادية كالبيع والشراء.

والثالث: في قسمة الأشياء التي وقع فيها ظلم وتعد.

ينتقل أرسطو بعد هذا، إلى ميزة الرجل العادل في الهيأة الاجتماعية، فيقول أن العادل يجب أن يتبع دائماً التناسب في تقسيم الثروة الاجتماعية، على نسبة ما بين الانصباء، التي يدخل فيها كل أحد، أما الظالم، فهو الذي يكون معناداً لهذا التناسب، إن العادل من يحقق المساواة أما الظالم فهو نوع من عدم المساواة إن المساواة إذن هي الوسط أو الذي يحقق الوسط.

إن مهمة العادل في رأي مسكويه أن يساوي بين الأشياء غير المتساوية مثال ذلك أن النمط إذا قسم إلى قسمين غير متساويين، نقص من الزائد وزاد على الناقص حتى يجعل له التساوي ويذهب عنه معنى القلة والكثرة، ومعنى الزيادة والنقصان، على العادل إذن أن يكون بطبيعة الوسط، حث الطرفين إليه مثال ذلك! الربح والخسارة

فإنهما في باب المعاملات طرفان، أحدهما زيادة والآخر نقصان فإذا أخذ أقل ما يجب صار إلى جانب النقصان، وأن أخذ أكثر مما يجب كان خارجاً إلى جانب الزيادة.

لا بأس أن اذكر، أن مسكويه يرجع دائماً إلى الشريعة في كتاباته الأخلاقية، الشريعة عنده طبعاً هي الشريعة الإسلامية التي ترسم في كل واحد منا هذه الأشياء: التوسط والاعتدال، إن الناس هم مدينون بالطبع، ولا يتم فهم عيش إلا بالتعاون، بعضهم يجب أن يخدم بعضهم الآخر، فيأخذ بعضهم من بعض، ويعطي بعضهم بعضاً، إنهم طبعاً يأخذون المكافأة على المناسبة، إذا أخذ الاسكافي من النجار عمله وأعطاه عمله فهو المعارضة، إذا كان العملان متساويين، مع ذلك فلا يمنع مانع من أن يكون عمل الواحد خيراً من عمل الآخر، فيكون الدينار هو المقوم والمساوي بينهما.

الدينار عند مسكويه، عدل ولكنه ساكت، إن الإنسان الناطق هو الذي يستعمله ويقيم به جميع الأمور التي تكون بالمعاملات حتى تجرى به جميع الأمور التي فيها المعاملات حتى تجري على استقامة ونظام ومناسبة صحيحة عادلة لذلك يستعان بالحاكم هو عدل ناطق، إذا لم يستقم الأمر بين الفهمين بالدينار، الذي هو عدل ساكت.

لا يفوتني أن أذكر، بأن أفلاطون قد ذكر في كتاب الجمهورية (ك٢ - المدينة السعيدة) أن الثروة هي ملك للدولة، إن هذا يعني بوضوح، أن المال العام هو ملك الشعب وليس ملكاً لشخص واحد فقط.

إن من طبيعة العمل الفكري، أن أرسطو قد أطلع على آراء أستاذة وتأثر بها، إن هذا شيء طبيعي لا يتحاج إلى برهان، ولا سيما علاقة أرسطو بأستاذة أفلاطون طالباً وقارئاً لآثاره الفلسفية، ومحللاً أو ناقداً لها وشارحاً.

المهم في هذا الشأن أن الظلم عند أرسطو هو عكس المساواة، الظالم إذن في نظر أرسطو هو الشخص غير المساوي، لابد إنني قد ذكرت أن الوسط عند أرسطو هو الاعتدال، أو بالأحرى أن الوسط فضيلة، على هذا الأساس، يكون الوسط في هذه المسألة هي المساواة، إذا كان الظالم غير مساوٍ، فالعادل هو المساوي، فالعادل إذن وسط بين حدين.

يقاس العادل كذلك، نسبياً بالنسبة للطرف الآخر، إن الديمقراطيين يعنون العدل بالاستحقاق في الحرية، والأغنياء يضعونه في الثروة، والارستقراطيين في الفضيلة، العادل إذن هو وسط يخضع للتناسب، لأن التناسب هو وسط العدل، إن الظالم هو ضد التناسب لأنه يستولي على أكثر مما ينبغي وأكثر مما يستحق، غير أن الذي يقع عليه الظلم يأخذ أقل مما ينبغي وأقل مما يستحق.

أما العدل القانوني عند أرسطو، فهو الذي يسيطر على العلاقات بين الأفراد، فيما يخص توزيع الثروة مثلاً، التي تأتي عن طريق الموارد العامة للبلد، يجب على العادل أن يقسم بالتناسب هذه الخيرات العامة، سواء أكانت هذه الخيرات تخفى الأموال، أو توزيع الأشغال للجميع بالتساوي.

إن العادل في القضايا المدنية، هو أيضاً نوع من المساواة، والظالم من لا يحقق المساواة، لا يهم أمام العادل، أن يرى رجلاً نابهاً جرد رجلاً غير نابه من أمواله، أو في الجرائم، فيما إذا ارتكب الزنا رجل نابه أم غير نابه، رجل العدل في هذه الحالة ما يطبق القانون على الجميع، آخذاً بعين الاعتبار وجهة نظر المساواة للجميع أمام القانون، أو أمام رجل العدل أو أمام الرجل العادل.

ينظر أرسطو إلى العدل في توزيع الثروة، نظرة تلفت النظر، وكأنه اشتراكي عريق، أرسطو يوحي بالعدل التوزيعي للكرامات والثروة، وسائر المزايا التي يمكن أن

تقسم بين أعضاء المدينة، مع هذا يستدرك أرسطو ويقول يمكن أن تتم المساواة، ومن الممكن أن يقع عدم المساواة.

يضيف أرسطو إلى العدل في توزيع الثروة، ترتيب القبول القانونية للعلاقات القانونية، كالعقود في البيع والشراء والكفالة والإجارة والوديعة والاستصناع.

كما يشير إلى العلاقات اللارادية، كالتي تقع على غير علم منا، كالسرقة والزنى والتسميم ورشوة الخدم واختلاس العبيد والقتل بالمفاجأة وشهادة الزور.

ومنها ما يقع بالقوة الظاهرة، كسوء المعاملات الشخصية، وحبس الناس بغير حق، والسلاسل التي يعتد بها، والموت والخطف والجروح التي تخلف العاهات، والأقوال التي تجرح، والسب المحرض.

يواصل أرسطو في آرائه الاشتراكية، حين يوجب على العادل أن يتبع التناسب في توزيع الموارد العامة على الجميع إذا كان الأمر بصدد تقسيم الثروات الاجتماعية، لزم أن يقع التناسب بالضبط على نسبة ما بين الانصباء التي يدخل بها كل أحد، العادل إذن في هذه القضية المدنية هو أيضاً نوع من المساواة.

لا ينسى أرسطو أن يضرب المثل بالضد أيضاً، أن الظالم هو مقابل للعادل، فهو الذي يكون مضاداً للتناسب، الظالم إذن نوع من عدم المساواة.

العادل إذن هو الوسط، بين ربح ما وخسارة ما، في العلاقات التي ليست إرادية أنه ينحصر في أن يكون لكل واحد نصيبه المساوي في كل وقت من الأوقات وفي كل حالة من الحالات.

في مثل هذه الأحوال على رجل القضاء أن يأخذ بعين الاعتبار، أن ظلماً قد وقع وأحدث عدم مساواة، ما عليه إذن إلا أن يوازن ويساوي بأنه يعيد الأموال إلى صاحبها

بعد أن يأخذها من الذي أخذها بغير استحقاق، كما يجب عليه أن يوقع الجزاء على الذي اعتدى، ويعوض خسارة الذي اعتدى عليه.

مع كل هذا، لا ينسها أرسطو العدالة وتحقيق المساواة في هذه الأمور، بحيث لا ينقلب الوضع فيصبح من خسر رابحاً ولا الرابح خسراناً، بل تحقيق العدل ورفع الظلم بتحقيق الوسط، وعدم الانجراف عن العدالة في تقدير الأمور.

على العادل أن يوازن دائماً في أمر الربح والخسارة، بحيث يحقق المساوي ويتجنب عدم المساواة، لهذا يلتجئ الناس إلى رجل القضاء، وقت وقوع الخصومات فيما بينهم، القاضي هنا أو رجل العدل، هو الذي يحقق الوسط القويم.

القاضي إذن هو وسط واعتدال ما دام مصلحاً بين اثنين، ليحقق بينهما التساوي، بحيث لا يؤول لأحد الخصمين أكثر مما يستحق، ولا يؤخذ من الطرف الآخر أكثر مما عليه.

القاضي إذن في هذه الحالة، وسط وعدل وهو مساوٍ أيضاً ما دام يتبع طريقة حسابية ويوازن بين من أخذ نصيباً أكبر، والذي أخذ نصيباً أصغر، العادل إذن هو وسط يوازن بين ربح وخسارة في العلاقات الإنسانية، ويحقق المساواة ليأخذ كل نصيبه الذي يستحقه.

أما مسكويه فهو عندما يتحدث عن العلاقة بين العدل والمساواة، فإن العدل عنده مشتق من معنى المساواة، إن العدالة يجب أن تكون في قسمة الأموال والكرامات، كما أنها تكون في قسمة المعاملات الإرادية كالبيع والشراء والمعاوضات وكذلك في قسمة الأشياء التي وقع فيها ظلم.

في قسمة الأموال والكرامات، تكون نسبة هذا الإنسان إلى هذه الكرامة أو إلى هذا المال، كنسبة كل من كان في مثل مرتبته إلى مثل قسطه، أما في المعاملات فيقول

مسكويه نسبة هذا البذان إلى هذا الاسكاف، كنسبة هذا الثوب إلى هذا الخف، بعد هذا لا يمنع مانع أن نقول، أن نسبة البذان إلى الاسكاف، كنسبة الاسكاف إلى النجار.

أما العدالة التي تقع في المظالم، فإذا ألحق إنسان ضرراً بآخر، فإن العدالة توجب أن يلحق به ضرر مثله، ليعود التناسب إلى ما كان عليه، العادل إذن من شأنه أن يساوي بين الأشياء غير المتساوية.

يوجب مسكويه على العادل أن يكون عالماً بطبيعة الوسط حتى يرد الطرفين إليه، مثال ذلك: الربح والخسران، فإنهما في باب المعاملات طرفان، أحدهما: زيادة والآخر نقصان، إن أخذ أقل مما يجب صار إلى جانب النقصان وأن أخذ أكثر مما يجب كان خارجاً إلى جانب الزيادة.

ويرجع مسكويه مصدره كالعادة إلى الشريعة، فيقول أن الشريعة هي التي ترسم في كل واحد من هذه الأشياء التوسط والاعتدال إن التعاون في الحياة يجعل الناس يخدم بعضهم بعضاً، فيطلبون المكافأة من بعض، ويأخذون المعاوضة بصورة متساوية.

يذهب مسكويه في الرأي، إلى أن المتمسك بالشريعة، يعمل بالمساواة ويكتسب الخير والسعادة عن طريق العدالة، وذلك لأن الشريعة من عند الله تعالى عز وجل، فهي تأمر بالأشياء المحمودة، أن الشريعة في الوقت نفسه، تحذر من الرداءات وتأمرنا باجتناب الرذائل، وباختصار فإن العادل يستعمل العدالة مع نفسه ومع إخوانه في المجتمع، والجائر يستعمل الجور مع نفسه ومع الآخرين.

أود أن أشير إلى لفتة رائعة يلتفت إليه أرسطو إلى رأي مهم من آراء المدرسة الفيتاغورية، يرد أرسطو على الفيتاغوريين، الذين يرون أن القصاص (المثل بالمثل) عدل ووسط، لأنهم يرون أن العدل في أن يرد الإنسان ما أخذه إلى الآخر.

أرسطو لا يرضى بهذا العدل، إذ يراه قاصراً، فمثلاً إذا ضرب رجل قاضياً فهل العدل أن يضرب القاضي الرجل فقط؟ أن العدل يأخذ مجراه — في رأي أرسطو — بأن يعاقب مثل هذا الرجل أيضاً لا بأس أيضاً، أن يؤخذ بنظر الاعتبار، هل أن مثل هذه الجريمة قد وقعت عمداً أو خطأ.

ومع أن أرسطو ما يرى أن أهل المدينة يتداولون في معاملاتهم اليومية، مثل هذا العدل إلا أنه يرى أيضاً أن رابطة الاجتماع في الدولة لا تقوم إلى على تناسب تبادل المنافع فإن الفرد يحصل من خلال علاقاته في الجمعية الاجتماعية عواما بتبادل المنافع، أي مقابلة الخير بالخير أو دفع الشر بالشر.

يرى مسكويه أن الناس مدينون بالطبع، ولا يتم لهم عيش إلا بالتعاون لابد إذن أن يخدم بعضهم بعضاً، فيأخذ كل واحد بمقدار ويعطي بمقدار، وإذا كان هناك خلاف في مسألة ما، يستعان بالحاكم لأن المفروض به أن يكون هو العدل الذي ينطق بالقول الفصل.

يذهب مسكويه أن العدل المدني هو الذي عمر المدن، أما الجور المدني فهو الذي يخرب المدن، أن عملاً مدنياً يسيراً قد يساوي عملاً كثيراً، مثال ذلك، أن المهندس ينظر نظراً قليلاً ويعمل عملاً يسيراً غير أن نظرة هذا يساوي عملاً كثيراً، إذا ما قسناه إلى أقوم كثيرين يطعون بين يديه ويعملون بما يوجهه ويرسمه.

يعطي مسكويه مثالاً آخر،" هو قائد الجيش، الذي يكون تدبيره ونظره يسيراً لكنه يساوي أعمالاً كثيرة ممن يحاربون بين يديه، ويعملون الأعمال الثقيلة العظيمة.

إن الإمام العادل الحاكم، هو الذي يحفظ المساواة، أنه لا يعطي ذاته من الخيرات أكثر مما يعطي غيره، وهكذا قيل أن الخلافة تطهر، الإنسان يذهب مسكويه في الرأي، إلى أن العامة تؤهل لمرتبة الإمامة، يضيف مسكويه قائلاً، أن بعضهم يرى أن الذي

يستحق الخلافة من كان شريفاً في حسبه ونسبه، وبعضهم يؤهل لذلك من كان كثير المال، أما العقلاء فإنهم يؤهلون للخلافة من كان حكيماً فاضلاً لأن الحكمة والفضيلة، هما اللتان تعطيان الرئاسات والسيادات، جوهر الحقيقة والحكمة والفضيلة والعدل وبعد النظر.

يعتقد أرسطو، أن المجتمع الذي لا يستطيع دفع الشر عن أحد أفراده، هو استبعاد لا يطاق لأن أساس قيام الجماعة، هو تبادل المنفعة بين الأفراد، نلاحظ أن في أصغر أحياء المدينة يتبادل الناس المعروف والاعتراف بالجميل، لينال كل منهم المنفعة، وليشعر الآخرين باللطف الذي أولوه إياه.

مع هذا، يوجب أرسطو أن تبقى المساواة التناسبية هدف المجتمع، إذا بنى المعمار للاسكافي داراً، وأصلح الاسكافي حذاء المعمار، فلا مساواة إذا كان صنيع أحدهما يساوي أكثر من صنيع الآخر، في مثل هذه الحالة، يجب إرجاع الحالة إلى المساواة.

المعاملة تكون سهلة بين رجلين يعملان في فن واحد، كطبيبين مثلاً أو مزارعين، لكن صعوبة المعاملة تكون بين طبيب ومزارع، لهذا يجب النظر في الأمر من وجهة نظر تحقيق المساواة.

يضيف مسكويه شرف المحبة على الناس في تعاملهم وتناصفهم مع بعضهم، أنهم إذا كانوا على هذه الحالة لا يقع بينهم خلاف، أن الصديق يحب صديقه ويريد له ما يريد لنفسه، أن الثقة والتعاضد والتعاون تقوم بين الأناس المتحابين، إنهم إذا جمعتهم المحبة وتعاضدها وصلوا إلى جميع المحبوبات ولم تتعذر عليهم المطالب مهما كانت صعبة عسيرة، إنهم في حالتهم هذه تتعاون عقولهم، فينشؤن الآراء الصائبة على استخراج الغوامض بفصل التدابير القويمة، إنهم يتفقون وتشتد عزائمهم بفعل التعاون والتآزر والتعاضد، إن مثلهم مثل شخص واحد يريد تحريك ثقل عظيم فلا

يطيق، ولكن في التعاون يسهل تحريك كل الأثقال، وهكذا فإن أشرف غايات أهل المدينة، التجاوب والتعاون والتواصي، ليسهل عليهم كل شأن من شؤون الحياة، ويتغلبوا على كل الصعوبات.

حين يشير أرسطو إلى أن أحدهم، قد يقترف الزنا أو يسرق، فإن أرسطو لا يعد هذا ظالماً بالمعنى الظلم الجنائي يضيف أرسطو أن هذا الاثم لا يعد جناية ما لم تصبح عنده هذه الرذيلة عادة يبدو لي أن قرار أرسطو هذا يعتمد على وجهة نظره في أن الفضيلة عادة ومران وممارسة.

يربط أرسطو العدل بالقانون برابطة متينة، حين لا يكون هناك عدل إلا حيث يوجد قانون، يفصل بين الناس أما العدل الاجتماعي فيكون حين يكون التكافل الاجتماعي حين يأمن الناس على أموالهم.

من هذا المنطلق فليس لنا أن نسند السلطة إلى شخص بل إلى العقل، أن الإنسان كشخص لا تهمه إلا مصلحته والعمل من أجل جمع الأموال لنفسه فقط، أن الشخص في سبيل ذلك، لا تتأخر أن يتحول إلى ظالم غاشم، أن حارس العدل الذي هو القاضي يعمل من أجل المساواة، ولا يخطر بباله أن يكتنز المال لنفسه، لهذا السبب فإن العدل نعمة، للفرد والمجتمع على السواء، لعل خير ما يناله القاضي العادل من مكافأة هو الشرف والنبل والسمعة الحسنة والسجل الناصع.

مسكويه يعتقد أن التفضل إنما يكون في العدالة، التي تخفى الإنسان في نفسه، أي تسوية المعاملة أولاً فيما بينه وبين غيره ثم الاستظهار فيه والاحتياط عليه، بما يكون تفضلاً ولو كان حاكماً بين قوم ولا نصيب له في تلك الحكومة لم يجز له التفضل، ولم يسعه إلا العدل المحض والتسوية الصحيحة، بلا زيادة ولا نقصان، لقد تبين أيضاً أن الهيئة التي تصدر عنها الأفعال العادلة متى نسبت إلى صاحبها سميت

فضيلة، ومتى نسبت إلى من يعامله بها سميت عدالة، وإذا اعتبرت بذاتها سميت ملكة نفسانية، أن استعمال المرء العاقل، العدل على نفسه أول ما يلزمه ويجب عليه.

ويلتفت أرسطو التفاته أخرى، إذ يلاحظ أن علاقة الأب بالابن تختلف في الحقوق عما ذكرناه أعلاه، أرسطو يرى أن الابن ملك أبيه إلى سن معينة ليس هناك ظلم في الأمر، بل أن الظلم يقع في التنظيم السياسي أن العادل يأتي بنص القانون، ويحكم الناس بحكم القانون، ولذا وجبت عليه مساواتهم والنظر إليهم نظرة واحدة بحسب ما يمليه القانون هذا النوع من العدل، ينطبق على علاقة الزوج بزوجته، أكثر من انطباقه على علاقة الوالد بولده.

العقل عند مسكويه هو السائس الأول، وأن الأشياء كلها يزول عنها سوء النظام إذا ساسها العقل، أن إصلاح الأخلاق مبني على سياسة العقل، أن الإنسان إذا تم له سياسة العقل، يعدل على نفسه ثم يلزمه ذلك أن يعدل على أصدقائه وأهله وعشيرته بعد ذلك فإنه ملزم أن يستعمل ذلك في الأباعد من الناس، يذهب مسكويه أكثر من ذلك، فيقول أنه ملزم باستعمال سياسة العقل في سائر الحيوان أيضاً.

يعقب مسكويه، فيقول إذا صح ذلك وظهر ظهوراً حسناً، فقد ظهر بظهوره أن شر الناس من جار على نفسه ثم على أصدقائه وعشيرته، ثم على كافة الناس والحيوان، أن العلم بأحد الضديين هو العلم بالضد الآخر، فخير الناس العادل، وشرهم الجائر.

يميز أرسطو بين ما هو طبيعي وما هو قانوني في العدل المدني وفي القانون السياسي، أن الطبيعي له قوته حيثما كان، عكس القانون الذي يصدره الناس، القانون الطبيعي قوته كقوة النار، التي لها القابلية أن تحرق في كل مكان وزمان، لكن القوانين الإنسانية تخضع للتغير.

مع ذلك فإن أرسطو يستدرك فيقول أن الرأي السابق ليس صحيحاً كامل الصحة بل فيه صحة جزئية، إذا ما قرننا أن كل شيء متغير، وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن اليد اليمنى هي التي نعمل بها أكثر من اليسرى، مع هذا، فإن كثير من الناس يعملون بأيديهم اليسرى، أو ما نطلق عليهم بمصطلح: الأعسر.

المعروف عن سقراط أنه أولى الإنسان كل أهمية وقال أن الطبيعة ثابتة في كل مكان، وأخلاق الناس هي التي تتغير، من مكان لآخر ومن زمان إلى زمان.

يرد أرسطو على فكرة سقراط حيث يقول: أن بعض الناس (يقصد سقراط وأفلاطون) من يرى أن النار تحرق في بلادنا، كما أنها تحرق في أي مكان آخر، سواء بسواء في حين أن القوانين الإنسانية والحقوق التي تقررها، هي في متغير مستمر.

يعلق أرسطو قائلاً: أن هذا الرأي ليس صحيحاً كامل الصحة بالضبط، ولكنه مع ذلك صحيح بجزئه، أرسطو مثلاً يقول أن بعض العادات الإنسانية ثابتة بالجوهر متغير بالعرض.

أما عن الأشياء الطبيعية، فيقول أن مكاييل النبيذ والحنطة ليست متساوية الأحجام في كل مكان، ثم يضيف بمثل أقرب للغرابة، حين يقول، أن المكاييل تكون أكبر حين يشترى بها، وتكون أصغر حين يباع بها.

الحقوق الإنسانية ليست متماثلة أيضاً في كل مكان، هناك فرق أيضاً، بين الظالم بالطبع والظالم بنص قانوني، أو العادل المطلق والعادل بنص قانوني، الظالم المطلق ما هو ظالم بالطبع أو يصير ظالماً بحسب نص القانون إذا ارتكب الظلم، فهو ظالم قانوناً، أما قبل أن يرتكب الظلم، فهو ظالم بذاته الشيء نفسه يصدق أيضاً على العادل.

يؤمن أرسطو بأن عمل الخير والشر إراديان، الإنسان يأتي الخير بإرادته، كما أنه يعمل الشر بإرادته أيضاً، من الإنسان إذا فعل الشيء بلا إرادة فهو ليس عادلاً، ولا ظالماً، الإنسان إذن، على هذا الأساس، يلام على فعل الظلم إذا كان فعله إرادياً، أما إذا كان فعل الظلم غير متعمد، فالأمر هنا تختلف.

الفعل الإرادي إذن هو الذي يجعل إنساناً يعمل العمل وهو عالم بما هو مقدم عليه أما إذا فعل الفعل وهو جاهل بما هو فاعل، فالفعل في هذه الحالة غير إرادي، كثيرة هي الأمور التي تجري مجرى الطبيعة، دون أن تستطيع لها رداً، رغم علمنا بوقوعها، مثل الهرم والموت.

العدالة والحرية — في رأي مسكويه — يشتركان في باب المعاملات في الأخذ والعطاء إلا أن العدالة في اكتساب المال أما الحرية فتقع في إنفاق المال، إن من شأن من يكتسب أن يأخذ، فهو بالمنفعل أشبه، ومن شأن المنفعل أن يعطي، فهو بالفاعل أشبه.

لهذا السبب يعتقد مسكويه أن محبة الناس للحر أشد من محبتهم للعادل، لكن مع ذلك، فإن نظام العالم بالعدالة أكثر منه بالحرية، إن الفضيلة مثلاً في فعل الخير لا في ترك الشر، ومحبة الناس تأتي في بذل المعروف لا في جمع المال.

الحر لا يكرم المال ولا يجمعه لذاته بل ليصرفه في وجوهه التي يكتسب فيها المحبات والمحامد، إن من خاصية الحر إلا يكون كثير المال لأنه منفاق، ولا يكون فقيراً لأنه كسوب من حيث ينبغي، أنه غير متكاسل عن كسب المال، لأنه بالمال يصل إلى فضيلة الحرية، أنه لا يشبع المال ولا يبذره، كما أنه في الوقت نفسه لا يشح ولا يقتر، ينتهي مسكويه في هذا الشأن مقرراً، أن كل حر عادل ولكن ليس كل عادل حراً.

إذا ارتكب إنسان عملاً أضر به إنساناً آخر عن عمد وبإرادته فهو ظالم ويحاسب كظالم، الشيء نفسه ينطبق على الرجل العادل، فهو عادل ما دام عمل عمله عن إرادة

وتصميم، العمل لا يكون عادلاً ما لم يصدر عن إرادة، إن الأعمال اللاإرادية منها من له العفو، والأخرى لا مكان لها للعفو، الخطيئة التي يقترفها المرء وهو جاهل بها، يمكن العفو عنها، أما الخطايا التي يفعلها المرء وهو عالم بها، بعد أن أعمته الشهوة، فهي جرائم لا تغتفر.

المعروف أن أفلاطون قال، إن الإنسان يعمل الفضيلة وهو عالم بها، أما الرذيلة عنده فليست إرادية، أما أرسطو فينتهي إلى القول أنه لا يوجد إنسان يقبل مختاراً أن يقع عليه الظلم، فيبدو إذن أن تحمل الظلم لا إرادي، غير أن الرجل الظالم الذي يظلم متعمداً هو فعل إرادي.

يتساءل أرسطو مع ذلك، هل يكون تحمل الظلم أو الانظلام، إرادياً مرة ومرة غير إرادي؟ كذلك الأمر مع العدل، الذي يتلقاه الإنسان من الغير، إذ على الرغم من أن فضيلة العدل دائماً إرادية لكن في كثير من الأحيان، يتلقى كثير من الناس من الآخرين، أفعالاً عادلة، دون أن يطلبوا منهم ذلك.

وهكذا فليس من الممكن أن يحتمل الإنسان ظلماً، من غير أن يكون هناك ظالم، ولا أن يكون هناك عدل، دون وجود عادل، يرى أرسطو أيضاً أن عديم الاعتدال هو ظالم لنفسه، نرى إذن على هذا الأساس أن الإنسان يمكن أن يظلم نفسه، احتمال آخر قائم، هو أن إنساناً يقع عليه الظلم مختاراً أيضاً بهذه الحالة فالظلم وقع على المظلوم بإرادته هو نفسه.

وهكذا يقرر أرسطو، أن من الصعوبة أن نعرف الظلم، ما لم نأخذ بعين الاعتبار ثلاثة أشياء: على من يقع الظلم والطريقة التي وقع فيها، وكيفية وقوع الظلم هذا إضافة إلى اعتبار رابع، هو أن الرجل الذي عمل الظلم، قد فعل ذلك ضد إرادة من وقع عليه الظلم.

مع كل هذا، فلا يوجد شخص يريد أن يوقع الضرر لنفسه، أو يتحمل الظلم مختاراً، حتى الرجل غير المعتدل، فإنه يغير نفسه، أو ربما يظلمها، لكنه مع هذا، يظن أنه يعمل لنفسه خيراً، أو أنه يعتقد أنه يعمل العمل الذي ينبغي عليه أن يعمله.

النتيجة التي ينتهي إليها أرسطو، أنه لا يوجد إنسان قط، يقبل الظلم بإرادته.

يتساءل أرسطو بعدها عن الرجل المخطئ، هل هو الذي يعطي إلى آخر أكثر مما يستحق، أو الذي يأخذ أكثر مما يحق له أن يأخذ؟ كذلك يجب أن نعرف، فيما إذا كان الإنسان يسيء إلى نفسه؟

الحقيقة على الرغم من أن الإنسان الذي يأخذ أكثر مما يستحق، أو أكثر مما يحق له أن يأخذ فهو ظالم للآخرين، ومع أن الإنسان الشريف يميل إلى أن يقلل من نصيبه، ويحاول إلا يظلم الآخرين ولا يظلم نفسه، لكن الأمر ليس من البساطة، أن يرفض إنسان شيئاً ينال من ورائه شرفاً ومجداً.

ننتهي إذن إلى أن المخطئ الأول، هو الذي يقسم وتكون قسمته جائرة، فهو الظالم الحقيقي، ينتبه أرسطو إلى أن الذي يقسم، ربما كان خادماً أو مأموراً، فليست يده إذن ظالمة، عندما قسم، المسؤولية الحقيقية تقع على الأمر الذي يأمر، فهو إذن الظالم الحقيقي.

يقول مسكويه، إذا عدل إنسان في بعض الأمور مراعاة، ليصل به إلى كرامة أو مال أو غير ذلك من الشهوات، فهو ليس عادلاً، إنه يعمل أعمال العدل للغرض الذي يقصده، أما العادل بالحقيقة، فهو الذي يعدل قواه وأفعاله وأحواله كلها حتى لا يزيد بعضها على بعض، ثم يروم فيما هو خارج عنه من المعاملات والكرامات، ويقصد في جميع ذلك فضيلة العدالة نفسها، لأغراضاً آخر سواها.

المضرات عند مسكويه أربعة أنواع:

أحدهما الشهوة ويتبعها الرداءة.

والثاني: الشرارة ويتبعها الجور.

والثالث الخطأ ويتبعه الحزن.

والرابع الشقاء وتتبعه الحيرة وفيها مذلة وحزن؟

أما الشهوة فإنها تحمل الإنسان على الأضرار بغيره، وأن قوة الشهوة تحمله على ارتكاب ما يرتكب من معاص وموبقات، أما الشرير فإنه يعمد الأضرار بغيره على سبيل الالتذاذ به، أما الخطأ فإنه صاحبه لا يقصد الأضرار بغيره، بل يقصد فعلاً ما فيعرض منه فعل أخر، فيحزن ويكتئب جراء هذا الخطأ.

أما الشقاء فصاحبه لا يكون مبدأ فعله إليه، ولا له فيه صنع بالقصد، لكن يوقعه فيه سبب آخر من خارج، إن مثل هذا كمن تصدم دابته صديقاً له فيقتله، أو كمن يرمي بسهمه إلى صيد فيصيب ولده، هذا الشخص يسمى شقيه، وهو مرحوم معذور، لا يجب عليه عتب ولا عقوبة.

أما السكران والغضبان والغيران، فإنه فعلهم قبيح يستحقون عليه العقوبة السكران مختار إزالة العقل، والغضبان والغيران يهتاجان دون رؤية ولا تفكير.

إن القاضي الذي يحكم – خطأ – حكماً جائراً، في رأي أرسطو، على الرغم من انه أمام نص قانوني، فهو غير ظالم، إنه مع ذلك، مخطئ وآثم في نظر العدل المطلق، إن العدل الذي يقرره القانون غير العدل الذي يقرره القانون الأعلى إن القاضي الذي يحابي أحد الخصمين، ويصدر حكماً جائراً، فهو في هذه الحالة ظالم ومفرط في الظلم.

على الرغم من أن كثيراً من الناس يعتقدون أن العادل والظالم، يعرفان من خلال نصوص القانون، لكن أرسطو يقول أن نصوص القانون ما هي إلا أحكام العدل التي يجب تطبيقها، إن الصعوبة تكمن في أن يصل الإنسان إلى العدل من خلال تطبيقه لهذه القوانين.

يشبه أرسطو هذه الحالة، في أمر الصحة وتدبيرها، كيف يتسنى للطبيب، أن يعرف بالضبط أية نسبة من الدواء يعطي لكل حالة من حالات المرضى، أو متى يرجع إلى الكي أو البتر، وكيفية وسائل العلاج الناجع، وهي ما تلزمه أن يكون طبيباً.

يقرر أرسطو دائماً، أن تكون الفضيلة عادة وممارسة، وإلا فإن العادل يمكن أن ن ظالماً، فيمكنه – مثلاً – أن يسرق أو يزني أو يعتدي على الآخرين، الشجاع أيضاً ا يفر في وقت الحرب، إذا ما شعر أنه يقف في موقف محرج، المعفيف قد يخسره في ن الأحيان.

مسكويه يقرر أن السعادة تظهر في الأفعال من العدالة والشجاعة والعفة، وإلى ما ك من فضائل أخرى، هذه الأفعال قد تظهر فيمن هو ليس بسعيد ولا فاضل، ن الناس يعمل عمل العدول وهو ليس بعادل، ويعمل عمل الشجاعة وهو ليس اع، ويعمل عمل الإعفاء وهو ليس بعفيف.

مسكويه إذن يفرق بين فضائل حقيقية وفضائل زائفة، إن هناك من ترك ات من المآكل والمشارب وسائر اللذات التي ينهمك فيها غيره، انه ربما قد ينتظر أكثر مما يحضره، وأما لأنه يعرفها ولا يباشرها، كالقرويين الذين يبعدون عن ، وكالرعاة في البوادي وقلل الجبال، وأما لأنه ممتلئ مما هو موجوداً أمامه، وأما ، ضمود في شهوته، وأما لأنه استشعر خوفاً من تناولها أو مكروهاً يلحقه بسببها، أنه ممنوع منها.

إن هؤلاء كلهم يتصرفون تصرف الإعفاء، وهم ليسوا على الحقيقة إعفاء، إن الذي يسمى عفيفاً هو الذي يوفي العفة حقها، واختارها لنفسه لا لغرض آخر غيرها، أنه تمثلها لأنها فضيلة فحسب، ثم تناول كل حاجة بمقدار، دون إفراط ولا تفريط.

يعطي مسكويه مثلاً آخر، هو الذي يعمل عمل الشجعان وليس بشجاع، إنه يباشر الحروب ويركب الأهوال، ربما من أجل المال وبسبب رغبة أخرى، أن هذا يعمل عمل الشجعان، لمجرد، الرغبة في شيء،وليس بسبب فضيلة الشجاعة.

يذكر مسكويه أيضاً، جماعة الشطار الذين يعملون عمل الإعفاء وعمل الشجعان، وهم أبعد الناس عن كل فضيلة إنهم يعبرون عن الشهوات كلها، ويعبرون على عقوبات السلطان، من ضرب السياط وقطع الأعضاء، ويعبرون على الصلب وسهل العيون وقطع الأيدي والأرجل كل هذا من أجل الذكر والشهرة بين جماعتهم، كي يصفوهم أنهم شجعان وإعفاء لا غير.

بعض الناس يفتعلون الشجاعة خوفاً من لوم العشيرة أو الأقران أو عقوبة السلطان، منهم من يقدم على عمل الشجاعة، لأنه اتفق أن يغلب من ينازله بالعادة أو المصادفة، العشاق أيضاً تتمثل فيهم الشجاعة وركوب الأهوال في طلب الوصول إلى معشوقاتهم، أو مجرد أن يسمعن بأخبارهم، منهم من يتصنع الشجاعة من أجل الفجور أو للتمتع بمتعة طارئة.

لكل هذه الحالات التي يشير إليها مسكويه ليست شجاعة على الحقيقة وليست هي من الفضيلة في شيء، لا من قريب ولا من بعيد، أنها تمثل وتصنع ومحاكاة للشجاعة، وليست شجاعة على الحقيقة، الشجاعة الحقة ما يفعله الشجاعة على الحقيقة، وما يعرف عنه من فضيلة الشجاعة ما من غير طمع في مال ولا خوف من سلطان.

يتجاوز مسكويه الإنسان، ويضرب الأمثلة بالحيوان، إن شجاعة الأسد والفيل وأشباهما من الحيوان، فإنها تشبه الشجاعة وليست بشجاعة حقيقية، إن هذه الحيوانات قد وثقت بقوتها، وأدركت أن قوتها تفوق قوة غيرها من باقي صنوف الحيوان، أنها إذن تقدم أو تهجم، لا بطبيعة الشجاعة، بل بتمام القوة والقدرة وثقتها بنفسها أنها هي الغالبة يشبه مسكويه السبع المفترس إلى الحيوان الأضعف، كالرجل صاحب السلاح الذي يقدم أو يهجم على الأعزل من الناس.

أما الشجاع الحقيقي، فإنه الذي يتمثل الشجاعة الحقيقية كونها فضيلة، دون الأخذ بنظر الاعتبار أي شيء آخر، أن الشجاع يخاف من الأمر القبيح أشد من خوفه من الموت، أنه في الملمات أو المواقف الجدية الصعبة، يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة.

إن الشجاع شخص مبدئ، وتهمه جواهر الأشياء لا قشورها، أنه مهما لاقى من عنت وأذى فلا يهمه ذلك بقدر ما يتهمه عواقب الأمور إن السمعة الحسنة الطيبة التي يتمتع بها، تبقى معه طوال عمره، وقد يستمر ذكرها بعد وفاته أيضاً.

يعطف مسكويه — كعادته — إلى أمور الدين في كتاباته الأخلاقية، أن الشجاع عنده، الذي يستحق الذكر والمديح، هو الذي دافع وحامى عن دينه واعتقاداته الصحيحة، في وحدانية الله عز وجل، وعن الشريعة التي هي سياسة الله وسنته العادلة التي بها مصالح العباد في الدنيا والآخرة.

إن مثل هذا الرجل، التي يتمتع بفضيلة الشجاعة، إذا فكر في قصر مدة عمره، وعلم أنه لا محالة سيموت بعد أيام قلائل، إن مثال هذا الشخص، يكون محباً لكل ما هو جميل كما أنه ثابت على الرأي الصحيح، أنه إذن يحامي عن دينه ويمنع العدو من استباحة حريمه والتغلب على بلاده.

إن هذا الرجل الشجاع الذي تميز بفضيلة الشجاعة الحقة، يأنف من الفرار أمام الأعداء، ويفضل الموت على الهرب، إنه يعرف جيداً، أن الجبان وحده هو الذي يفضل الفرار، وما عرف أن ما يحرص عليه هو فان زائل، حتى إذا تأخر أياماً معدودة، إن الجبان الذي يفر من المعركة، يبقى في هذه الحياة محتقراً ممقوتاً، مكذب الحياة بالذل وضروب الصغار.

أما حالة الشجاع الحق، الذي تميز بفضيلة الشجاعة الحقة، فإنه قوي مع نفسه لأنه في الأساس استطاع أن يقاوم شهواته، وإلا يستسلم لها، إنه حالته هذه تمثل حالة الرجل الشجاع الفاضل، المجبل في حياته والمعطرة ذكراه بالذكر الحسن بعد موته.

يعطي مسكويه مثال آخر، هو مثل الذي يتصنع السخاء وليس بسخي، إن من يبذل أمواله في شهواته أو طلباً للسمعة والرياء، أو تقرباً من السلطان أو لدفع مضرة عن نفسه، أو الذي يبذل لمن لا يستحق، من أهل الشر، أو بذلها للطمع على سبيل التجارة أو المرابحة كل واحد من هؤلاء، يعمل عمل الأسخياء وليس بسخي.

لا شك أن المال ضرورة للعيش، أن على الرجل الحر العادل، أن يكسبه من الوجوه الجميلة ويصرفه في الوجوه الجميلة أن العاقل لا يتدنس بالقبيح في اكتساب المال كالسرقة أو الظلم أو الخيانة إن العاقل الحازم، يتجنب مواطن العار والفضائح كالسعاية والنميمة والغيبة وضروب الفساد الأخرى التي يرتكبها طلاب المال من غير وجهه.

الرجل العادل، لا يلوم البخت ولا يحسد أصحاب الأموال المكتسبة من غير وجوهها الجميلة بل ديدنه الكسب الحلال من العمل الشريف.

العدل عند أرسطو لا يطبق إلا على الموجودات، التي عندها من الخيرات ما يمكن أن يأخذ بعض الناس أكثر مما ينبغي، فيصل به الأمر إلى حد الإفراط، أو يحرم آخرين من الخيرات، أو ينالون أقل مما ينبغي، فيصل بهم الأمر إلى التفريط.

يؤمن مسكويه أن العدالة وسط بين طرفين، أنه في البداية يعتمد على أفلاطون، فسيند ذلك حين يذكر صراحة أن أفلاطون قال: إن العدالة توسط بين طرفين كلاهما جور، إن الجور صار في الطرفين، لأنه زيادة ونقصان معان، إن من شأن الجور، طلب الزيادة والنقصان وإن الجائر يستعمل الزيادة والنقصان معاً، حين يستعمل الجور، فإنه يستعمله لنفسه في النافع، أما لغيره، فإنه يستعمل النقصان معه.

بعد ذلك ينعطف مسكويه ليستشهد كعادته بالشريعة، إنه طبعاً يؤمن بأن الفضائل كلها اعتدالات، وإن العدالة اسم يشملها ويعمها كلها، إن الشريعة لما كانت تقدر الأفعال الإرادية، التي تقع بالرؤية والوضع الالهي صار المتمسك بالشريعة في معاملاته عادلاً والمخالف لها جائراً.

يذهب مسكويه أكثر حين يقول أن العدالة لقب للتمسك بالشريعة إنه يضيف أنها حالة نفسانية صاحبها ينقاد لا محالة للشريعة طوعاً، ولا يضادها بأي نوع من التضاد.

إنه إذا حافظ على ما تمليه الشريعة من عدالة، وآثرها بعد إحالة الرأي فيها، على سبيل الاختيار لها والرغبة فيها، وجبت عليه موافقة الشريعة وترك مخالفتها.

يبين أرسطو الفرق بين العدل والعادل، بحسب اجتهاده، وبين الرجل العدل والرجل العادل، أرسطو يعترف مبدئياً، أن العادل هو عدل أيضاً، وأن الاثنين شيء واحد غير أنه يعقب قائلاً، إن العدل أحسن وأكثر شمولاً.

العدل هو عـادل، ولكن مع هذا فالعادل قانوني أي انـه عـادل بحسب نـصوص القـانون، العـدل إذن هـو تـصحيح للعـدل القـانوني المتحـرج، إن القـانون لا يحكـم إلا بنـصوص معينـة وفي أحـوال معينـة غـير أن هنـاك أشـياء عامـة، لا يمكـن الحكـم فيهـا بالنصوص القانونية، التي تحكم في الأمور الجزئية.

العـدل إذن خـير مـن العـادل، لأن العـدل هـو تعـديل لخطـأ العـادل، عنـدما يخطـأ بسبب الصيغة العامة للقانون ولكن مع هذا فالعدل ليس خيراً من العدل المطلب سبب ذلـك أنـه لـيس مـن الممكـن تنفيـذ كـل شـيء بـنص قـانوني، ولـذا يلجـأ إلى معالجتهـا بالمراسيم الخاصة، إن الرجـل المعـادل مـن تتحقـق فيـه فـضيلة العدالـة الـذي يـزاول في سلوكه طريق العدل، ولا يتحرج عن طريق الحق، حتى لو رأى له من القانون نصيراً.

ناقش أرسطو مشكلة إذا كان الإنـسان ظالمـاً لنفسه كمـا أنـه ينحـي اللائمـة علـى أولئك الذين ينتمون أن القانون طبعاً يحرم الانتحار، ولكن أرسطو مـع ذلـك يـرى أن في الانتحار جناية على المجتمع الذي من حقه أن يتحقر الرجل المنتحر، كما أن مـن حقـه أن يحاسب الرجل الذي يحاول الانتحار.

لابد من الإشارة هنـا، حـول معالجـة أرسـطو لمـشكلة الانتحـار، فـأقول أن أسـتاذة أفلاطون قد عالج هذه القضية معالجة وافية، ووصل إلى النتيجة نفسها قبلـه في كتابـه (فيدون).

حين اجتمع تلاميذ سقراط، حول أستاذهم، في يومه الأخير في الـسجن، قبـل أن يتجـرع الـسم، كـان الحـديث العـام الـذي دار بيـنهم، حـول خلـود الـنفس بالـذات، كـان التلاميذ محزونين، غير أن سقراط لم يعتور روحه الحـزن، حـين سـأله أحـد تلاميـذه عـن ذلـك أجـاب سـقراط: الأمـر لا يعـدو حـالتين: أمـا نومـة هادئـة، أو التقـي مـع مـن

سبقني من الفلاسفة وتحاور معهم في مشكلات الإنسان والوجود ونعم الحديث حـديث الفلاسفة.

حيث سأله تلميذ آخر عن الانتحـار، أجـاب سـقراط، أن علـى الـشخص أن يطيـع القـانون الـذي عـاش في كنفـه طـوال حياتـه، ولـيس مـن الـصواب أن يتمـرد إنـسان علـى القانون حين يحكم عليه بالموت أما أن يقتل الإنسان نفسه، فهـذه جريمـة لا تغتفـر، إذ ليس من حق الإنـسان أن ينتحـر ويزهـق، روحـه، كمـا أن مـن حـق المجتمـع أن يحاسـبه على فعلته هذه لأنه عضو في المجتمع.

إن ما أود ذكره، أن محاورة فيدون كلها خصصها أفلاطون لمـشكلة خلـود الـنفس، المحاورة كتبت بأسلوب أفلاطون الأنيـق، الـذي أسـهب في قـضايا الحيـاة والمـوت، وعلاقـة الإنسان بالقانون والسبب في البرهنة على خلود النفس بعـد المـوت، لابـد أن أرسـطو قـد اطلـع بطبيعـة الحـال إطلاعـاً كـاملاً علـى هـذا الكتـاب كمـا اطلـع علـى بـاقي كتابـات أفلاطون.

يرجع أرسطو أيضاً، إلى مناقشة مسألة الظلم وتقبل الظلم (الانظلام)، إنـه يـرى أن الظالم والذي يحتمل الظلم فهما رديئان، إن كلام منهما قد جاوز حد العدالـة، الـذي هو القدر والوسط والاكتفاء بالنصيب العادل.

مع ذلك نرى أن أرسطو يذهب في الرأي، إلى أن احتمال الظلم خير مـن أتيانـه، إن الذي يرتكب الظلم سيء الخلق، وإن تقبل الظلم أقل رداءة لم يـنس أرسـطو بعبقريتـه الفذة، أن يقرر أن تقبل الظلم ربما يكون أكثر ضرراً.

لا بأس أن أشير هنا أيضاً، إلى أن قضية الظلم وتحمل الظلم قـد عالجهـا أفلاطـون قبل أرسطو في كتاب (فيدون) أيضاً ذكـر أن زوجـة سـقراط كـان تبكـي بحرقـة وحـين

سألها سقراط عن سبب بكائها، أجابته: لأنك سوف تموت مظلوماً، فرد سقراط على الفور: وهل تريدين أن أموت ظالماً؟

يناقش سقراط المشكلة في حوار مع تلاميذه، إن على الإنسان ألا يكون ظالماً في أية حالة من الحالات، لأن الظلم جريمة وليس من إنسانية الإنسان أن يكون مجرماً، أما إذا وقع عليه الظلم، وليس بمقدوره أن يرده، فإن تقبل الظلم أهون من اقترافه.

إذا أردت أن أعطي رأيي في هذا المقام، فأقول إذا كان الظلم جريمة فإن تحمل الظلم شر مهين للإنسان على الإنسان أن يتجنب الظلم وأن يحتج، بل عليه أن يثور إذا ما أصابه أي نوع من الظلم، إذا كان الظلم يهدد النظام الاجتماعي ويخترق صلب القانون وقد يسبب خللاً في التركيبة الاجتماعية، للمجتمع، لكن لا ننسى أن تقبل الظلم يؤدي إلى الذل والخنوع، ويهين إنسانية الإنسان.

إن ما استغربته من مسكويه، وهو الذي يستشهد دائماً بتعليمات الشريعة الإسلامية، أو يحاول أن يخضع الفلسفة للتعاليم الفلسفية، أو في الأقل انه يؤائم بينهما ويوافق، أقل أن الذي أثار استغرابي في هذا الشأن، أن مسكويه لم يشر إلى الانتحار أو قتل النفس لا من قريب ولا من بعيد.

مسكويه قد اطنب في ذكر العدالة، بحسب ما هو متوفر له، وبحسب استيعابه للفلسفة اليونانية، وإطلاعه على التراث الفلسفي الإسلامي لم يتطرق إلى الانتحار أو قتل النفس مطلقاً أنه عالج أمر النفس وأقسامها وميزها عن الجسد وبرهن على خلودها، أنه في الوقت اسهب في صحة النفس وأمراضها، معتمداً على آرائه الشخصية أو على ما وعاه من الفلاسفة السابقين، إنه تطرق إلى الموت والخوف من الموت من غير أن يشير إلى الانتحار أو قتل النفس التي حرم الله على ارتكابها.

مع ذلك فإن مسكويه حين ينحو منحنى إسلامياً يقول: إذا كان الخالق تعالى غنياً عن معونتنا ومساعينا، فمن المحال القبيح والجور الفاحش، أن لا نلتزم له حقاً، ولا نقابله على هذه الآلاء والنعم، بما يزيل عنا سمة الجور والخروج عن شريطة العدل.

يعتقد مسكويه، أن للإنسان مقامات ومنازل عند الله، فالمقام الأول للموقنين، وهو رتبة الحكماء وأجلة العلماء، المقام الثاني مقام المحسنين، وهو رتبة الذين يعملون، بما يعلمون المقام الثالث مقام الأبرار وهو رتبة المصلحين وهؤلاء همهم إصلاح العباد والبلاد، المقام الرابع مقام الفائزين وهو رتبة المخلصين في المحبة وإليها تنتهي رتبة الاتحاد وليس بعدها منزلة ولا مقام لمخلوق.

الفصل الخامس

عدم الاعتدال

عدم الاعتدال

يبدو أن أرسطو يحاول أن لا يترك حقلاً يهم الموضوع، بل يريد أن يناقش ويبدي رأيه في كل مسألة تهم الأخلاق، أنه بعد أن أشبع كثيراً من المواضيع درساً من العدل والفضيلة والوسط (الاعتدال)، يطرق الآن باباً جديداً في كتاب (فصل) كامل هو عدم الاعتدال.

يبدأ أرسطو القول، أن هناك ثلاثة أمور ينبغي اجتنابها وهي: الرذيلة وعدم الاعتدال والجفاء الذي يسقط بنا إلى مستوى البهائم أما الرذيلة فهي ضد الفضيلة، وعدم الاعتدال مضاد للاعتدال، أما الجفاء، البهيمي، فإنه ضد لهذه الملكة: فضيلة فوق إنسانية وقدسية.

يبدو أن أرسطو قد أدرك أن هناك من يغالي في الفجور إلى درجة الانحدار، وهناك من يرتفع بإنسانيته إلى تجاوز حد الفضيلة المتعارف عليها، أنه يقول أنه من النادر أن نجد إنساناً نطلق عليه أنه قديس، كما أنه من الصعوبة أن نعثر على إنسان بهيمي إلى درجة الوحشية.

إن الاعتدال وضبط النفس، كيفان صالحان ومحترمان، أما عدم الاعتدال والرخاوة، فهما كيفان قبيحان مذمومان، إن الإنسان المعتدل هو المتمسك دائماً بالعقل، أما عديم الاعتدال، فهو الذي تملكه شهوته، وهو يعلم أنه آثم.

أرسطو يؤمن إيماناً كاملاً أن الإنسان عديم الاعتدال عالم حقاً بما يفعل، أنه بهذه الفكرة يعارض سقراط الذي كان يعتقد أن عديم الاعتدال غير عالم بما يعمل، حجة أرسطو، أنه ليس من المعقول أن الإنسان يدرك الفعل الحسن فيقدم عليه، وأنه إذا اقترف الفعل القبيح فإنه يجهل ذلك.

فكرة الاعتدال في التراث العربي والفكر الفلسفي، موجودة من دون أدنى شك، أن العرب مدحوا الاعتدال واستحسنوا الاعتدال في الحياة الاجتماعية، في الوقت نفسه، فإنهم حذروا من عدم الاعتدال وذموا المفرطين، الذين لا يتوخون التوسط في حياتهم الخاصة، أو بالنسبة لتعاملهم مع الآخرين.

القرآن الكريم يحث على الاعتدال ويحذر من عدم الاعتدال، وأضرب أمثلة بالآيات الكريمة التالية:

﴿ولا تصعر خدك للناس ولا تمشي في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾

﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾

﴿ولا تمشي في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾

﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكانوا بين ذلك قواما﴾

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون في الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾

﴿ولا تقف ما ليس لك به علم أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾

﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾

الحديث الشريف يرشدنا دائماً إلى الاعتدال: (إن المنبت لا أرضاً ولا ظهراً ألقى).

ومن فلاسفة الإسلام المشهورين، أذكر أن أبا بكر الرازي يحذر دائماً من الإفراط، أما الفارابي فينصحنا بالاعتدال، كما أن تلميذه يحيى بن عدي يوصينا بالحذر من الشرور، ويحي بن عدي هذا هو أستاذ مسكويه.

يتساءل أرسطو، هل أن عديم الاعتدال يعلم أو لا يعلم ماذا يفعل وإذا كان يعلمه فكيف يعمله ؟ يتساءل أيضاً، هل الإنسان المعتدل وعديم الاعتدال يختلفان أحدهما عن الآخر في أعمالهما فقط، أو بالاستعداد الخلقي الذي لهما وقت العمل.

يجيب أرسطو، أن الإنسان يسمى عديم اعتدال، لأنه يرتكب نفس الأمور التي يرتكبها الفاجر، عدم الاعتدال إذن يقارنه بالفجور، لأن الفاجر مسوق إلى خطيئاته بمحض اختياره، معتقداً أنه يلزم دائماً طلب اللذة الحاضرة.

يشير أرسطو إلى أن العلم يمكن أن يطلق على معنيين مختلفين، يقال مثلاً على الذي عنده العلم ولا ينتفع به أنه يعلم، كما يقال على من يعمل به سواء بسواء، أن من يأتي الخطيئة وهو عالم بها، فإنها أخطر ما تكون عليه الخطيئة.

أرسطو يعطي بعض الأمثلة، يستشف منها أن الإنسان يتصرف بغير اعتدال وهو يجهل ماذا يفعل يخيل إلي أن أرسطو يحاول أن يزكي نظرية سقراط التي تقول: إن الإنسان لا يفعل الشر إلا بسبب الجهل، أو أن أرسطو لم يعد قادراً أن يتحرر من أسارها، وهو يفلسف القضايا المطروحة.

يقول أرسطو إذا كان الإنسان عنده العلم وهو لا ينتفع به، فمن الممكن أن يكون فيه اختلاف كبير، على حسب الحالة التي هو فيها الإنسان، مثال ذلك في النوم أو في الجنون أو في السكر، يضيف أرسطو، أن ثورات الغضب ورغبات الحب والميول الأخرى من هذا القبيل، قد تقلب حالتنا وتنتهي بنا إلى الجنون، يعترف أرسطو، أن عديمي الاعتدال الذين لا يعرفون أن يضبطوا أنفسهم، يكادون يكونون في مثل هذه الحالة.

أرسطو يؤيد سقراط على استحياء، أو أنه يأخذ بنظريته، أو أنه يستعملها على طريقته في التفلسف، يقول أرسطو بصراحة: وتحق إذن الظاهرة التي دل عليها سقراط، فإن الشهوة بنتائجها لا تكون البتة ما دام حاضراً في النفس، العلم الذي يجب

أن يكون بالنسبة لنا العلم الحق، أي العلم بالمعنى الخاص، هذا العلم لا تجذبه الشهوة ولا تقهره، بل العلم الذي يأتي من طريق الحساسية، هو وحده الذي تتغلب عليه الشهوة.

لاشك أن الاعتدال وعدم الاعتدال، يتعلقان على الخصوص باللذات الجثمانية، كما أن الاعتدال وعدم الاعتدال بعامة، يقابلان القناعة والفجور، هناك لذات ضرورية هي لذات الجسم، وهي التي تتعلق بالتغذية ودواعي الحب وجميع حاجات الجسم المشابهة، هناك لذائذ ليست من الضروري، ولكنها في ذاتها أهل لأن نطلبها، مثل الظفر في المنازعات ومراتب الشرف وأشياء أخرى من هذا القبيل، لما فيها من فوائد ولذات معاً.

يستدرك أرسطو إذن، فيقول نحن لا نصف بعدم الاعتدال كل أولئك الذين يتركون نفوسهم لهذه اللذات، على شرط ألا يتجاوزوا حدود العقل، فيقال أنهم غير معترفين، في المال مثلاً أو في أمر الكسب، أو في أمر الشرف، أو في أمر الغضب.

ليس من الصواب إذن أن نطلق لفظ عدم الاعتدال بالإطلاق، لأن الناس مختلفون بعضهم عن بعض، الاسم المشترك الذي يمكن أن يطلق عليهم، يكون بعلاقة المشابهة، المهم أن عدم الاعتدال مذموم، ليس لأنه خطيئة فقط، بل لأنه رذيلة أيضاً، لكن مع ذلك، فليس هناك من نقول أنه مذموم، باعتبار أنه عديم الاعتدال على وجه مطلوب.

المهم في هذا الشأن، أن الإنسان لا يلزم على إتيان الأشياء بصورة متوسطة، أنه إذا مال إليها أو أحبها أو رغب فيها، ينبغي أن يكون الحب على وجه معين دون إفراط، إن الذين يلامون، أولئك الذين يجاوزون حدود العقل، وقد انقادوا لرغباتهم العمياء.

إن عدم الاعتدال إذن شيء خليق بالذم والاحتقار، إننا حين نتكلم في الاعتدال وعدم الاعتدال، ينبغي أن نفهم المقصود لما ينطبق منهما على الأشياء بعينها، التي تنطبق عليها القناعة والفجور، إننا نقول مثلاً عدم الاعتدال ونحن نعني الغضب، فينبغي إذن أن نزيد، أنه عديم الاعتدال في الغضب، كما يقال أنه عديم الاعتدال في أمر المجد أو في الكسب.

يؤكد أرسطو، على أن عدم الاعتدال على المعنى المطلق، هو المقابل للقناعة، إن فساد الخلق في الإنسان، يمكن أن يسمى تارة فساداً على الإطلاق، وتارة مقيداً بقيد، يدل على أنه إما بهيمي وإما مرضي من غير أن تؤخذ هذه الكلمة على معناها المطلق، وهكذا الحال، فإن عدم الاعتدال هو تارة بهيمي وتارة مرضي، ومتى حملت هذه الكلمة على معناها المطلق فإنها تدل على عدم الاعتدال الخاص بالفجور الفاشي عند الناس.

أما عدم الاعتدال في أمر الغضب فإن استسلام الإنسان لعدم اعتدال الغضب، أقل خزياً من أن يترك نفسه، يستولي عليها هياج رغباته، أما الغضب الذي من يحرق القلب يستمع للعقل إلى حد ما، لا شك أن أرسطو هنا يعرف الكاظمين للغيظ.

الغضب إذن في رأي أرسطو، يطيع العقل إلى حد محدود، إن عديم الاعتدال في أمر الغضب، يستسلم لقياد العقل إلى نقطة ما، في حين أن الذي لا يعرف أن يقمع رغباته، هو محكوم بها ولا يخضع للعقل في شيء، كما أن عدم الاعتدال الذي تدفع إليه الرغبات، هو أكبر خزياً من عدم اعتدال الغضب.

الغضب في نظر مسكويه، هو حركة للنفس يحدث بها غليان دم في القلب شهوة الانتقام، إذا كانت هذه الحركة عنيفة، أججت نار الغضب وأضرمتها، فاحتد غليان دم القلب، فيسوء حال العقل ويضعف فعله، لذلك يعمى الإنسان عن الرشد ويعم عن

الموعظة، ربما تصير المواعظ في تلك الحالة سبباً للزيادة في الغضب ومادة للتأجج واللهب، وليس يرجى له في تلك الحالة حيلة.

أما أسباب الغضب، في رأي مسكويه، فهي: العجب، والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والاستهزاء والغدر والغيم وطلب الأمور التي فيها عزة، ويتنافس فيها الناس ويتحاسدون عليها، إن الغضب جنون ساعة، وربما كان سبباً لأمراض صعبة مؤدية إلى التلف، ينصح مسكويه بعد ذلك بطاعة العقل، والالتزام بشرائطه، فيكون الإقدام كما يجب هو بحيث يجب، وبالمقدار الذي يجب، وعلى من يجب.

لاشك أن الإنسان بعامة، يكون عديم الاعتدال تلقاء اللذات في حالة ومعتدل في حالة أخرى كما انه في الآلام، يكون قوياً صبوراً تارة وضعيفاً رخواً تارة أخرى، إن الاستعداد الأخلاقي لأكثر الناس يحل في الوسط بين هذين الطرفين، وإن كانوا على العموم يميلون إلى الجهات الأقل حسناً.

إن اللذات والآلام والرغبات والكراهات، التي تتعلق بحواس اللمس والذوق التي تخص الشرة والقناعة، إن الناس يختلفون في شأنها باختلاف الأشخاص، فمنهم من يسقط فيها ومنهم من يتغلب عليها.

يقارن أرسطو بين عدم الاعتدال والفجور، فيقول إن عدم الاعتدال أقل إثماً، لأنه متقطع وغير مدبر، غير أن الفجور هو فساد عميق متأصل في الفجور، إن الفاجر لا يشعر بوخز الضمير لأنه ملازم لما اختاره بعناد وتدبير، على أن عديم الاعتدال يندم على الحالات التي ضعف فيها، وقد يشفى من عدم اعتداله في التصرف، والفاجر لا يشفى من رذيلته.

إن عديم الاعتدال في رأي أرسطو ليس شريراً، لكنه يرتكب أفعال الأشرار، عديم الاعتدال يمكن أن يصلح وإن يرجع بسهولة إلى العادات السليمة، أما الشرير فلا

يرجع البتة يستنتج أرسطو من هذا أن عديم الاعتدال ما زال الاستعداد الأخلاقي فيه طيباً، أما الفاجر فاستعداده خبيث تماماً.

يمكن أن نعرف المعتدل أنه الذي يطيع العقل القويم، أما عديم الاعتدال فهو الذي لا يعرف أن يعتصم بالعقل الحقيقي والعزيمة الصحيحة، إن الرجل المعتدل يضبط نفسه، ولا يدع نفسه تذهب مع سلطان الشهوة، أما غير المعتدل فهو ينقاد إلى رغباته ولا يرجع إلى الصواب.

التدبير وعدم الاعتدال متضادان وهما لا يجتمعان، كما أن عدم الاعتدال الطبيعي هو أصعب شفاء من عدم الاعتدال الناشئ عن العادة، إن العادة أسهل تغييراً من الطبع، كما أن العادة إذا تأصلت تكون صعبة الفقدان.

يقول أرسطو أن الفيلسوف الذي يدرس علم السياسة، يهمه أن يجيد معرفة طبيعة اللذة والألم، لابد أن يدرك هل أن اللذة خير، وهل هي الخير الأعلى؟ إن الذي يريد أن يدرس علم السياسة بطريقة فلسفية، يجب عليه درس طبيعة اللذة والألم درساً عميقاً، لأن الفيلسوف السياسي هو الذي يجد الخير الأعلى!

أرسطو في كلامه هذا، يحاول أن يضع السياسي فوق الأخلاقي، وأن يجعل الأخلاق تابعة للسياسة إنه بهذا يريد أن يعاكس أفلاطون الذي يريد أن السياسة تابعة للأخلاق، الحقيقية أن الذي يتأمل الحالة، يجد أن رأي أفلاطون أقرب لواقع الحال، إن هذه المهمة التي يريد أرسطو أن تكون منوطة بالفيلسوف الأخلاقي، إن الفيلسوف الأخلاقي هو الذي يتقي اللذات التي ليست لذات على الإطلاق، والتي هي مصحوبة بخليط من الألم.

يذكر مسكويه بعض حالات عدم الاعتدال، وهو يحاول أن عليها، ويشير إلى أسبابها، وينصح بالتخلص منها، ويذكر بعض الطرق التي تجعل الإنسان يحيا حياة معتدلة سليمة.

يقول مسكويه إن العجب ظن كاذب بالنفس في استحقاق مرتبة غير مستحقة لها، على المرء إذن أن يعرف عيوب نفسه وما فيه من نقصانات، ولذا على المرء أن لا يعجب بنفسه، لأن الفضل الذي عنده موجود عند غيره.

الافتخار أيضاً عدم اعتدال، لأن الفخر هو مباهاة بأشياء خارجة عنا، فإن الأشياء كلها زائلة غير دائمة، ولسنا على ثقة بثباتها في جميع الأوقات، كما أنه من غير اللائق أن يفخر المرء بنسبه وأفضال أبائه، إن على الإنسان أن يفخر بأعماله، ولكن دون مبالغة ولا إدعاء ولا اسحاف في القول.

أما المزاح فإن مسكويه يوصي بالاعتدال فيه، لأن عدم الاعتدال قد يثير غضباً، ويزرع حقداً عند الآخرين الحذر إذن من الاندفاع في المزاح، لأنه قد يبدأ بكلمة وقد ينتهي إلى فتنة.

التيه قريب من العجيب، والفرق بينهما، أن المعجب يكذب على نفسه في ما يظن فيها، أما التياه فإنه يتيه على غيره، إن علاجه علاج المعجب بنفسه، وذلك بأن يعرف أن ما يتيه به لا مقدار له عند العقلاء، على التياه أن يدرك أن المال والأثاث وسائر الأعراض زائلة، أما الحكمة فتوجد عند الحكماء، وهي باقية خالدة.

أما الاستهزاء فيستعمله المجان من الناس والمساخر ومن لا يبالي بما يقابل به، لأنه وضع نفسه في احتمال أن يستهزأ به أيضاً، أن الرجل الحر الفاضل بعيد عن هذا المقام أنه يكرم نفسه وعرضه عن تعريضها للسفهاء، وبيعها بجميع خزائن الملوك.

أما الغدر فوجوهه كثيرة، أي أنه قد يستعمل في المال وفي الجاه وفي الكرم، أنه على كثرة وجوهه مذموم بكل لسان، ومعيب عند كل أحد، ينفر السامع من ذكره، ولا يعترف به إنسان، إن من عرف قبح الغدر ونفور العقلاء منه ثم عرف معناه فلا يستعمله، وخاصة من له طبيعة جيدة.

أما الضيم، فهو تكليف احتمال الظلم، إن الغضب يحدث أنفة منه وشهوة للانتقام ينصح مسكويه بعدم التسرع في الانتقام عند حدوث الضيم، على المرء أن يحسب حساباً إذا عاد الانتقام بضرر أعظم من احتمال ذلك الضيم.

الفصل السادس

الصداقة

الصداقة

يعطي كل من أرسطو ومسكويه، أهمية كبيرة للصداقة، فيخصص الأول كتابين كاملين من مؤلفه الكبير (الأخلاق النقوماخية)، بينما يفرد الثاني فصلاً كاملاً من كتابه (تهذيب الأخلاق)، للصداقة والصديق، الصداقة والمحبة عند مسكويه تعني أن معنى واحد ولا يرد بالمحبة: العشق، أما المحبة عند أرسطو فهي الصداقة، التي تقوم على الألفة والتعاطف بين الناس.

يبدأ كل من أرسطو ومسكويه، نظريته في الصداقة، فيقررانها ضرورة في لحياة، وكما أن الإنسان لا يستطيع العيش منفرداً بعيداً عن المجتمع، كذلك لا يقدر نسان أن يستغني عن الأصدقاء، مسكويه مثلاً، يرى أن كل إنسان يجد تمامه وكماله ند صاحبه، لأن الإنسان مطبوع على النقصان، ولهذا فالحاجة تدعو إلى التعاون مع أشخاص الآخرين، حتى يتحقق الفعل النافع الكامل.

إن مسكويه يرى أن الضرورة داعية إلى حال أن تجمع وتؤلف بين أشتات أشخاص، ليصيروا بالاتفاق والائتلاف كالشخص الواحد، الذي تجتمع أعضاؤه كله لى الفعل الواحد النافع له، لاشك أن مسكويه ينطلق في رأيه هذا من أن الإنسان دني بالطبع، وإننا نحتاج إلى الآخرين كي نسد النقصانات التي فينا، وحاجتنا إلى تمام مع الحوادث التي تعرض لنا من الكون والفساد.

مسكويه يرى أن الفضائل لا تتم إلا بالوجود الإنساني كما أن الفضائل مثل عدل والعفة والشجاعة، إن السعادة نفسها – برأيه – لا تتحقق إلا بالأحوال المدنية لأعوان الصالحين الأصدقاء المخلصين، والأفعال البدنية الدائمة، إن الكسل ومحبة راحة، من أعظم الرذائل، لأنهما يحولان بين المرء وبين جميع الخيرات والفضائل

ويسلخان الإنسان من الإنسانية، مسكويه يذم الزهاد، الذين يتبعدون عن الحياة الاجتماعية ويتفردون في الجبال والمغارات، لأن ذلك ضد التمدن، إنهم – برأيه – ينسلخون عن جميع الفضائل الخلقية، لأن كيف يعدل ويعف ويسخو من فارق الناس وابتعد عنهم.

لابد أن أذكر هنا، أن الصداقة عند مسكويه نوع من المحبة، ولذا فقد عنون المقالة الخامسة من كتاب تهذيب الأخلاق (المحبة والصداقة) انه يعطي المحبة أهمية أكبر، فالصداقة عنده أشبه بالمودة لأنها لا يمكن أن تقع بين جماعة كثيرين كما تقع المحبة، أما العشق فهو إفراط في المحبة.

الصداقة عند أرسطو نوع من الفضيلة، وهي ضرورة للحياة، ولا أحد يستطيع أن يعيش بلا أصدقاء، الأغنياء من الناس والفقراء، أرسطو يؤكد أن الإنسان كلما زاد غنى وجاهاً وسلطاناً شعر بالحاجة إلى الأصدقاء الإنسان بواسطة الأصدقاء يحفظ غناه ويقوي جاهه ويعز سلطانه كذلك الرجل البائس، أو الذي تعتوره شدة ما أو الذي يخاف من علة يقع بها، فليس له في هذه الحالة إلا الأصدقاء يستشيرهم، لتجنب الزلات وملاقاة الشدائد والتخفيف من البؤس والضيق، وذلك بالاستماع إلى نصائح الأصدقاء وأخذ مشورتهم، وقوة البأس بالاعتماد عليهم.

مما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال، أن أرسطو قد استقر معارفه فيما يخص المحبة والصداقة من أستاذة أفلاطون، أفلاطون كان قد تناول أمر المحبة والصداقة في ثلاث محاورات هي: محاورات ليزين، والمأدبة وفايدروس، أرسطو قد تأثر إلى حد كبير بآراء أفلاطون، إن أفلاطون يعالج بصورة مفصلة حالة المحبة والصداقة في محاورة ليزيس، إن الحب برأي أفلاطون، هو الرغبة فيما نحن محتاجون إليه، أو أنه ينقصنا، لا سيما إذا كان ذلك الشيء يوافق طبيعتنا، كذلك عندما يعالج أفلاطون في هذه المحاورة ذاتك هل الإنسان يصادق شبيهه؟ أي هل الطيب يصادق الطيب والخبيث

يصادق الخبيث، لكن من الممكن أيضاً أن يصادق الطيب الخبيث، والخبيث يصادق الطيب.

أما رأي أفلاطون في محاورة المأدبة، والذي يرويه على لسان سقراط، فإنه يخضع نظريته إلى الجدل الفلسفي الصاعد، إذ يحب البشر بعامة الجسد ومفاتن الجسد، ولكن البعض يحب جمال النفوس، والقسم الثالث يرقى إلى حب العلوم والمعارف، ولكن المحب الحقيقي هو الذي يحب الوجود الأسمى الجمال ذاته، وهو ما يقابل الحب الإلهي عند المتصوفة.

وفي محاورة فايدروس، يرى أفلاطون أن الحب عبارة عن رغبة، وهذا أمر واضح عند جميع الناس، وأن ما نعرفه أيضاً، أنه يمكن للإنسان من ناحية أخرى أن تكون لديه الرغبة في الأشياء الجميلة، من دون أن يحب فبأي علامة إذن سوف نميز الإنسان الذي يحب من ذلك الذي لا يحب؟ إن الفيلسوف وحده الذي يتخذ أجنحة، لأنه يتعلق دائماً بتذكر الحقائق العليا التي يكون الاتصال بها مصدر ألوهية الإله، الفيلسوف وحده الإنسان الكامل الذي ينأى عن المشاغل البشرية، ولا يهتم إلا بما هو الهي.

لابد أن اذكر في هذا المجال، أن كثيراً من الفلاسفة قد عالجوا موضوع الصداقة، سواء كان ذلك في الفلسفة اليونانية أم الإسلامية، بعد أن ذكرت أن أفلاطون كتب في الصداقة والحب والمحبة في كتبه المذكورة أعلاه، فضلاً عما كتب في كتابه الجمهورية، كذلك فإن أفلاطون كتب عن الصداقة في التساعيات.

أما في الفكر الإسلامي، فقد كتب كثير من الفلاسفة والأدباء والفقهاء في الصداقة والمحبة، مثل أن المقفع والكندي والرازي ويحيى بن عدي وأبي حيان التوحيدي وابن حزم وابن أبي الربيع وغيرهم كثيرون، لاشك أن الصداقة عند العرب مهمة، لأنها مشتقة من الصدق.

ابن المقفع مثلاً يرى أن الناس لا يستغنون عن حب الآخرين لهم، ولكنه مع ذلك ينصح بإتباع ما يشير به العقل، لأن غاية الناس صلاح المعاش والمعاد، والسبيل إلى ذلك هو العقل، والعقل ينمو ويزكو بالأدب كذلك يقول ابن المقفع، أن من يريد أن يبلغ الذروة من الفضل، أن يؤثر الآخرين بمحبته، لأن الناس لا يستغنون عن حب الآخرين لهم، لاشك أن المحبة عند ابن المقفع تعني الصداقة الخالية من الشوائب، إن أدباء وفلاسفة العرب المسلمين قد اعتادوا على ذكر كلمة المحبة كمرادف للصداقة، أما أبو بكر الرازي فإنه يرى أن الإنسان تميز عن الحيوان بالعقل، وأن العقل يهدينا إلى السيرة الصالحة، وهذه تقودنا إلى التعاون والارتفاق مع بعضنا، الرازي إذن يدعو إلى التعاون حيث يعمل جميع الناس داخل نطاق المجتمع.

يذهب أرسطو إلى أن الصداقة تهم المشرعين أكثر مما يهمهم موضوع العدل نفسه لأن الانسجام بين الأهالي أشبه بالصداقة والمحبة وهو ما تسعى إليه وتريده القوانين أرسطو يذهب إلى أبعد من ذلك فينتهي بهذا الشأن إلى أن الناس إذا أحب بعضهم بعضاً ليسوا بحاجة إلى العدل الصداقة عند أرسطو إذن ضرب من الفضيلة، أو كما يقول أنها دائماً محفوفة بالفضيلة وذلك لأن الإنسان مهما كان عنده من مال وجاه وسلطان، فهو بحاجة إلى الأصدقاء لأن الأصدقاء هم الملاذ في وقت الشدائد، أرسطو يعد الصداقة نوعاً من الحب، ويقول أن قانون الطبيعة يقضي بأن الحب يظهر أنه إحساس فطري في قلب الكائن نحو ولده، وهذا الإحساس موجود في كثير من الحيوانات، لكنه يظهر على الخصوص بين الناس، الصداقة — كما يقول أرسطو — ليست فقط ضرورية، وإنما هي جميلة وشريفة، يذهب أرسطو أكثر من ذلك، إلى أنه متى أحب الناس بعضهم بعضاً، يتساوى عند الكثير من الناس لقب الرجل الفاضل بلقب الرجل المحب.

يتفق مسكويه صراحة مع أرسطو، بأن الإنسان محتاج إلى الصديق عند حسن الحال وعند سوء الحال، وذلك أن الإنسان عند سوء الحال يحتاج إلى معونة الأصدقاء وعند حسن الحال يحتاج إلى المؤانسة، وإلى من يحسن إليهم، مسكويه يرى أن الإنسان لما كان صديقاً بالطبع فإن سعادته لا تتم إلا عند أصدقائه ومن المحال أن يصل الإنسان إلى السعادة التامة بالوحدة والتفرد، السعيد إذن من اكتسب الأصدقاء واجتهد في بذل الخيرات لهم ليسعدوا به ويسعد بهم.

من المفكرين الإسلاميين، نرى أن ابن المقفع ما يرى أن من الفضيلة تفقد الأصدقاء إذا أصابتهم مصيبة أو مرض أو يعانون من عوز أو حاجة، كما أنه في الوقت نفسه يحذر من مؤاخاة الخب، ويحذر من الاستخفاف بالإخوان لأن من استخف بالإخوان أفسد مروءته، ابن المقفع يحذر أيضاً من الملل من الأصدقاء، لأن الملول يفقد الإخوان، كما أنه يحذر من مقاربة وجوار الجاهل، لأن الجاهل كله شر، فما أحرى إذن بالابتعاد عنه، ابن المقفع ينصح الناس دائماً بمشاركة الإخوان والأصدقاء الصالحين بفضلهم وكرم عيشهم إذ يجب على الرجل الكريم أن يسر مثل هؤلاء الإخوان، ويكون دائماً من وراء حاجاتهم، لأن الكريم إذا عثر لم يستغل إلا بالكرام، ولذا فعليه أن يشاركهم في ماله لأن في تسلية الهموم وسكون النفس لقاء الإخوان، وبث كل منهم إلى صاحبه همومه، لأن حرمان النفس من السرور، إذا فرق بين الأليف وأليفه، وبين الأخ وأخيه ينصح ابن المقفع أن يعطي كل ذلك حق حقه، ويزداد — أن أمكن — ذو الحق على حقه، أما من لاحق له فلا بأس أن يمنن عليه بالفضل.

أبو بكر الرازي يؤمن بصداقة الفضلاء كما أنه يقول أن الألف هو ما يحدث في النفس عن طول الصحبة من كراهة مفارقة المصحوب، لا ينسى الرازي أن يشير أن بسبب محبة الإنسان لنفسه، فهو يستحسن الحسن منها فوق حقه، ويستقبح القبيح دون حقه، ولذا يحتاج الرجل إلى صديق الخير حتى يريه ما حسن منها وما قبح من

نفسه، فيوازن ويختار الطريق الصواب، الرازي أيضاً ينصح الإنسان بالابتعاد عن النظر إلى الآخرين بعين الحسد لأن الإنسان يجهد نفسه ويسهرها دون جدوى، فضلاً عن أن المحسود عند نفسه خلافها عند الحاسد، دون جدوى فضلاً عن المحسود عند نفسه خلافها عند الحاسد، فالمحسود ربما يستحق الشفقة لا الحسد، ولكن الحاسد يجهل الحالة الحقيقية التي هو فيها، فهو يستعظم ما يراه ويتمنى الوصول إلى الحالة التي هو فيها، ولو وصل الحاسد إلى حالة المحسود لوجد أنه كان واهماً.

أبو حيان التوحيدي، الأديب المتفلسف خص الصداقة بكتاب كامل سماه (الصداقة والصديق) ولكن مع ذلك، فأبو حيان يقول: قبل كل شيء ينبغي أن نثق بأنه لا صديق ولا من يتشبه بالصديق، وعندما يذكر حد أرسطو للصديق، الذي يذهب فيه إلى أن الصديق هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك ما يذكر رأي صديقه النوشجاني، الذي علق على ذلك قائلاً: الحد الصحيح ولكن المحدود غير موجود.

يتفق كذلك مسكويه وأرسطو في أن الصداقات تعقد متى كان التشابه حاصلاً بين الأصدقاء، ويختلفان في نقطة ثانية، في الموضوع نفسه، هي أن أرسطو يؤيد من يقول أن الاختلاف في الطبائع يكون الاتحاد أيضاً لكن مسكويه يبقى متمسكاً في التوافق بين الطبائع، وعلى الرغم من أن أرسطو لا يقرر رأيه هو صراحة في أمر التآلف بين المتشابهين، وإنما يقول: ومنهم من قال ان التشابه بين الكائنات يكون الصداقة، كذلك يأتي برأي معاكس، وينسبه إلى مفكرين آخرين فيقول: ويذكرون رأياً مضاداً، أن أصحاب المهنة الواحدة مثلاً دائماً يتنافرون ثم يضرب مثلاً بين قليطس، الذي يقول أن النغم الجميل لا يصدره إلا التضاد، أما مسكويه فيقول أن الجواهر البسيطة إذا تشابكت واشتاق بعضها إلى بعض تآلفت وإذا تآلفت صارت شيئاً واحداً.

وتثار هنا مسألة، هي لماذا يصادق الإنسان أو يحب؟ فيتفق أرسطو ومسكويه، لأن الإنسان يحب ما يلائمه وهذا الملائم أو النافع أما فيه لذة أو منفعة أو خير.

أسباب الصداقة إذن عندهما ثلاثة: فبعض الناس يحب للذلة، وأن الشخص بهذه الحالة يصادق ويحب لأجل ما يجنيه من لذته الشخصية يحلل مسكويه هذا النوع من المحبة فيقول: إنها تنعقد سريعاً وتنحل سريعاً لأن اللذة غير ثابتة، وإنما تتغير بحسب حالة الشخص المزاجية، وما إذا أفرط فيها أو أنه بحاجة إليها.

أما المحبة من أجل المنفعة، فهي تشبه محبة اللذة إلى حد بعيد، إذ أن الشخص يحب من يرجو منه الكسب والمنفعة، وهي ذلك صداقة تنحل سريعاً، لأن النفع غير ثابت، بل متغير، ولهذا إذا زالت أسباب المنفعة انعدمت الصداقة صداقة اللذة تكون غالباً بين الأحداث، فهي تكون سريعاً وتنحل سريعاً، أما صداقة المنفعة فتنعقد غالباً بين الشيوخ والمسنين لأن سببها الرئيس تبادل المنفعة، أما محبة الخير، فهي المحبة الكاملة والصداقة التي تدوم ولا تنحل سريعاً لأنها غالباً ما تكون بين الأخيار من الناس، وهدفها الرئيس هو الخير، لأن الخير لنفسه يكون بالطبع خير لصديقه وإن الصديق من هذا النوع، أي الصديق الذي هدفه الخير، يكون في الوقت نفسه نافعاً لصديقه، وإنها باقية لأنها لا تنعقد من أجل لذة زائلة أو مصلحة ذاتية عند مسكويه إن هذا النوع من الصداقة، هو الخير ولما كان الخير ثابتاً، فإذن محبة من هذا النوع باقية غير متغيرة أما أرسطو فيقول أن صداقة من هذا النوع نادرة جداً، لأن الناس الذين هم على هذا المستوى من الخلق قليلون.

أرسطو يرى أن الصداقة التي تتكون باللذة لها شبه بعض الشيء بالصداقة الكاملة، لأن الأخيار يسكن بعضهم إلى بعض بل يمكن أن يقال أن الصداقة التي تتكون نظراً لفائدة أو منفعة ليست غير ذات نسبة إلى الصداقة بالفضيلة، ما دام الأخيار بعضهم لبعض نافعاً، كذلك يقول أرسطو أن اللذة والمنفعة يمكن أن تسببا الصداقة

بين الأشجار، كما يمكن أيضاً أن تربط الأخيار برابطة الصداقة مع الأرذال، ولكن مع ذلك، فإن الأخيار هم وحدهم الذين يصرون أصدقاء لأجل أصدقائهم أنفسهم أما الأشرار فإنهم لا يتحابون بينهم إلا أن يجدوا في ذلك ربحاً ما.

مسكويه يقرر أن للمحبة أنوعاً، وأسبابها تكون بعدد أنواعها:

الأول: ما ينعقد سريعاً وينحل سريعاً.

والثاني: ما ينعقد سريعاً وينحل بطيئاً.

والثالث: سبب انقسام هذه الأنواع، لأن مقاصد الناس في مطالبهم وسيرهم ثلاثة.

ويتركب منها رابع، وهي: اللذة والنافع والخير والمتركب منها.

أرسطو يذهب، إلى أن صداقات الأحداث متغيرة وسريعة، لأن الفتيان تتغلب عليهم عاطفة الشهوة، ويسعون دائماً إلى اللذة، إن لذة الفتيان تتغير في كل ساعة، وإنهم ميالون للعشق، وأن العشق في الغالب يتولد تحت تأثير سلطان الشهوة واللذة، إنهم باختصار يسعون إلى الحب بسرعة، وإلى قطع ما وصلوا بغاية السرعة، صداقة الرجال المسنين لاسيما الأخيار تكون كاملة لأن هدفهم من وراء صداقتهم هو الخير، ولهذا فصداقتهم باقية لأنها صداقة حقة وعميقة، إن الصداقة الحقة إذن هي صداقة الناس الفضلاء، الذين يحب بعضهم بعضاً، من حيث كونهم أخيار وفضلاء.

من خلال استقرائي لآراء مفكرينا من الأدباء والفلاسفة في هذا الشأن، فإن أبا حيان التوحيدي جعل مفهوم الصداقة، بأنها التكامل بين شخصية، وهدفها الفضيلة، لاشك أننا نستشف علو همة التوحيدي ومدى نجابته وشدة إخلاصه لصداقة من علمه أو عمل معه، نرى في صفحت كثيرة من كتابه المقاسات كيف يكن الأحترام والاعتراف بالجميل لأستاذيه وصديقيه، أبي سليمان المنطقي ويحيى بن عدي

التكريتي، كما أنه يذكر بالخير دائماً صديقه مسكويه، الذي ألف معه كتاب (الهوامل والشوامل)، أبو حيان إذن يهمه من الصداقة أن يكون هدفها الفضيلة، أو تؤدي إلى ابتعاد الصديقة المتألفين عن طريق الرذيلة، وإن كتابه (الصداقة والصديق)، مملوء بالعبر والأمثال التي تشير إلى ذلك.

أبو حامد الغزالي، يرى أن حسن الخلق هو الطريق إلى الصحبة والصداقة والأخوة والمحبة، ولذا فهو يرى أن على رجل الخير أن يتواضع لإخوانه، ويحسن إلى كل منهم، ولا يؤذي أحداً منهم ويذهب الغزالي بعد من ذلك، فيتطلب استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حقاً، والغزالي مع هذا يعلم جيداً أن الناس جبلوا على أن يذم بعضهم بعضاً، وذلك أن الحسد في المال والجاه والعلم، ولذا فهو ينصح المرء بأن يطلب من صديق مخلص أن يعرفه عيوب نفسه، حتى يتخلص منها بالرياضة والمجاهدة، وفي الوقت نفسه ينصح بعدم مجالسة الفساق، فهو يمدح المخلصين ويذم المرائين، في كل الأحوال يرى الغزالي أن أخلص الأحبة يصحبون من يحبون إلى القبر، ولكن في القبر يتركون صاحبهم وحده، الغزالي يريد أن يقول أن صحبه الله هي المحبة الدائمة.

أحمد بن أبي الربيع يرى أن هدف الصداقة أخلاقي يهدف إلى فضيلة النفس، **فهو يرى أن على المرء أن يختار من الأصدقاء أربعة أنوع:**

النوع الأول: أهل العلم والدين والحكمة وهؤلاء يفيدونه علماً وعقلاً.

النوع الثاني: أهل الشرف حتى يستعين بهم على حوادث الزمان.

النوع الثالث: أرباب المحادثة الطيبة، فيفزع إليهم وقت الضجر.

النوع الرابع: أهل الثروة يستعين بهم في الهم والغم وعوارض الزمان.

وعلى الرغم من أن أرسطو ومسكويه، يقرران ثلاثة أنواع من المحبة كما ذكر أعلاه إلا أن مسكويه يضيف نوعاً رابعاً وهو المتركب من الأنواع الثلاثة السابقة، أي أنها تجمع بين اللذة والمنفعة والخير، يضيف مسكويه أن هذا النوع من المحبة ينعقد بطيئا وينحل بطيئا، ومع أن أرسطو يقرر ثلاثة أنواع من الصداقات، فعنده أن الصداقة الحقة هي صداقة الأخيار، لأن صداقة اللذة والمنفعة بين المتصادقين من أجل اللذة أو المنفعة، إما صداقة الأخيار، فهي الصداقة الكاملة الدائمة لأن الأخيار وحدهم الذين يهدفون إلى خير أصدقائهم، بعكس أصدقاء اللذة والمنفعة، الذين يهدفون إلى لذتهم ومنفعتهم وحدهم فحسب، لهذا فإن أرسطو يرى أن صداقات اللذة وصداقات المنفعة ليست صداقات بالمعنى الأكمل، وإنما تقال صداقات تشبها بالصداقات الصحيحة، التي تربط بين الأخيار من الناس، والذين يحب بعضهم بعضاً، ويصادق أحدهم الآخر من حيث أنهم أخيار وأفاضل ويكون بالتالي الهدف من صداقاتهم ومحبتهم، هو الخير والفضيلة.

إن الرجل الفاضل عندما يحب صديقه يريد خيره، وفي الوقت نفسه يريد خير نفسه، وهكذا يكون الخير متبادلاً بالمساواة بين الصديقين، من حيث أن كلاً منهما يهدف إلى خير صديقه، في الوقت نفسه، الذي يهدف إلى خير نفسه، وهكذا يتحقق التوازن بين الأصدقاء، وهكذا تدوم صداقة الأخيار، أما مسكويه فعنده إن كل أنواع المحبات تخل ويزول أثرها إلا المحبة الالهية، وذلك عندما يصف الجوهر الالهي في الإنسان ويتخلص من أصناف الشهوات، فيشتاق إلى شبيهه، ويرى بعين عقله الخير الأول المحض، الذي لا تشوبه مادة فأسرع إليه، وحينئذ يفيض نور ذلك الخير الأول عليه، فيلتذ به لذة لا تشبهها لذة، ويصير إلى الاتحاد التام.

نلاحظ في تراثنا الإسلامي، أن الغزالي يرى أن الألفة ثمرة حسن الخلق، وإن حسن الخلق يوجب التحاب والتألف والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد

والتدابر، وإن أعظم المحبة بين اثنين هي المحبة في الله يستشهد الغزالي بقوله رسول الله (ﷺ): (المتحابون في الله والمتجالسون في الله والمتزاورون في الله) وإن الإخوان في الله إذا كان أحدهما أعلى مقاماً من الآخر، رفع الآخر إلى مقامه، الغزالي إذن يريد من الصديق أن يفيد صديقه علمه وحسن أخلاقه، ويرفعه معه إلى الدرجة التي هو عليها من العلم والأخلاق، الصحبة عند الغزالي تكون بسبب الحوار أو بسبب الاجتماع في المكتب أو في المدرسة أو في السوق أو في الأسفار الإنسان يحب الصديق لذاته إذا التذ برؤيته واستحسن أخلاقه.

الغزالي يرى أنه لا يصلح كل إنسان للصحبة، إذ لابد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته، وإن الغزالي يرى أن هناك فوائد دينيه ودنيوية تطلب مع الصحبة، فالدنيوية كالانتفاع بالمال أو الجاه، أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة، والدينية الاستفادة من العلم والعمل، ويحث الغزالي على مجالسة الزهاد و العلماء، ثم يستشهد بلقمان الذي ينصح ابنه قائلاً: (يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن القلوب لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر)، وفي حقوق الصحبة يرى الغزالي أن للصديق حقاً على أخيه في المال وذلك بأن يساعده وقت الحاجة وأن يكون بشوشاً مع صديقه ولا يرده في حاجة، والا يفشي له سراً، وإن يذكر محاسنه، ويعفو عن زلاته وهفواته، وإن يكون مخلصاً ووفياً له، والا يكلف صديقه ما يشق عليه من مهمات بل يرفهه بالتفقد لأحواله والتواضع له والقيام بحقوقه.

رجل الخير بحسب رأي أرسطو، تهمه منفعة صديقه، وربما ينسى من أجل ذلك منفعته الخاصة، بينما الشرير لا تهمه إلا مصلحته الخاصة، فهو يوجه كل عمله من أجل ذاته، إن أحسن صديق هو ذاك الذي يريد بإخلاص خير صديقه، مع أن أرسطو لا ينسى أن الشخص هو صديق نفسه، وأشد صداقة لها منه لأي كان، ونفسه على الخصوص هي التي يجب عليه أن يحبها، مع ذلك فإن الإنسان الذي يختص نفسه لوجه

الخير، فيكون من المستحيل أن يسمى أنانياً، إن رجل الخير الذي يقنن نفسه لعمل الخير يكسب ربحاً شخصياً عظيماً لأنه يرتفع بعيون الآخرين إن الرجل الفاضل يعمل ويختار الأحسن، فهو يطيع الذكاء والعقل، إنه ميزة الرجل الفاضل هو أنه يعمل كثيراً من أجل أصدقائه ووطنه، ولو كلفه ذلك فقدان الحياة.

محبة اللذة عند مسكويه، تنتهي بزوال السبب الذي هو اللذة، فمثلاً اللذة المشتركة بين الرجل والمرأة هي سبب المحبة بينهما على الرغم من وجود خيرات مشتركة ومنفعة مختلطة بين الرجل وزوجه، فهما يتعاونان على الخيرات التي بها يعمران المنزل، لأن الرجل يكسب الخيرات وينتظر من زوجته ضبط تلك الخيرات، لأنها هي التي تحفظ وتدبر أما إذا قصر أحدهما اختلفت المحبة وحدثت الشكايات وربما تنقطع الصلة بينهما أو تبقى مع اللوم والشكوى، كما يضرب مسكويه مثلاً على المحبات المختلفة، والتي أسبابها مختلفة، إذ يقول أنها أيضاً سريعة التحلل مثل محبة أحد المتحابين لأجل المحبة، ومحبة الآخر لأجل اللذة، كالمحبة بين المغني والمستمع، لأن المغني يحب المستمع للمنفعة، والمستمع يحب المغني لأجل اللذة، كذلك المحبة بين العاشق والمعشوق، أحدهما يلتذ بالنظر والآخر ينتظر المتعة، ويذكر مسكويه (المحبة اللوامة) حين يحدث اللوم من كل جانب على الجانب الآخر، وكل يشعر أن الثاني هو المقصر بحقه فيحدث التظلم والشكايات يعرج مسكويه بعد ذلك، على محبة الأخيار، التي يراها لا تكون للذة ولا لمنفعة، بل هدفها تحقيق الخير والفضيلة بين الصديقين، ولهذا فإن هدف المحبة يكون النصحية، والعدالة والتساوي، ولا يبقى مجال للمخالفة والنزاع.

مسكويه يحث على إفادة الصديق، وإلا يبخل عليه بشيء، فإذا كان الإنسان متحلياً بعلم أو أدب، عليه أن يرفد صديقه وإلا يستأثر عليه، لأن البخل بالعلم على الأصدقاء، يثير السخط عندهم وقد ينحسرون عن صداقته ينبغي على الصديق الحق

أن يديم الذكر الجميل لصديقه، وأن يذكر موافقة اللطيفة، وليحذر من ذكر أي عيب يراه في صديقه، أن ذكر المحاسن فضيلة، وذكر المثالب رذيلة.

مسكويه يحذر من سماع النميمة، لأن الأشرار يدخلون بين الأخيار في صورة النصحاء فيوهمونهم النصيحة وينقلون إليهم في عرض الأحاديث اللذيذة، أخبار أصدقائهم محرفة همومه، حتى إذا تجاسروا عليهم بالحديث المختلف، صرحوا بما يفسد موداتهم، ويشوه وجود صداقاتهم، إلى أن يبغض بعضهم بعضاً.

مسكويه يهدف إذن إلى إقامة الفضائل الخلقية من خلال المعاملات والمعاشرات التي لا يتم الوجود الإنساني إلا بها، إن السعادة الإنسانية تتم بالأعوان الصالحين والأصدقاء المخلصين وذلك يتم بالعمل في الأحوال المدنية، عندما يخطو مسكويه من الفضائل الإنسانية إلى النظر في الفضيلة الإلهية، فإنه يقول أن محبة الحكمة والانصراف إلى التصور العقلي، واستعمال الآراء، فإنها خاصة بالجزء الإلهي من الإنسان وليس يعرض لها شيء من الآفات التي تعرض للمحبات الآخر الخلقية، ولا يلحقها ضرب من ضروب الفساد، وما دام الإنسان يستعمل الأخلاق والفضائل الإنسانية فإنها تعوقه عن هذا الخير الأول وهذه السعادة الإلهية، وإن من اشتغل عنها بالفضيلة الإلهية فقد اشتغل بذاته حقاً، ونجا من مجاهدات الطبيعة وآلامها، ومن مجاهدات النفس وقواها، وصار مع الأرواح الطيبة واختلط بالملائكة المقربين، فإذا انتقل من وجوده الأول إلى وجوده الثاني حصل على النعيم الأبدي والسرور السرمدي، بعد هذا يقول مسكويه، يجب أن ننزه الله تعالى عن جميع ما ذكرناه من فضائل الإنسان فالبواجب الحق الذي لا مرية فيه، لا يحبه إلا السعيد الخيّر من الناس، الذي يعرف السعادة والخير بالحقيقة فلذلك يتقرب إليه بهما جهده ويطلب مرضاته بقدر طاقته، ويتقبل أفعاله بنحو استطاعته، ومن أحب الله تعالى هذه المحبة وتقرب إليه هذا التقرب وأطاعه هذه الطاعة، أحبه الله وقربه وأرضاه، إن هذه المحبة هي المحبة

الالهية، ويعلل مسكويه ذلك بأن الجوهر الالهي الذي في الإنسان إذا صفا من كدورته التي حصلت فيه من ملابسه الطبيعة، ولم تجذبه أنواع الشهوات وأصناف محبة الكرامات الاجتماعية، اشتاق إلى شبهه ورأي بعين عقله الأول المحض الذي لا تشوبه مادة فأسرع إليه، وحينئذ يفيض نور ذلك الخير الأول عليه فيلتذ به لذة لا تشبهها لذة، ويصير إلى معنى الاتحاد الذي وصفناه استعمل الطبيعة البدنية أم لم يستعملها إلا أنه بعد مفارقته الطبيعة بالكلية أحق بهذه الرتبة العالية، لأنه ليس يصفو الصفاء التام إلا بعد الحياة الدنيوية، ومن فضائل هذه المحبة الالهية أنها لا تقبل النقصان ولا تقدم فيها السعاية، ولا يعترض عليها الملك ولا تكون الابين الأخيار فقط.

يكاد أرسطو، أن يقرر استحالة إمكان قيام صداقة كاملة، أو أنه يشك بتحقيق قيام صداقة كاملة، أرسطو يقول أنه ليس بإمكان الشخص أن يكون محبوبا ومصادقاً صداقة كاملة من أناس كثيرين كما أن الإنسان بطبعه لا يمكن أن يتجه إلا إلى شخص واحد، ومع هذا إذا فرض أن أعجب أحدهم بآخر، واتجه كل إلى صديقه اتجاهاً كلياً، فتأتي بعدها خطوات تالية، كأن يجرب كل منهما الآخر، وأن يكونا دائماً على تماثل ووفاق في الخلق ولكن هذا دائماً على غاية في الصعوبة، أما الأمر في صداقة اللذة والمنفعة فيمكن لشخص أن يرضي مجموعة من الناس لا سيما الفتيان، كما أن المرء إذا كان صاحب جاه أو مال أو سلطان فما أكثر أصدقائه وتنوع أهدافهم وغاياتهم، ومع أن أرسطو يرى صداقة اللذة والمنفعة أنهما غير كاملتين وغير ثابتتين إلا أنه يشير بأنهما تبنيان على المساواة في الأخذ والعطاء بين المتحابين.

يقرر أرسطو، أنه ليس ممكناً، أن يكون المرء محبوباً من أناس كثيرين بصداقة كاملة، كذلك ليس ممكناً حب أناس كثيرين في آن واحد، يعلل أرسطو ذلك بأن الصداقة هي ضرب من الإفراط في نوعها، لأنها ميل يتغلب على سائر الميول ولا يتجه بطبعه إلا إلى شخص واحد، وليس من الهين أن أشخاصاً عديدين يعجبون دفعة واحدة

شخصاً واحداً بعينه، كما أن هذا ربما لا يكون حسناً، أنه ينبغي أيضاً أن يجرب بعضهم بعضاً، وأن يكونوا على وفاق في الخلق وهذا هو دائماً في غاية الصعوبة.

مسكويه ينصحنا بالتبصر والتأني باختيار الأصدقاء لا سيما وأن الإنسان — بحسب رأيه — يظهر للآخرين على غير حقيقته، فيبذل ماله وهو بخيل ليقال هو جواد، ويقدم في بعض المواطن على بعض المخاوف ليقال هو شجاع، مع هذا لا ينصح مسكويه بالإكثار من الأصدقاء وذلك لصعوبة الوفاء بحقوقهم جميعاً، وربما تنتهي به الحال فيقصر بحقهم، وبهذا فهو ينصح بعد التبصر في أخلاق الآخرين واختبار سجاياهم والابتعاد عن أولئك الذين يميلون إلى اللذات والغلبة والتعالي، أو أولئك الذين يميلون إلى اللهو والمجون، فإذا وجد الإنسان شخصاً واحداً برئياً من هذه الخلال، فليتخذه صديقاً، وليحتفظ به وليرغب فيه، وينتهي مسكويه إلى القول: وليكتف بواحد، فإن الكمال عزيز، ابن المقفع من مفكرينا، الذي ينصح بالإكثار من الإخوان، بشرط أن يكون هؤلاء الأصدقاء من الأخيار وليس الأشرار لأن المودة بين الأخيار سريع اتصالها بطئ انقطاعها، أما المودة بين الأشرار سريع انقطاعها، بطئ اتصالها.

ابن المقفع إذن لا يمنع من كثرة الأصدقاء، ولكنه يفرق بين صديق الخير وصديق السوء، يعطي ابن المقفع أهمية كبيرة لإخوان الصدق، حتى أنه يقول إنهم خير مكاسب الدنيا، لأنهم زينة في الرخاء وعدة في الشدة ومعونة المعاش، ولهذا فابن المقفع يلح في العمل على اكتسابهم وابتغاء الوصول إليهم، ابن حزم الأندلسي لا ينصح بالاستكثار من الأصدقاء، لأن الحصول عليهم لا يتم إلا بالحلم والجود والصبر والوفاء والمشاركة والعفة وحسن الدفاع وتعلم العلم، يضيف ابن حزم قائلاً: إننا نعني بالأصدقاء إخوان الصفاء، الذين يتحابون في الله عز وجل، وإن المتنادمين على الخمر والمجتمعين على المعاصي ليسو أصدقاء لأنهم منحرفون إلى طريق الرذيلة.

يأتي أرسطو على ذكر الصداقة التي تتعلق بشخصين يختلفان في السن أو المنزلة كالوالد وولده والزوج وزوجته والرئيس ومرؤوسه، إذ على الرغم من أنه يرى أن هناك فروقات بين هذه الأنواع من المحبات، فالمحبة بين الآباء والأبناء تختلف عنها بين الزوج وزوجه، كذلك فهي تختلف عن المحبة بين الملك ورعيته، أرسطو يرى أن الصداقة متينة بين الآباء والأبناء، لأن الآباء أعطوا الحياة للأولاد، كما أن أرسطو يرى أن على الرئيس ان يكون محبوباً من مواطنيه أكثر مما يكون هو محباً لهم.

يذهب أرسطو إلى أن الملك يحب رعاياه بسبب علوه، الذي يسمح له بأن يتفضل عليهم، لأن يسعد الناس الذين يحكمهم ما دام أنه بما له من الفضائل يسعى إلى سعادتهم، كما يعني الراعي بقطيعه، السلطة الأبوية ينبغي أن تكون هكذا أيضاً مع أن أرسطو يعطي للأب قدراً أعظم الوالد يعطي أولاده الغذاء والتربية والأب هو الراعي الأول في حكم أبنائه، وهذا هو الذي يحملنا على تعظيم والدينا.

عندما يعالج أرسطو العلاقة بين الصداقة والمساواة، يرى أنه كلما زادت المسافة وهنت الصداقة، فمثلاً الملوك لا يفكر أحد أن يكون صديقهم، كذلك ينطبق المثل على أهل الثروة والجاه والمنزلة العالية، يعرج أرسطو بعد ذلك، مذكراً بعدم قيام صداقة كاملة، وذلك أن الشخص يريد الخير لنفسه قبل أن يريده لصديقه، لأنه على الرغم من أن الأصدقاء يتمنون خيراً أصدقائهم، الذين يحبونهم، ولكن لا يريدون أن يكونوا خيراً منهم، لأن المسافة ستتسع وتنقطع الصداقة.

مسكويه يعتقد أن المساواة مفقودة في صداقة ذوي السلطان، لأن هؤلاء يظهرون الصداقة وكأنهم متفضلون ومحسنون إلى من يصادقونهم، يحيى بن عدي التكريتي أستاذ مسكويه، ينصح الملك أن يعم أصحابه وأعوانه بماله، كذلك إذا جمع إخوانه وأصدقاءه إلى طعامه وشرابه، ألا يشعرهم بأنه جمعهم ليكرمهم بطعامه وشرابه، وإنما يشير إلى أن جمعه لهم، للإنس بهم والسرور بمعاشرتهم، أبو بكر الرازي يروم

العمل للجميع، ولا يرضى أن يعيش قسم من المجتمع عالة على الآخرين، أي أنه لا يريد أن يستغل أحد أحداً فهو يقول: فإن مع أحدها – وهو التقصير – الذلة والخساسة والدناءة والمهانة، إذا كان يؤدي إلى أن يصير عيالاً وكلاً على غيره، ومع الآخر الكد الذي لا راحة معه، والعبودية التي لا انقضاء لها، ذلك أن الرجل متى رام من صاحبه ينيله شيئاً مما في يديه من غير بدل ولا تعويض، فقد أهان نفسه وأحلها محل من أقعدته الزمانة والنقص من الاكتساب.

مسكويه يرى أن محبة الولد للوالد تبقى ناقصة، حتى يدرك الولد ويعقل فضل والده، فيزيد تعظيمه ومحبته له، ولهذا أوصى الله الولد بوالده، ولم يوصي الوالد بولده، ولهذا فعند مسكويه أن يعرف كل حقه فيكرم الأب كرامة أبويه، ويكرم السلطان كرامة سلطانية، ويكرم الناس بعضهم بعضاً كرامة أخوية.

ويجب أن يحفظ هذا بالعدالة لأن إذا زاد أو نقص تعرض للفساد، وتتحول المحبة إلى التباغض، وتبطل الصداقات، حين ينهي مسكويه ذلك بنهجه الإسلامي فيقول: إن ذلك ضد النظام الذي رتبه الله لخلقه، ورسمه بالشريعة، وأوجبه بالحكمة الخالدة، كما أن المحبة الحقيقة – عند مسكويه – والتي لا تشوبها شائبة، هي محبة العبد لخالقه، وهذه المحبة تتصل بها الطاعة والتعظيم، ويتلوها محبة الوالدين، أما محبة الحكماء، فهي بنظره أشرف وأكرم من محبة الوالدين لأن شرفهم يكون لنفوسنا، وعن طريقهم نصل إلى السعادة التامة، ولهذا فمحبة طالب الحكمة لمعلمه من حسن محبة الإنسان لربه، وذلك لأجل الخير العظيم، الذي يشرف عليه ويصل إليه، وللرجاء الكريم الذي لا يتحقق إلا بعنايته ولا يتم إلا بمطالعته، فالمعلم – عند مسكويه – إذن والد روحاني ورب بشري، وإحسانه إحسان الفضل على النفس والعقل، ولما كان كل من العقل والنفس أفضل من الجسد، فمحبة الحكيم تقدم على محبة الوالد، ومع هذا فإن على الإنسان أن يعطي كلاً حقه من المحبة والعشرة الطيبة، وأن يعطي كلاً ما

يستحقه من الكرامة وأن يجري أمره مع الأصحاب في توفية حقوقهم، وإعطائهم ما هو خاص بهم.

الصداقة والمحبة إذن بين شخصين، أحدهما أرفع من الآخر، مثل صداقة الوالد لولده، وعلى العموم الأكبر سناً بالأصغر كذلك صداقة الزوج لزوجه، وصداقة الرئيس لمرؤوسه، هذه المحبات بينها فروق وليست هي عينها، مثلاً محبة الوالدين لأولادهم، ومحبة الرؤساء لرعاياهم، كذلك ليست متماثلة محبة الأب لابنه ومحبة الابن لأبيه، ولا محبة الزوج لزوجه، ومحبة المرأة لبعلها، كل واحد من هؤلاء له فضيلته الخاصة، وله وظيفته، أنها إذن ليست إحساسات متماثلة تحصل من طرف ومن آخر، بل قد لا يلزم البتة السعي في تحصيلها إذ يؤدي الوالدون إلى أولادهم ما يجب نحو الأولاد، فالمحبة والصداقة بينهم، هي على أتم ما يكون من المتانة، وهي كل ما يجب أن يكون.

يلفت أرسطو النظر، إلى أن أغلب الناس يؤثرون أن يكونوا محبوبين من أن يكونوا محبين، ولهذا السبب فأكثر الناس يحبون الذي يتملقهم، أن المحبوب يكون محترماً، وإن الاحترام هو ما يسعى إليه الإنسان، ولكن مع هذا، فإن مزية الصديق المخلص، الذي يحب صديقه، إن مثل هذا الشخص جدير بالاحترام، لأن الحب هو الفضيلة الكبرى للأصدقاء، لهذا فكلما كانت المحبة متبادلة بين الأصدقاء قويت صداقتهم ودامت المساواة والمشابهة إذن ضروريتان لثبات الصداقة، لا سيما إذا كان الهدف مبنياً على الفضيلة، إذ أن الصديق الفاضل يجنب صديقه دائماً الوقوع في الخطايا، أما الأشرار فلا تدوم صداقتهم، لأن اللذة المؤقتة والمنفعة المتبادلة هي هدفهم وليست الفضيلة.

يقرر أرسطو في هذا الشأن، أن كل واحد منا، إنما يريد الخير لنفسه قبل كل شيء، لهذا نرى أن أكثر الناس يؤثرون الغير بحبهم على أن يحبوا هم أنفسهم، ومن أجل ذلك نرى الناس بعامة — يحبون الملقين، فإن الملقن هو صديق لمن هو أرفع قدراً

منه، أو على الأقل يتصنع أن يكون نحوه في حالة انحطاط، ويتكلف أنه يحب أكثر من أنه محبوب.

يتفق مسكويه وأرسطو، أن الصداقة لا تتم إلا بالاجتماع، أما المحبة أو الصداقة التي تتأتى عن طريق القرابة فإنها مشتقة من المحبة الأبوية، لأن الآباء يحبون الأبناء لأنهم جزء منهم، والأولاد يحبون آباءهم، لأنهم منحوهم كل ما هم عليه، وفي كل الأحوال، فإن الآباء يحبون أبناءهم أكثر مما يحب الأبناء آباءهم، الأخوة يحبون بعضهم لأنهم من أرومة واحدة، وربما كان الوفاق وتقارب السن أن يكون الصداقة بين الأخوة، أبناء العمومة كذلك، يتحابون على درجة أصول القربة المشتركة بينهم، والزوج وزوجه يتكامل حبهما إذا كان كل منهما صالحاً، فتضاف فضيلة كل منهما إلى الحب والمودة المتبادلة بينهما.

وهكذا يطنب أرسطو، في الصداقة أو المحبة التي تتولد من القرابة أن يقول أن كل المحبات التي من هذا القبيل، يظهر أنها مشتقة من المحبة الأبوية، الوالدان يحبان أولادهما، لأنهم جزء منهما، والأبناء يحبون والديهم، لأنهم أخذوا عنهما كل ما هم عليه. في هذه الحالة يعلم الوالدان أن الأولاد قد جاءوا منهما، أكثر من علم الأولاد، بأنهم جاءوا من والديهم، إن الكائن الذي منه جاءت الحياة هو أشد ارتباطاً بمن قد ولده من ارتباط ذلك الذي تلقى الحياة بمن أعطاه إياه.

وهكذا فإن الوالدين يحبان على الفور أولادهما، ومن أول لحظة من ولادتهم، في حين أن الأولاد لا يحبون والديهم إلا بعد كثير من النمو ومن الزمن، وهذا يفسر لماذا تحب الأمهات بحنان أشد، الوالداون يحبون أولادهم كحبهم أنفسهم، لكن الأولاد لا يحبون والديهم، إلا لأنهم جاءوا منهم، الأخوة يحبون بعضهم بعضاً، لأن الطبع قد جعلهم يولدون من أبوين بعينهما، على أن الاشتراك في التربية والتكافؤ في السن يساعدان كثيراً على تنمية الصداقة، التي تؤلف بينهم، إن حب الأبناء لآبائهم والناس

للالهة يشبه أن يكون قياماً بواجب نحو موجود منعم ورفيع، إن الوالدين والآلهة، أعطونا أكبر النعم فهم مصادر وجودنا، وهم يربوننا منذ الولادة، ويكفلون لنا التربية.

على الرغم من أن أرسطو يشترط المساواة التامة بين الصديقين، ولكن مع هذا فهو يقول أن الأطيب يجوز أن يكون صديقاً للذي يقل عنه طيبة، إن للمساواة في المحبة أهمية كبيرة في دوام الصداقة، أما إذا لم تكن المساواة حاصلة في المحبة، فلا تبقى الصداقة ولا تدوم إلا بقدر من المحبة يتميز به أحد الصديقين العتاب لا يحصل بين الأصدقاء الأخيار، ولكن الشكوى تكثر عند أولئك الذين يرجون من صداقاتهم لذة أو منفعة ولا سيما محبة المنفعة فهي معرضة للعتاب وللوم لأن كلاً من الصديقين يريد أن يحوز المنفعة لنفسه على حساب الآخر.

يلتفت أرسطو إلى طبيعة العلاقة إذا كان أحد الصديقين أرفع من الآخر، وما تنتج عن ذلك من اختلافات ربما كل من الاثنين يتصور أنه يستحق أكثر مما ينال صديقه، فيحدث بينهما الشقاق، وربما تنقطع الصداقة لأن الشخص الأنفع لا ينال خطأ من المساواة، فتتحول الصداقة إلى استرقاق، إذ على الرغم من أن الرجل الفاضل، والذي له حظ وفير، لا فائدة ترجى منه إذا لا ينتفع بذلك الفضل صديقه، يقرر أرسطو، أنه يستحيل أن يؤدي كل امرئ للآخر على وجه التمام، يضرب مثلاً لذلك، فيقول إذ على الرغم من فضل الوالدين والألهة علينا فمن ذا الذي يستطيع أن يوفيهما حقهما بالتمام والكمال.

ربما تقع اختلافات في العلاقات التي يكون فيها احد الاثنين أرفع من الآخر، فإن كل واحد منهما يظن أنه يستحق أكثر مما أعطي، متى وقع هذا الشقاق، لا تلبث الصداقة أن تنقطع، إن الذي هو بالحقيقة أرقى من الآخر، يرى أن يكون له زيادة عن الآخر ما دام أن النصيب الأوفر يجب أن يؤول إلى الاستحقاق وإلى الفضيلة، إن الذي هو

أنفع الاثنين، يتصور من جانبه هذا التصور بعينه، لأن من المقرر بحق الإنسان الذي يؤدي أية خدمة نافعة، لا يمكن أن يحصل نصيباً مساوياً، ويؤول الحال إلى أن تصبح هذه العلاقة تكليفاً واسترقاقاً لا صداقة حقيقية، متى لم تكن المزايا التي تجيء من هذه الصداقة متناسبة مع قيمة الخدمة المؤداة.

يعطي أرسطو مثالاً على ذلك، في إدارة الدولة، فيقول أن إدارة الممالك لا شرف فيها البتة لمن لا يؤدي أية خدمة للجمهور، إن مال الجمهور لا يعطى إلا إلى الرجل الذي قدم الجمهور، وإن مال الجمهور هنا هو الشرف والاعتبار.

إن الصداقات لا يكون فيها الصديقان متشابهين تماماً، فالذي يحفظ لهما توازنهما، هو معيار للأخذ والعطاء، أو بكلمة أخرى، يكون هناك تناسب في إسداء المعروف كل منهما للآخر، في كل الأحوال، فإن الواجب على الصديق أن يحاسب نفسه فيما إذا لقي الخير من صديقه، أن يقابله بالخير، أن أرسطو نفسه لا يستطيع أن يقرر كيف يفي المرء فضل صديقه، فيقول أن هذه المشكلة شائكة يكتفي بالقول أن على الشخص أن يبرئ ذمته ويفي دينه مع أنه لا توجد مقاييس حقيقية في القيام بوفاء حق المعروف لذلك الغير، الذي أسداه، مع ذلك توجد اعتبارات أخلاقية عامة، فمثلاً يجب أن نبدي الاحترام للذين هم أكبر سناً منا، كذلك ينبغي الصراحة والإخلاص مع الأخوة وأن يؤدي مع الأنداد ما أمكنه من الرعاية الواجبة عليه.

أما مسكويه، فيقيس أخلاقية الصديق، بالاستفسار عن حالته مع والديه وأخوته وعشيرته فإذا كان صالحاً معهم، فيرجى منه الصلاح، وإلا فالبعد منه أولى، ينحو مسكويه بعد هذا منحنى إسلامياً — كعادته — في معالجة الأمور، فيقول: ثم نتبع أمر هذا الشخص، فإذا كان قد شكر من يجب عليه شكره أو كفره بالنعمة؟ هل كافأ على ما لاقاه من إحسان؟ أو أثنى على صاحبه وأعتد به؟ ثم يقول مسكويه بأسلوب المتوعد للكافرين بالنعمة: وليس شيء أشد إحباطاً للنعمة من الكفر، وحسب

ما أعده الله للكافر نعمته من النعم، مع تعاليه عن الاستضرار، بالكفر ولا شيء أجلب للنعمة، ولا أشد تثبتاً لها من الشكر، وحسبك ما وعد الله به الشاكرين من استغنائه عن الشكر، فتعرف هذا الخلق ممن تريد مؤاخاته، واحذر أن تبتلي بالكفور للنعم، المستحقر لأيادي الأخوان وإحسان السلطان.

ولا بأس أن أعرج إلى مفكر إسلامي كبير، له أثر ه في الفكر الإسلامي أنه الغزالي، الذي يؤمن أن شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع، ويستشهد بالحديث النبوي الشريف: (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)، الغزالي يرى أن الإنسان يحب صديقه لينال من ذاته غير ذاته، فيكون وسيلة إلى محبوب غيره، والوسيلة إلى المحبوب محبوب، وما يحب لغيره كان الغير هو المحبوب بالحقيقة، وكذلك أن يحب صديقه لا لذاته بل لغيره، كمن يحب أستاذه وشيخه، وعند الغزالي، أرقى أنواع المحبة، إن يحب الإنسان الله وفي الله لا لينال منه علماً أو عملاً أو يتوسل به إلى أمر وراء ذاته.

وتواجه أرسطو مشكلة أخرى، تخص علاقة الصديقين، وكيف الأمر بهما، إذا لم يستطيعا أن يتواصلا بينهما تماما؟ أم يبقيان على نوع معين من الترابط؟ إذ ربما الخدع أحد الصديقين بالآخر، فمثلاً يكون أحد الاثنين لا يحب إلا من أجل اللذة والمنفعة والآخر يحبه حباً قلبياً، أو أن أحدهما يقدم للآخر حبه وإخلاصه كاملين، بينما الآخر لم يفعل شيئاً تجاه صديقه.

ومع أن أرسطو يرجع إلى الأخذ بالمساواة والمشابهة بين الأصدقاء، ولكن الصعوبة تكون عندما تبعد المسافة بين الصديقين، كأن تزيد فضيلة أحد الصديقين ويبقى الآخر قاصراً، فهنا تختلف الإحساسات فيما بينهما أيضاً، ومن دون تبادل الإحساسات لا تكون صداقة مطلقاً، ولكن مع هذا فأرسطو لا ينصح بقطع العلاقة الفورية مطلقاً، فيرى مساعدة الصديق وإصلاحه والعناية به، أما إذا لم يعد هناك أمل في الإصلاح،

وغدت المسافة كبيرة، واختلفت المشابهة فلا بأس إذن في أن يقطع المرء علاقته بصديقه هذا أو يبتعد عنه.

إن أرسطو يرى في قطع العلاقة معاملة قاسية، أن تكون مع هذا الصديق وكأنك لا تعرفه من قبل، فإذن ينبغي الاحتفاظ بذكرى العلاقة القديمة، بل المفروض في هذه الحالة أن يكون الإنسان أشد عطفاً على صديقه إذا فاقة في الفضيلة، لا سيما وهو يرتبط معه في ماض واحد، أما القطيعة التامة، فيجيزها أرسطو إذا أخطأ الصديق بحق صديقه خطأً لا يغتفر.

أما مسكويه في هذا المجال، فلا ينصح الإنسان الذي أعجبته عند صديقه كثير من الفضائل، بأن يتبع صغار عيوبه لأن كل إنسان — برأيه مسكويه — لا يخلق من المعايب، كما أنك ترى فيه صغار المعايب، فربما هو يرى فيك الشيء نفسه ولهذا فعلى الاثنين أن يغض عن الهفوات لأن الشخص الذي يتبع في كل صديق صغار معايبه لا يبقى له صديق وسيبقى يعيش وحده، كما أن مسكويه ينهي نصائحه في هذا الشأن فيقول: واحذر عداوة من صادقته أو خالطته مخالطة الصديق، ثم يستشهد بقول الشاعر:

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب

إلاحظ أن بعض مفكري الإسلام، لهم رأي في هذا الشأن، سواء منهم الذين سبقوا مسكويه أو أتوا بعده، هذا ابن حزم الأندلسي، يرى أن العتاب يقوي العلاقة بين الصديقين، ويشبه العتاب مع الصديق كالسبك للسبيكة، فهو يقول: استقبال من عاتبك، كما أنه ينصح بعدم إفشاء سر الصديق، ولهذا فهو يقول: من أفش سرك فقد خانك. إن ابن حزم ينصح الإنسان أن يعامل الآخرين في كل الأحوال أحسن معاملة

ويجد ابن حزم الصداقة بأن الرجل يسوؤه ما ساء صديقه ويسره ما سره، وإن الذي يقصر عن هذا الحد، فهو ليس صديقاً، ابن حزم يرى، أن كل ناصح صديق، بينما ليس كل صديق ناصحاً، الغزالي يحذر من كثير من الآفات الاجتماعية، التي تسبب القطعية بين اثنين، مثل المزاح، ففي رأيه أن الإفراط في المزاح يكثر الضحك ويميت القلب ويورث الضغينة ويسقط المهابة والوقار.

الحسد بين الأصدقاء يورث البغضاء والقطعية، كذلك يذكر الغزالي، ابن الكبر هو أن يرى الإنسان نفسه، فوق غيره في صفات الكمال، فيحصل فيه نفخة وهزة من هذه الرذيلة، كذلك يذم الغزالي العجب واستعظام النفس، ويرى الغزالي أن إصلاح أخلاق النفس يكون بالمجاهدة الرياضة. أبو يوسف يعقوب الكندي له فلسفة في الصداقة، فيقول: الإنسان يجب أن يكون خيراً مع الأصدقاء والأعداء، وإن إنسان الخير، هو الذي يحب أن يملك صديقه ما يملك هو نفسه، بينما الخساسة تتجسم بالذي يحب الشر للأصدقاء، ابن المقفع يعتقد أن الأخوان الثقات هم الذين يصدقون القول حتى في عيوب الصديق ويخلصون له النصيحة في أموره.

إن ميزات الرجل الصالح — عند ابن المقفع — من خلال علاقاته بالآخرين، أن يكون مستوراً لا يشيع ذنوب الآخرين، كذلك يكون سمحاً صادقاً النصيحة إذا استشير، مجتهداً للرأي، ويكون دائماً بجانب الحق لأن من أهم ما يستطيع أن يحصل عليه الإنسان في هذه الحياة، هم الإخوان الصالحون، ابن المقفع يقول، أن أعدل السير، أن يقيس الإنسان بنفسه، فيعطيهم مثل ما يحب أن يعطوه ويقابلهم بمثل ما يريد أن يقابلوه به.

يكرر أرسطو دائماً أن الصديق هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك، ولهذا فإن شعور المرء الحقيقي نحو صديقه يتأتى من شعوره المرء نحو ذاته، أنه يحب صديقه حباً نزيهاً كما تحب الأمهات أولادهن، فهو إذن يتحد مع صديقه في الذوق، حتى ليسر عند

سروره ويحزن لحزنه، وهذه بالحقيقة مزية الرجال الأخيار لأن متى كملت فضيلة الرجل، يحب صديقه كتلك المحبة التي يشعر بها تجاه نفسه، أي أن حب الصديق ينبع من حب المرء لذاته.

أما الأشرار من الناس، فهم لا يحبون أنفسهم، وإذا تذكروا شيئاً من ماضيهم، فلا يذكرون إلا الأشياء المؤلمة وإذا نظروا إلى المستقبل فلا يرون تلك المقاصد النبيلة، ولذا فهم لا يشعرون تجاه أنفسهم بعاطفة الحب، فمن غير الممكن إذن أن يشعروا بأي محبة تجاه الآخرين، إلا إذا اجتنب طريق الرذيلة كلياً، وحاول جهد إمكانه أن يكون فاضلاً، فيستطيع بعد ذلك، أن يحب نفسه أولاً ثم يشعر بحب للآخرين.

يربط أرسطو العطف بالصداقة، أو بكلمة أخرى بما يكون العطف أساساً للصداقة، ومع أن المحبة تنمو تدريجياً، وبعد مرور تجارب، والعطف إحساس فجائي، يأتي طفرة واحدة، ولكن لا يمكن لشخص أن يصادق آخر، من دون أن يحس بعطف تجاه الآخر، ومن دون أن يشاركه الآخر بالعطف أيضاً، ومع أن العطف وحده ليس صداقة، ولكن تبادل العطف واستمراره مع الزمن يكون الصداقة الحقة، صداقة الأخيار لا صداقة لذة ولا صداقة منفعة، لأن العطف لا يستمد أصله من لذة ولا من منفعة وإنما العطف تثيره الفضيلة تجاه الصفات الحميدة والفضائل، التي نجدها في الآخرين.

لا بأس أن أشير إلى رأي يحيى بن عدي، وهو أستاذ مسكويه فهو يعطي أهمية كبيرة لتأثير الأصدقاء بأصدقائهم، إذا أن الإنسان برأيه يتأثر بمن يحيط به، ومن يخالطه إيجاباً أو سلباً، وتأتي فكرة ابن عدي هذه من نظريته في أن الأخلاق تكتسب، جميلها وقبحها، ابن عدي ينصح بفضيلة سلامة النية مع الآخرين واعتقاد الخير بجميع الناس وفي الوقت نفسه يحذر من إضمار الشر للغير، واستعمال الحيلة والمكر والخديعة في المعاملات، إن من فضائل الصديق، التي يراها ابن عدي، أنه إذا رأى

الإنسان صديقه يحتاج إلى ما لا يقدر عليه لإصلاح شأنه أو لدفع محنة نزلت به، وكان ذلك الإنسان قادراً على إسعاف صديقه، فعليه أن يبادر بفضيلة مساعدة صديقه، قبل أن يسأله الصديق العون والمساعدة.

علاقة المحسن والمحسَن إليه، قضية ينتبه إليها أرسطو بدهشة، لأنه يرى أن المحسنين يحبون ويرعون المحسنين إليهم، أكثر بكثير مما يحب هؤلاء أولئك، ويقول أن هذه مفارقة لا يصدقها العقل أو الأمر، لأن الأمر أن يكون الأولون دائنين والأخيرون مدينيين أرسطو يحلل الحالة فيقول يظهر كما أن المدينيين يتمنون زوال الدائنين، بينما الدائنون يرون أنهم أسدوا معروفاً لهم بالجميل الذي أسدوه لهم، مع العلم أن هؤلاء قلما يفكرون بالنعم التي أسديت لهم ويفكرون فيما يجب عليهم لهم من المقابل.

أرسطو يرى أن هذا من صميم الطبع الإنساني ومطابق للضعف الإنساني، فإن الإنسان يريد أن يتقبل المعروف لا أن يصنعه، إذا كان الذين يصنعون المعروف يحبون المحسن إليهم، على الرغم من أن الأخيرين غير قادرين على رد المعروف، فالمسألة تشبه صنع الفنانين مع أعمالهم، والشعراء مع أشعارهم، وشعور النساء تجاه أولادهن.

الشخص المنعم عليه، هو صنيعة المنعم، والصانع يحب صنيعته أكثر مما يحب الصنيعة صانعه، وذلك للجهد الذي قام به الصانع تجاه عمله. والملاحظ أن الإنسان يكون أكثر تعليقاً بالشيء الذي كلفه تعباً وجهداً، يقول أرسطو لو أن القطعة الفنية نطقت لما شعرت بالحب نفسه الذي يكنه لها الفنان، وهذا يذكرنا بأسطورة بجماليون، ومثال أخر نرى الأشخاص الذين حصلوا على أموالهم بأنفسهم، أكثر حرصاً عليها من أولئك الذين جاءتهم عن طريق الإرث ولهذا فإن المحسن إليه لا يرى أية مشقة، بينما المنعم يكلفه ذلك جهداً ومشقة.

وهكذا نرى أن أرسطو يذهب إلى أن المنعمين يحبون من أحسنوا إليهم أكثر مما يحب أولئك الذين قبلوا المعروف ممن أسدوه إليهم يقول أرسطو أن الظاهر المعقول ينبغي أن يكون العكس، ولكن واقع الحال، هو كما ذهب إليه أرسطو، يعلل أرسطو ذلك لأن الدائن يود بقاء مدينة ليرد عليه دينه، بينما المدين لا يهمه أمر الدائن.

أرسطو يعتقد، أن الصداقة مرتبطة بالعدل، لأن هكذا يتعامل الأصدقاء في السفر، أو إذا كانوا جنباً إلى جنب في حرب، يعبر أرسطو غير ذلك قائلاً، إن كل شيء مشاع بين الأصدقاء، ما دامت الصداقة تنحصر على الخصوص في الاجتماع والعيش المشترك يذهب أرسطو إلى أن الناس يجتمعون لتحصيل منفعة عامة وكل واحد ينتفع من المرافق بالنصيب النافع لوجوده الخاص، وهكذا فإن المجتمع السياسي غرضه المنفعة المشتركة، سواء كانت لمبدئه عند التكوين أم لحفظه بعد ذلك، وهذا ما يبتغيه الشارعون، والعادل في عرفهم هو ما كان مطابقاً للمنفعة العامة.

يلزم أرسطو بعامة، أن يكون الإنسان وفياً لمن أحسن إليه، وإن يعمل على وفاء دينه، على المرء أن يعترف بالإحسان الذي أسدي إليه، وعليه أن يبرئ ذمته نحو من أسدى إليه المعروف، كما لو كان هذا المعروف ديناً عليه، واجب الأداء، أنه من الصعوبة بمكان أن توجد مساواة حقيقية، بوفاء حق المعروف الذي يسديه صاحب المعروف من الصعوبة أن يرد الابن معروف أبيه، والتلميذ معروف أستاذه المهم أن الوفاء يوجب على المحسن إليه، أن يرد دين المحسن.

الإحسان بنظر مسكويه لذيذ محبوب، واللذيذ المحبوب مختار، ولذا يكثر المقبلون عليه العاملون به، كذلك يكثر المتقبلون له والمحتفون به والآخذون عنه، ابن مسكويه يرى محبة المحسن للمحسن. مسكويه ينسب هذه الفكرة صراحة إلى أرسطو طاليس، ثم يقول بعدها، بأن المقرض وصانع المعروف يهتم كل واحد منهما بمن أقرضه واصطنع المعروف عنده، أن المقرض يريد سلامة المقرض لمكان الأخذ لا لمكان

المحبة، فهو يدعو له بالسلامة والبقاء وسبوغ النعمة والكفاية من كل وجه ليصل إلى حقه، وأما المقرض فليس يعني كثير عناية بالمقرض ولا يدعو له بهذه الدعوات وهكذا يتبني أن محبة المحسن أشد من محبة المحسن إليه، وأما المحسن إليه فشهوته للإحسان أشد وأزيد من شهوة المحسن.

يذهب مسكويه بعد ذلك إلى القول، أن المحبة المكتسبة بالإحسان المرباة على طول الزمان، تجري مجرى القنيات التي يتعب بتحصيلها، وما يكتسب منها على سبيل التعب والنصب تكون المحبة له أشد والغنى به أكثر، وهكذا فمن وصل إلى المال بغير تعب، لم يكترث له وبذله في غير موضعه، كما يفعل الوراث ومن يجري مجراه، أما من وصل إليه بتعب، وسافر في طلبه وشقي بجمعه فإنه لا محالة يكون شديد الغنى به والمحبة له، ولهذه العلة صارت الأم أكثر محبة للولد من الأب.

وبهذا النوع من المحبة يحب الشاعر شعره ويعجب به أكثر من عجب غيره كل فاعل فعلاً يتعب به، فهو يحب فعله ذاك، المنفعل لا يتعب كتعب الفاعل، والآخذ منفعل والمعطي فاعل، فمن هذه الوجوه يتبين أن مصطنع المعروف يحب من أحسن إليه.

الفقيه ابن حزم الأندلسي يحذر من شر من أحسنت إليه، على الرغم من أن ابن حزم يقول: ابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك، ابن حزم لا يلبث أن يضيف: أول من أحسنت إليه أول مضر بك وساع إليك، يحلل ابن حزم ذلك، فيقول: إن ذوي التراكيب الخبيثة يبغضون بشدة الحسد، كل من أحسن إليهم إذا رأوه أعلى من أحوالهم، مع هذا فابن حزم ينصح الإنسان أن يعامل الآخرين أحسن معاملة وفي جميع الأحوال.

هل الأفضل إذن، أن يؤثر الإنسان حب نفسه على الآخرين، أو الأحسن أن يحب الآخرين؟ مع أن الذين يفرطون في حب أنفسهم، ندعوهم أنانيين، وأن الأشرار من الناس هم الذين يهمهم ذواتهم فقط، وأن الرجل الفاضل، الذي يعمل الخير في مصلحة صديقه وينسى منفعته الخاصة، ولكن أرسطو يرد أن هذه النظريات تناقض الواقع تماماً، أننا نعجب بالذي يحب صديقه، وأن أحسن صديق — بنظرنا - هو ذلك الذي يريد بإخلاص مصلحة صديقه، ولأجل ذلك الصديق نفسه، ولكن مع هذا، فأرسطو يرى أن الإحساس بالصداقة يبدأ من الفرد ذاته، ثم ينتقل إلى الآخرين، ولذا فإن المرء هو صديق نفسه، وهو أشد صداقة بها من أي كائن كان، وحتى لو تزاحم الناس على الفضيلة فإن رجل الخير يربح ربحاً عظيماً، لأنه يطيع عقله، وحتى لو أن الرجل الفاضل ضحى بثروته لصديقه، فستكون الثروة للصديق، أما هو فسينال الخير الذي هو أحسن مائة مرة من الثروة، وهكذا فرجل الفضيلة يحظى دائماً بالنصيب الأكبر من الخير.

أما مسكويه فيحذر الإنسان الذي تميز بعلم أن يبخل على صديقه بذلك الفن، لأن العلم يختلف عن غيره من متاع الدنيا، فهو لا ينقص إذا أخذ أحد منه، بل أنه يزكو ويزيد ولذا فيقبح بأهل العلم أن يبخلو بعلمهم على الطالبين.

وهكذا ننتهي إلى أن واجب الصديق أن يسدي المعروف إلى أصدقائه، وعلى الخصوص متى كانوا بحاجة إليه ولا يطلبونه، هذا أجمل بالصديقين وأحلى لهما، لذا استطاع المرء أن يساعد بشيء في رغد أصدقائه، وجب عليه أن يحاول ذلك بكل قلبه، لأنهم يمكن أن يكونوا في حاجة إلى مساعدة أصدقائهم، المهم أن حضور الأصدقاء شيء مرغوب فيه، في جميع ظروف الحياة.

يتعرض أرسطو مرة أخرى، إلى مسألة فيما إذا كان المرء السعيد بحاجة إلى الأصدقاء؟ لأن في حالة التعاسة والشقاء يحتاج الإنسان إلى الأصدقاء، يسرون عنه

ويساعدونه ويأخذون بيده، ولكن في حال السعادة، فإن المرء هو الذي يسدي المعروف إلى الآخرين، فهل هو إذن بحاجة إلى هؤلاء الآخرين؟ يرد أرسطو أن الإنسان كائن اجتماعي، ولابد أن يعيش مع الآخرين، لتكتمل إنسانيته، وهذا القانون ينطبق على الرجل السعيد، فليس والحالة هذه أن يعيش بمعزل عن الآخرين فهو إذن بحاجة إلى الأصدقاء، وأولى به في هذه الحالة أن يبدأ بأصدقائه، الذين بهم تتم سعادته، وككائن اجتماعي، فإنه بهم تكتمل إنسانيته.

يبرز أمام أرسطو سؤال، عن العدد الذي يستطيع الإنسان اتخاذه من الأصدقاء، أرسطو ينصح بالاعتدال في عدد الأصدقاء، فلا يستطيع المرء أن يعيش من دون أصدقاء، ولا مع أصدقاء كثيرين بالنسبة لأصدقاء المنفعة، والذين تقيمهم العلاقات الاجتماعية فلا حاجة إلى قدر من أمثال هؤلاء لأن من الصعوبة على المرء أن يدفع جميع صنوف المعروف، وربما يصير أمثال هؤلاء عائقاً للسعادة.

أما الحال مع أصدقاء اللذة، فيكفي منهم القليل، ويشبههم أرسطو بالتوابل للطعام، أما الأصدقاء الأخيار، فرغم أنهم رجال فضيلة، ولكن — بنظر أرسطو — لا يمكن لإنسان أن يعيش مع مجموعة كبير ويقسم وقته بينهم ويشاطرهم جميعاً الأفراح والأتراح، كما أن الإنسان نفسه لا يمكن أن يخلص الإخلاص كله لأشخاص عديدين، يضرب أرسطو مثلاً بالعشق، الذي هو إفراط في المحبة، حيث أنه لا يوجه إلا إلى شخص واحد فقط، كما أنه يشير، إلى أنه لا يشاد بصداقات مشهودة مخلصة، إلا تلك الصداقات المعقودة بين شخصين.

بعد هذا يسأل أرسطو نفسه: هل أن الإنسان أشد حاجة للأصدقاء في السعادة أو في الشقاء؟ يجيب أرسطو على سؤاله: أن الأصدقاء ضروريون في الحالين، لأن كما أن التعساء في حاجة لمن يساعدهم، كذلك السعداء في حاجة لمن يقاسمهم السعادة، إن أرسطو يقرر، أن المرء أحوج إلى الأصدقاء في الرخاء منه في الشدة،إنه بعامة، يحتاجهم

في الحالين، فإذا كان التعساء في حاجة إلى المساعدة، فالناس السعداء في حاجة إلى أن يقاسمهم الغير سعادتهم، ويتقبل نعمهم.

الأصدقاء ضروريون في المصيبة لأنهم يحتاجون الأصدقاء النافعين، حضور الأصدقاء وحده لذة في الضراء، فإن الآلام تهون عندما يتقاسم حملها قلوب مخلصة، إن رؤية المرء لأصدقائه، لذة وراحة له في حالة الشقاء، الصديق عزاء برؤيته وبكلماته، لأن المرء يعرف ما يفرح صديقه ويحزنه، أما إذا كان المرء في بحبوحة النعمة، فحضور الأصدقاء سرور كبير. السعادة تسر قلب الصديق بحضور أصدقائه لأنه من الجميل فعل الخير ومن الجميل أن يتمتع الصديق مع صديقه بالخيرات.

أرسطو يرى أنه ليس من السهل على المرء أن يعمل على الدوام بنفسه وحده، بل أروح من هذا أن يعمل بالأغيار وللأغيار، فإذا العمل هو إلى هذا القدر مقبول بذاته، يصير أكثر استمراراً، وهذا هو ما يجب أن يطلبه الرجل السعيد، الرجل الفاضل من حيث هو فاضل، يلتذ بأعمال الفضيلة، ويكره خطاياه الرذيلة، أشبه بالموسيقار الذي يرتاح للنغمات الجميلة، وتغيظه الردئية، إن من طرق التعود على الفضيلة، أن يعيش المرء مع ناس أخيار لأن ما هو طيب بطبعه هو طيب ومقبول لدى الرجل الفاضل، إن الإنسان الفاضل تجاه نفسه هو أيضاً فاضل تجاه صديقه ما دام أن صديقه ليس إلا نفسه مكررة.

وهكذا نجد أن أرسطو يرى ألا يكون المرء دون أصدقاء، ولا أن يكون ذا أصدقاء مبالغ في عددهم، إن من العسير جداً أن يكون الإنسان مع أشخاص عديدين إلى هذا القدر، مشاطرتهم الأفراح والأحزان لأن عليه أن يتوقع المصادفات الحسنة والسيئة، فيجب عليه أن يفرح مع واحد ويحزن مع آخر، في آن واحد، إن على المرء إذن أن يتخذ عدد الأصدقاء الذين يمكن أن يعيش معهم عيشة إخلاص لا يستطيع المرء أن يكون الصديق المخلص لعدد عظيم من الأشخاص، هذا هو السبب في أن العيش لا يمكن أن

يتعلق بعدة معشوقين في أن واحد، العشق هو كدرجة عليا وإفراط للمحبة، وهو لا يوجه إلا إلى شخص واحد فقط أن جميع الصداقات التي يشاد بذكرها ويعجب في أمرها ما لم توجد البتة إلا بين شخصين.

أما مسكويه فينطلق بالحقيقة، إلى أن الإنسان كائن اجتماعي فهو يحتاج الآخرين، وأن سعادته تكمن عند أصدقائه، وأنه من المحال أن يصل إلى السعادة التامة، بالوحدة والتفرد، السعيد إذن، الذي اكتسب الأصدقاء، واجتهد في بذل الخيرات لهم، مع ذلك، فإن مسكويه لا ينصح بالإفراط في المحبة، ولكنه ينصح بكرم العشرة وحسن اللقاء، وإن الرجل الفاضل يطلب الفضيلة من خلال إقامة العلاقات.

مسكويه بعد هذا، ينصح الإنسان بأن يحسن اختيار الصديق، ولا سيما أن الإنسان يتصنع، ويظهر عكس ما عنده في كثير من الأحيان، يجب إذن اختبار سيرة الصديق في سيرته السابقة مع أهله وزملائه وأصدقائه، مسكويه ينحو منحنى إسلامياً في هذا، فيقول: لا شيء أجلب للنعمة ولا أشد تثبيتاً لها من الشكر، وحسبك ما وعد الله به الشاكرين مع استغنائه عن الشكر، فتعرف ممن تريد مؤاخاته واحذر أن تبتلي بالكفور للنعم المستحقر لأيادي الإخوان.

مسكويه ينصح الذي ينشد الصداقة، أن ينظر في من يريد صداقته، هل يغريه الذهب والفضة ويستهتر في جمعها، وهل يحب الغلبة والترؤس ويفرط في ذلك ولا ينصف أصدقائه، وهل يحب اللهو والمجون؟ مع ذلك، فإن مسكويه يقول أن الكمال عزيز، وإذا صلح صديق مخلص واحد يكفي لأن كثرة الأصدقاء تؤدي إلى التقصير بحقوقهم، يقول مسكويه، بعد هذا أن الذي يحصل على صديق مخلص وفي أن يكثر مراعاته ويبالغ في تفقده، وإلا يستهين باليسير من حقه.

في أوقات الرخاء، يجب لقاء الصديق بوجه طلق ويظهر له البشاشة والارتياح من دون أن يخرج إلى الملق والإسراف كذلك في وقت الشدة، أو أن أصابت الصديق نكبة أو لحقته مصيبة أو عثر به الدهر، فيجب مواساته ومشاركته والتخفيف عنه، بعد هذا يشير مسكويه بوجوب المداومة، كي تبقى المودة على حالة واحدة، وذلك بمراعاة الواجبات وحفظ الحقوق.

مسكويه ينصح الصديق أن يشارك صديقه في وقت الرخاء، أما مشاركته في الضراء فهي أوجب، فتكون المواساة بالنفس والمال، والأعظم أن لا يسأل الصديق صديقه إذا احتاجه تصريحاً أو تعريضاً، بل على الصديق أن يطلع على دواخل صديقه ويسبقه إلى ما في نفسه، ويخفف عنه، ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

يشبه أرسطو الصداقة بالعشق، فكما أن العشاق يلتذون برؤية المعشوقين، كذلك الأصدقاء فإنهم يتلذون برؤية أصدقائهم، ينتهي أرسطو من ذلك إلى أن على الأصدقاء أن يكثروا من اللقاء أو يعيشوا عيشة مشتركة أو يجتمعوا معاً، سواء للشرب والأكل أو للعب أو لدرس الفلسفة، لأن صداقة الأخيار تنمو بالعشرة وعلى العكس صداقة الأشرار، التي تفسد باللقاء، لأنهم لا يتبادلون إلا أشر الإحساسات، ويفسد بعضهم بعضاً في أغلب الأحيان.

أما مسكويه فيرى أن الصداقة نوع من المحبة، إلا أنها أخص منها، وهي المودة عينها، الصداقة، لا يمكن أن تقع بين جماعة كثيرين كما تقع المحبة، أما العشق فهو إفراط في المحبة، وهو أخص من المودة وذلك أنه لا يمكن أن يقع إلا بين اثنين فقط، ولا يقع في النافع ولا في المركب من النافع وغيره، وإنما يقع لمحب اللذة بإفراط ولمحب الخير بإفراط، وأحدهما مذموم أعني اللذة والآخر محمود أعني الخير، الصداقة بين الأحداث مثلاً ومن كان في طباعهم، إنما يحدث لأجل اللذة، فهم يتصادقون سريعاً ويتقاطعون سريعاً، وربما اتفق ذلك بينهم في الزمان اليسير مراراً كثيرة، وربما بقيت

بقدر ثقتهم ببقاء اللذة ومعاودتها حالاً بعد حال، فإذا انقطعت هذه الثقة بمحاورتها انقطعت الصداقة للوقت وفي الحال، أما الصداقة بين المشايخ ومن كان في مثل طباعهم إنما تقع لمكان المنفعة فهم يتصادقون بسببها، فإذا كانت المنافع مشتركة بينهم، وهي في الأكثر طويلة المدة، كانت صداقاتهم باقية، فحين تنقطع علاقة المنفعة المشتركة بينهم وينقطع رجاؤهم منها تنقطع موداتهم، الصداقة بين الأخيار تكون لأجل الخير، وسببها هو الخير، ولما كان الخير شيئاً ثابتاً غير متغير الذات صارت مودات أصحابها باقية غير متغيرة.

وهكذا انتهى إلى القول، أن أرسطو ومسكويه يتفقان على أن الصديق الحق، هو الذي تسره مسراتك وتحزنه أحزانك، إن إحساس المرء بالمحبة تجاه صديقه مستمدة من إحساسات المرء نحو ذاته وإن الصديق الحق من يريد الخير لصديقه، ويفعله عملياً، أن الرجال الأخيار الأفاضل، يمكن اتخاذهما مقياساً لغيرهم لأن آية الرجل الفاضل أن يعمل الخير، لاشك إن كل إنسان يريد الخير لنفسه، ولكن الرجل الخير يفعل الخير مع صديقه كما يفعله نحو ذاته، وباعتبار أن صديقنا هو نحن بصورة أخرى، ولذا يجب أن يسمى أصدقاء، أولئك الذين بينهم هذه الروابط المتبادلة.

مثل هذه الصداقة لا تكون بين الأشرار، لأن كل ما يرومون إليه هو ما تعجبه أنفسهم نحو ذواتهم ليس غير، وإذا كان هناك تشابه بين العطف والصداقة، فإن الصديقين لا يكونان صديقين إلا بعد أن يحسن كلاهما بادئ الأمر بعطف نحو الآخر.

وإذا كانت هناك شكاوي ومعاتبات فإنها تحصل فقط في صداقة المنفعة وحدها، لأن لا محل للمنازعات في الصداقات باللذة لأن كلا الصديقين له ما يرغب فيه في لذة العيش معاً،كذلك أصدقاء الفضيلة فهم يتبادلون فعل الخير، وإن هذا هو خاصة الفضيلة وخاصة الصداقة، ولا أحد يغضب من الذي يحب فعل الخير، أما فيما يخص قطع العلاقة، إذا ما اكتشف احد الصديقين شراً في سلوك الآخر، فلا بأس أن يتأنى

هذا، ولا يتسرع إلى القطع المباشر، لأن الإنسان الفاضل يساعد الآخر ويعتني به، عسى أن يقوده إلى طريق الفضيلة، ويكون هناك أمل في إصلاحه، إلا اللهم إذا تعذر إصلاحه، ففي هذه الحالة يجب الابتعاد عنه.

إن الصداقة الوحيدة الباقية، هي التي توافق الأخلاق والفضيلة، إن الذي يحب من أجل اللذة، والثاني الذي يحب من أجل المنفعة فإن الاثنين وقعا في خيبة مما كانا ينتظرانه، ولما كانت صداقتهما لم تعقد إلا بهذه الأسباب، فقطعها يقع بسبب أن كليهما لم يحصل البتة على الغاية التي لها تولدت علاقتهما، ولذا سرعان ما تنقطع سبل العلاقة وتزول الصداقة. إن الصداقة الفضلى إذن هي صداقة الناس الفضلاء، وإن ذلك هو الخير المطلق وهي اللذة المطلقة اللذان هما في الحق خليقان بأن نحبهما، وأن نسعى في تحصيلهما.

إن المرء الخير الذي يحب صديقه، إنما يحب خيره هو نفسه، لأن الرجل الخير والفاضل متى صار صديقاً لأحد فإنه يصير خيراً لذلك الذي يحبه، كلا الطرفين يحب خيره الشخصي، ومع ذلك فالصديقان يتبادلان عوضاً متساوياً تماماً، سواء في نيتهما أم في نوع الخدمات المتبادلة، لأن المساواة تسمى أيضاً صداقة، وكل هذا الشرائط تتوفر على الخصوص في صداقة الأخيار.

الفصل السابع

الخير والسعادة

الخير والسعادة

يبدأ أرسطو الكتاب الأول (الفصل) من كتابه (علم الأخلاق)، بل أنه يبدأ الكتاب ذاته بالقول، إن الخير هو الهدف الأول للإنسان في هذه الحياة، يردف بعد ذلك مؤكداً، أن جميع مقاصدنا الأخلاقية، غرضها بلوغ الخير.

الغريب في الأمر أن أرسطو يذكر في بداية كتابه (السياسية) أن الإنسان يأتي عمل الخير على الفطرة، وهذا شيء سام وشريف، يعقب أرسطو بعد ذلك أن الإنسان يأتي الشر، ولكن هذا يكون منه استثناء، من غير أن يعترف أنه فعل شراً، يؤكد أرسطو أن الإنسان يعمل الشر عن جهل لا عن فساد، إن وجه الغرابة في فكرة أرسطو هذه، أنها تحاكي نظرية أفلاطون وهي أن الإنسان لا يقدم على فعل الشر مختاراً، النظرية هذه طالما انتقدها أرسطو.

يرى أرسطو أن جميع أفعالنا تهدف إلى شيء أخلاقي نصبو إليه، إلا وهو الخير، يشير أرسطو إلى من عالجوا الفكرة هذه من قبل فيقول إنهم عرفوا الخير: أنه هو موضوع جميع الآمال.

أرسطو لم يذكر اسم الفيلسوف الذي قال ذلك، ولا الجماعة ولا المدرسة الفلسفية أو الفلاسفة، الذين نسب إليهم القول، إن الخير هو أمل الإنسانية، كل الذي يريده أرسطو هنا، هو أن يكون قصد الإنسان خيراً، وأنه يحاول أن يثبت أن الإنسان بفطرته هدفه خير وشريف.

لاشك أن أفلاطون هو الذي يسعى لعمل الخير، وإن يكون هدف الإنسان هو الخير، حتى يوصله إلى الخير الأعلى، أفلاطون لم يكتف بالعمل من أجل الوصول إلى السعادة

أو الاكتفاء بالحصول على السعادة، بل هدفه كان أبعد من ذلك، حينما كان يطالب الإنسان بعمل الخير للوصول إلى الخير الأقصى.

إن من المعروف أن أفلاطون صاحب نظرية: الفضيلة علم والشر جهل، تلك النظرية التي اقتبسها من رأي استاذه سقراط، إن نجابة أفلاطون المثيرة للعجب والأكبار، أنه في جميع كتاباته الفلسفية، ينسب الأفكار إلى أستاذه سقراط.

أعود إلى نظرية أفلاطون، التي تذهب في الرأي، إلى أن الإنسان يأتي الشر عن جهل وليس عن فساد في الطبع، المهم في هذا المقام، أن أرسطو على الرغم من انتقاده نظرية أستاذه نقداً شديداً، فهو الآن يفتتح كتابه (الأخلاق) ليقول إن الإنسان يفعل فعله بالإرادة، إنه يفعل الخير بإرادته، ويفعل الشر بإرادته ولكن عن جهل.

مع ذلك فإن أرسطو هنا يتفق مع أستاذه أفلاطون في أن هدف الإنسان وقصده هو الخير، وأنه لا يفعل الشر مختاراً يبرر أرسطو رأيه حين يشير إلى وجود فروق في غايات الإنسان في أعماله، تكون الغايات في بعض الأحيان هي الأعمال نفسها، وفي بعض الأحيان تكون نتيجة الأعمال وغاياتها أهم من الأعمال كما يوجد كثير من الأعمال، كذلك تكون النتيجة كثيراً من الغايات، الطب مثلاً غايته الصحة وعلم الحرب غايته النصر، وعلم الاقتصاد غايته الثروة.

إن جميع هذه الخيرات الجزئية، التي يريدها ويطلبها الإنسان، لاشك أنها تهدف إلى خير أعلى يشملها جميعاً، ألا وهو الخير الأعلى إن نتائج هذه الخيرات الأولية الجزئية، إنما يبغيها ويدرسها العلم الأساسي، وهو علم السياسة عند أرسطو.

أما مسكويه فيرى أن الخير هو المقصود من الكل، وهو الغاية الأخيرة وقد يسمى الشيء النافع في هذه الغاية خيراً، أما السعادة فهي الخير بالإضافة إلى صاحبها، وهي

كمال له، السعادة إذن خير ما، وقد تكون سعادة الإنسان غير سعادة الفرس، وسعادة كل شيء في تمامه وكماله الذي يخصه.

أما الخير الذي يقصده الكل بالشوق، فهو الخير العام للناس أجمع، أما السعادة فهي خير ما لواحد واحد من الناس، يقول مسكويه إن بعضهم يظن أن السعادة تكون لغير الناطقين، يعقب مسكويه قائلاً: إن كان ذلك فإنما هي استعدادات فيها لقبول تماماتها وكمالاتها، من غير قصد ولا رؤية ولا إرادة.

كل معرفة بنظر أرسطو وكل تصميم يقصده عقلنا هدفه الخير، أرسطو يرى أن كلمة الخير مقبولة عند كل أحد، عند الشخص الأمي وعند الشخص المتعلم، كل منهما يطلق على الخير اسم السعادة، ويعني بالنسبة لهما، أن يكون الإنسان سعيداً، عندما تتوفر له المعيشة الطيبة والأفعال الملائمة الجيدة.

لا بأس أن أذكر، أن أرسطو يفرق بين العامي وبين رجل الحكمة، العامي ربما لا يستطيع أن يتفق مع أهل الحكمة من الناس، إن كثيراً من الناس يضعون السعادة في اللذة أو في الثروة، كما أن الشخص نفسه ربما تتغير نظرته إلى السعادة من حالة إلى حالة، الرجل المريض يشعر أن السعادة في الصحة، والفقير يراها في الثروة.

الرجل الجاهل قد يعجب بمن يتكلم عن السعادة بكلمات رنانة فوق تصوره، حتى لو كانت الكلمات جوفاء لا معنى لها، مع ذلك، فإن أرسطو يشير إلى أفلاطون من غير أن يذكر اسمه، عندما يقول: أن البعض ظنوا أن هناك خيراً أعلى في حد ذاته، فوق هذه الخيرات الخاصة بكل إنسان على حدة، أو التي تصدق على حالة معينة في زمن معين.

مع هذا، فإن ارسطو يذكر ثلاثة انواع او ثلاثة أصناف من المعيشة والحياة:

أولها: الحياة العامية، ذات الطبع الغليظ، التي ترى السعادة في اللذة، أي الاستمتاع بكل ما هو بهيمي ومادي.

الثانية: ذات الاهتمام الاجتماعي والسياسي.

الثالثة: والأخير هي الحياة ذات الاهتمام العقلي التأملي.

إن العقول الممتازة تسعى إلى المجد كما أن الفضيلة هي أولى بالإنسان من الحياة السياسية، إن الفضيلة تبقى ناقصة، إذا كانت منفردة إذ أن الفضيلة تكون بالمشاركة في المجتمع، إن الحياة عند أرسطو إذن، هي الحياة العقلية التأملية، يزدري أرسطو أولئك الناس الذين لا يهمهم من الحياة إلا الثروة، ولا سيما عندما يجهدون أنفسهم باستمرار من أجل مزيد في كسب المال، الثروة هي ليست الخير الذي نريده، بل ينبغي أن تكون وسيلة نافعة لأشياء أخرى.

يرى مسكويه إن الإنسان بين الموجودات كلها، هو الذي يلتمس له الخلق المحمود والأفعال المرضية، أما أفعاله وقواه وملكاته التي يختص بها من حيث هو إنسان وبها تتم إنسانيته وفضائله، فهي الأمور الإرادية، التي تتعلق بها قوة الفكر والتمييز والنظر فيها يسمى الفلسفة العملية.

إن الأشياء الإرادية، التي تنسب إلى الإنسان تنقسم إلى الخيرات والشرور، إن الغرض المقصود بوجود الإنسان، إذا توجه الشخص إلى ما يحصل عليه، فيسمى به خيراً أو سعيداً، أما الذي تعوقه بعض العوائق، فهو الشرير الشقي، الخيرات إذن، بحسب رأي مسكويه تحصل للإنسان بإرادته وسعيه أو بكسبه.

يقول مسكويه بعبارة ناصحة: إن الإنسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص به، لا يشاركه فيه غيره، وهو ما صدر عن قوته المميزة المروية، إن كل من كان تمييزه أصح ورؤيته أصدق واختياره أفضل، كان أكمل في إنسانيته.

أرى من الجدير هنا أن أذكر، أن العبارة السالفة التي أوردها مسكويه على لسانه ومن إبداع فكره، موجودة نصاً في كتاب (تهذيب الأخلاق) ليحيى بن عدي رئيس مناطقة بغداد في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، كان على مسكويه أن يذكر المصدر الذي أخذ منه جوهر الفكرة أزكى له وخيراً.

يذهب مسكويه في القول، إلى أن أفضل الناس من كان أقدر على أفعاله الخاصة به وأشدهم تمسكاً بشرائط جوهره، الذي تميز به من الموجودات، ينبغي إذن أن نحرص على الخيرات التي هي كمالنا، والتي من أجلها خلقنا، وإن نجتهد في الوصول إلى الانتهاء إليها، كما أن علينا أن نتجنب الشرور، التي تعوقنا عنها، وتنقص حظنا منها.

وهكذا فإن سعادة كل موجود عند مسكويه، إنما هي موقوفة على نتيجة أعماله، إن سعادة الإنسان إذن تكون في صدور أفعاله الإنسانية عنه بحسب الرؤية إن الإنسان الذي يستعمل رويته الخاصة به، يكون سعيداً معرضاً للملك الأبدي والنعيم السرمدي. مسكويه باختصار يؤمن أن الخيرات والشرور في الأفعال الإرادية، أما باختيار الأفضل والعمل به، وباختيار الا دون والميل إليه.

يتساءل أرسطو عن جوهر الخير وكيف يحده؟ ومن أي علم هو، ومن أي فن؟ يجيب بعد ذلك فيقول، إن من البديهة أن الخير يتبع العلم الأعلى، الذي هو أساس لجميع العلوم الأخرى ألا وهو علم السياسة.

إن علم السياسة في رأي أرسطو، هو الذي يعين العلوم الضرورية لحياة الأمم، وماذا يجب على أبناء الأمة أن يتعلموه من العلوم التابعة لعلم السياسة مثل علوم الحرب وعلم الإدارة والبيان.

يذهب أرسطو أبعد من ذلك حين يقول، أن علم السياسة هو الذي يشرف على جميع العلوم الأخرى، العلم السياسي، باسم القانون، يأمر ماذا يجب أن يعمل وماذا يجب أن يترك غرضه إذن غرض جميع العلوم الأخرى، فيكون غرض السياسة، هو الخير الأعلى للإنسان.

لابد أن نلاحظ هنا، أن أرسطو أعطى للسياسة مكانة أعلى من علم الأخلاق، على خلاف ما ذهب إليه أستاذه أفلاطون، الذي أولى الأولوية لعلم الأخلاق، وعد السياسة تسير على هدى الأخلاق.

لاشك أن السياسة تهتم بالجموع والأخلاق تهم بالفرد، وهذا هو السبب الذي جعل أرسطو للسياسة الأولوية على الأخلاق، إننا إذا نظرنا نظرة موضوعية متأملة نجد أن المجموع يتكون من أفراد في كل حال من الأحوال، ولهذا يجب وضع القواعد المعينة لكل من الفرد والجماعة.

لا بأس أن أشير هنا، إلى السبب الذي جعل أرسطو يؤمن أن السياسة هي التي توجه باقي العلوم ولا سيما علم الأخلاق فهذا يدل دلالة واضحة على أن أرسطو عاد إلى عقيدة السفسطائيين، الذين وقف أرسطو ضدهم، كما وقف أستاذ أفلاطون، وأستاذ أستاذه سقراط من قبل.

إني أن أردت أن أعطي رأي في هذا الشأن، فإنه مع أفلاطون في أن علم الأخلاق هو الذي ينبغي أن يسود السياسة ويوجه السياسة، ويجب أن تكون السياسة جزء من الأخلاق في كل حال من الأحوال، إن ما هو مهم في هذا الشأن، إن السياسة تبقى غير

مكتملة الأداء إذا لا تأخذ مبادئها من الأخلاق، إن من الصواب أن نقول أن السياسة تهتم بالجماعة لكن القضية ليست قضية عدد إن السياسة توجه الممالك والدول، ولكن السياسة لا تبلغ القصد الكامل ما لم تستعين بنور علم الأخلاق وتهتدي بهديه.

أما أقسام الخير عند مسكويه، فيأخذها عن أرسطو بتصريف وكما رواها في فوريوس، يقول إن الخيرات ما هي شريفة ومنها ما هي ممدوحة ومنها ما هي نافعة، الخيرات الشريفة تكمن في الحكمة والعقل أما الممدوحة مثل الفضائل والأفعال الجميلة الإرادية، والنافعة التي يتوصل بها إلى الخيرات.

الخيرات منها ما هي غايات ومنها ما ليست بغايات، منها ما هو في النفس ومنها ما هو في البدن، منها ما هو مؤثر لأجل ذاته، ومنها ما هو مؤثر لأجل غيره، منها ما هو خير على الإطلاق، ومنها ما هو خير عند الضرورة منها ما هو خير لجميع الناس ومنها ما ليس بخير لجميع الناس، منها ما هو في الجوهر، ومنها ما هو في الكمية منها معقولات ومنها محسوسات.

ومع أن الخير عند أرسطو متماثل، سواء أكان في الفرد أم في الجماعة على أنه يرى أن الخير الذي يحصل في الجماعة أكمل وأتم مما هو حاصل عند الفرد، إن الخير محبوب ومراد أن يتحلى به الفرد أو يسعى إليه الفرد، ولكن يكون أجمل وأقدس عندما يكون في أمة بأكملها.

أرسطو طبعاً في هذه النقطة يخالف أستاذه أفلاطون، إن سقراط يرى أن الفضيلة في الفرد أكمل منها في الجماعة، إنه كان يتحدى جميع الأمم في أن تواسيه في الفضيلة التي يملكها أو التي يتحلى بها.

إن الخير والعادل – كما يرى أرسطو – يدرسها علم السياسة، يشير أرسطو كذلك، إلى أن بعضهم دون أن يذكر اسم هؤلاء البعض يرى أن الخير والعادل لا يوجدان

بالطبع، بل بمقتضى القانون، يعتقد أرسطو أن كثيراً من الخيرات قد تقود إلى ضلالات او بجنبي بعضهم من ورائها شراً، ربما يهلك إنسان بسبب ثروته، كما يهلك أخر لشجاعته، إن الإنسان إذا أراد أن يعالج مثل هذا الموضوع، فإنه لا يحصل إلا على وقائع عامة، كما سيحصل على نتائج عامة أيضاً.

أرسطو يؤمن من أن علم السياسة يدرس شؤون الحياة، وإن الإنسان طالما يريد أن يكون على علم في جميع شؤون الحياة،الشباب في رأي أرسطو غير قادر على درس السياسة حين يوضح ذلك، يقول أنه يقصد بالشباب، شباب السن وثبات العقل، إن الأمر لا يتعلق بالزمن الذي عاشه الإنسان بل فيما إذا كان الإنسان ما زال معلقاً بشهوته، ويحيا تحت تأثير شهوته، هذا يعني أنه ما زال يسير وراء رغباته.

إن من تكون هذه مزيته، لا يستطيع معرفة الأشياء، أو أن يتفهمها، الحال نفسه ينطبق على الذين يغضبون ويفقدون سيطرتهم على أنفسهم، إن الذي يصلح لدرس السياسة أولئك الذين يخضعون رغباتهم وأهواءهم لعقولهم، لأنهم بالعقل وحده، يستطيعون الاستفادة من درس السياسة.

الخير عند مسكويه هو الغاية الأخيرة للإنسان، أما السعادة فهي الخير بالإضافة إلى صاحبها، السعادة عنده إذن هي نوع من الخير، ولكنها بالنسبة للفرد، فهو يقول إن سعادة كل شيء في تمامه وكماله الذي يخصه، إن الخير الذي يقصده الكل بالشوق، هو الخير العام للناس من حيث هم ناس، فهم بأجمعهم مشتركون فيها، أما السعادة فهي خير لواحد من الناس.

لاشك أن الغرض الأسمى للإنسان بإجماع الآراء هو السعادة، إن الخير نفسه الذي يهدف إليه الفلاسفة ويرسمون الطريق للوصول إليه وتمثله على الحقيقة فإن العامي

من الناس يسمى هذا الخير الأعلى السعادة، إن العوام من الناس وربما بعض المستنيرين أيضاً، عندهم طيب العيش وحسن الفعل مرادف لكون الإنسان سعيداً.

يبدو للمتتبع في فلسفة أرسطو، أنه ينحو نحو السعادة أكثر مما يقصد الخير أو الخير الأعلى، الذي كان هدف أستاذه أفلاطون، إنها يضرب مثلاً بالعامي، وكيف تكون الأشياء له وبحسب ما يجد من حيث أنه قد لا يفرق بين الخير والسعادة، أو أن الخير سعادة.

مع ذلك يستدرك أرسطو، فيقول أن العامي بعيد جداً عن أن يكون على وفاق مع الحكماء في هذه النقطة ذاتها، إن العوام يهمهم في الحياة ما يحدث في الحياة اليومية المتغيرة، كالصحة والمرض والفقر والثروة، حين يطلقون على الأشياء كلمات آنية لا تثبت مع الأيام.

إنه يرى أن العوام يرون السعادة في اللذة، إنهم يحبذون العيش بالاستمتاع بكل ما هو مادي، يقسو أرسطو أكثر فيقول إن أكثر الناس هم عبيد شهواتهم، ويختارون بمحض إرادتهم وذوقهم عيشة البهائم.

أرسطو يبقى على رأيه في أن الخير شيء شخصي محض، على أن السعادة تهم المجموع إن العقول الممتازة النشيطة تضع السعادة في المجد، وهذا هو الغرض العام للحياة السياسية، إن الإنسان حين يطلب المجد لنفسه، يبغي إكرام الناس له، لأنه يرى في ذلك الجزاء الوافي للقدرات التي يجدها في نفسه.

حين يستنتج أرسطو أن الفضيلة في أعين بعض الناس أسمى من المجد الذي يسعون إليه، إنه يملل ذلك قائلاً إذا كانت الفضيلة أولى من الحياة السياسية، فإن الفضيلة ستبقى ناقصة، إن الفضيلة الحقة تكون إذن بالمشاركة، إنها وحدها قد تقود إلى الكسل والنوم الطويل، ولا يمكن الإنسان في هذه الحالة أن يكون سعيداً.

أما رأي مسكويه في السعادة، فإن الإنسان روح وجسد، إنه ذو فضيلة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة التي تسمى ملائكة، وذو فضيلة جسمانية يناسب بها الأنعام،إنه بالجزء الجسماني الذي يناسب به الأنعام مقيم في هذا العالم الجسماني السفلي مدة قصيرة ليعمره ويرتبه وينظمه حتى إذا ظفر بهذه المرتبة على الكمال، انتقل إلى العالم العلوي، وأقام دائماً سمداً في صحبة الملائكة والأرواح الطيبة.

إن الإنسان تتم له السعادة بتحصيل الحالين معاً، البدنية والعقلية ما دام إنساناً، أما حين يكون في صحبة الأرواح الطيبة، المستغنية عن الأبدان، فلا يحتاج سوى سعادة النفس فقط، التي هي المعقولات الأبدية، التي هي الحكمة.

السعيد من الناس إذن يكون في أحدى مرتبتين: إما أن يكون متعلقاً بأحوال الجسم ويهمه رضا طلبات البدن ويكون سعيداً بها، وإما أن يكون في رتبة الأمور الروحانية متعلقاً بأحوالها العليا سعيداً بها، إن أي امرئ لم يحصل في إحدى هاتين المنزلتين فهو في رتبة الأنعام.

إن السعيد إذن — في نظر مسكويه — لا محالة، في إحدى هاتين المرتبتين، لا يفوت مسكويه أن يقول، أن أحدهما ناقص مقصر عن الآخر، بسبب الزخارف الحسية التي تعترضه فيما تلابسه، فتعوقه عما يلاحظه، وتمنعه من الترقي على ما ينبغي، وتشغله بما يتعلق به من الأمور الجسمانية، صاحب هذه الرتبة إذن غير كامل على الإطلاق ولا سعيد تام السعادة.

أما السعيد التام، فهو الذي توفر حظه من الحكمة، إنه مقيم بروحانيته بين الملأ الأعلى، يستمد منهم لطائف الحكمة ويستنير بالنور الالهي، فيكون خالياً من الآلام والحسرات، التي لا يخلو صاحب الرتبة الأولى منها.

مسكويه إذن على عادته يمزج الفلسفة اليونانية بالشريعة الإسلامية، أو بالأحرى أنه يبدأ بالفلسفة وينتهي بالشريعة، أو أستطيع القول، أنه بعد أن يؤمن بالمقولة الفلسفية يؤيدها بما يوائمها من تعاليم الشريعة.

إن السعيد التام، يكون مسروراً أبداً بذاته، مغتبطاً بحاله وبما يحمل له دائماً من فيض نور الأول، إنه لا يلتذ ولا يغتبط إلا بتلك المحاسن، ولا يهش إلا لإظهار تلك الحكمة بين أهلها، ولا يرتاح إلا لمن يناسبه في الحكمة والاقتباس منه.

إن من وصل إلى هذه المنزلة، فقد أدرك آخر المسارات وأقصاها، أنه لا يبالي بفراق الأحباب من أهل الدنيا، ولا يتحسر على ما فات، إنه يشتاق إلى ملاقاة من يناسبه من الأرواح الطيبة والملائكة المقربين، إنه يختار التقرب من الله ولا يخالفه في شيء من هواه وشهواته الرديئة. أنه لا ينخدع بخدائع الطبيعة، ولا يلتفت إلى شيء يعوقه عن سعادته، إن الناس الذين يصلون إلى هذه الرتبة، يتفاوتون، أي أنهم يكونون على طبقات كثيرة غير متقاربة.

يردد أرسطو كثيراً في كتبه، ومن ضمنها كتابه علم الأخلاق، أنه يفرق بين الصداقة والحق، وأنه يفضل الحق على الصداقة، إنه طبعاً يقصد في هذا النقد المهذب — الذي لا داعي له — يقصد أستاذه الذي رباه وأحسن إليه، الفيلسوف الكبير أفلاطون، إن أرسطو نفسه، ما كان يستطيع أن يكتب كتبه، ومنها كتابه هذا، لولا اعتماده على كتب أفلاطون الأخلاقية، مع ذلك، فإنه يردد دائماً عبارة، أننا نفضل الحق على الصداقة، إن هذه العبارة أو المقولة نفسها، قد استعارها من أفلاطون، الفيلسوف أفلاطون أول من استعملها وهو ينتقد شعر هوميروس.

وهكذا يبدأ أرسطو نقده لنظرية (المثل) الأفلاطونية، فيقول أن مذهب (المثل) قد وضعه أشخاص أعزاء علينا، ولكن الواجب يدعونها، أن نفرق بين الصداقة (ويقصد أفلاطون) وبين الحق وإن نؤثر الحق.

يذهب أرسطو في القول، أن الذين أدخلوا هذا الرأي (يقصد أفلاطون) لم يفعلوا ولم يقبلوا (مُثلاً) للأشياء التي كانوا يميزون فيها رتبة للسابقية واللاحقية، نقول الماع: إن هذا هو الذي كان يمنعهم من أن يفترضوا (مثلاً) للأعداد، فالخير مقول على السماء في مقولة الجوهر، وفي مقولة الكيف، وفي مقولة الإضافة.

يضيف أرسطو، أن الخير يمكن أن يظهر بصورة مختلفة بمقدار صورة (الكائن) نفسه، الخير في مقولة الجوهر هو الله والعقل، وفي مقولة الكيف إنما هو الفضائل، وفي مقولة الكم هو المقياس، وفي مقولة الإضافة هو النافع، وفي مقولة المتى هو الفرصة، وفي مقولة الاين هو الوضع المنتظم، الأمر كذلك بالنسبة لبقية المقولات حينئذ بالبداهة، الخير ليس ضرباً من العام المشترك لجميعها، إنه ليس واحداً لأنه إن يكنه، فإنه لا يوجد في كل المقولات بل يكون في واحد فقط.

يذهب أرسطو أكثر فيقول، ما دام لا يوجد إلا علم واحد للأشياء التي تندرج تحت مثال واحد، يلزم أن يوجد علم واحد لجميع الخيرات، أرسطو يرى أن الأمر بعيد عن ذلك، لأنه يوجد عدة علوم حتى بالنسبة لخيرات مقولة واحدة، إن الفرصة في الحرب علم الحركات العسكرية، وفي المرض علم الطب، وعلم الجمباز فيها يختص بالتمرينات.

أرسطو هنا لا يكتفي بتوجيه نقده لنظرية الخير عند أفلاطون، بل هو ينتقد نظرية (المثل) بأسرها، أرسطو كل ما يود قوله أو انتقاده لأنه يريد أن يضع نظرية، أن تعبير أفلاطون أكثر صدقاً وحداً، فيما يخص نظرية الخير أم نظرية (المثل) كان

على أرسطو أن يعترف بفضل أفلاطون عليه، غير أن أرسطو لا يعترف أن الإنسان في ذاته والإنسان هما شيء واحد بعينه.

إن من الجدير ذكره، إن أفلاطون حين وضع نظرية (المثل) قصده، المنفعة العملية، إنه أراد أن يحسن فهم الخير وتعاطيه في الحياة العملية إن كتب أفلاطون تشهد بذلك بوضوح تام مثل كتاب (فيدون) وكتاب (القوانين) وكتاب (الجمهورية) ولا سيما ما جاء في الكتاب السابع من الكتاب (الجمهورية) المخصص لنظرية (المثل) التي تسعى لإخراج الإنسان من الكهف المظلم الذي هو فيه. مع ذلك فإن تلميذه أرسطو، ينكر ذاك أو يتغاظى عن أهداف نظرية (المثل) العملية — الواقعية.

مع ذلك يقول أرسطو، يمكن أن يرى من المنفعة أن يعرف الخير في علاقته مع الخيرات التي يستطيع الإنسان تحصيلها وتعاطيها، إننا نستطيع على وجه أحسن، أن نكتشف الخيرات الخصوصية التي تلائمنا، وربما نصل إلى تحقيقها لأنفسنا بسهولة أكثر، متى تنورنا في هذه النقطة.

ويعطي أرسطو أمثلة عميلة، ليبين خطل نظرية (المثل) الأفلاطونية، فيقع هو في المطب الفكري، كان عليه كفيلسوف إلا يقع فيه وإلا ينزلق إليه.

يتساءل أرسطو: ماذا ينفع الحائك والبناء في فنهما الخاص، معرفة الخير في ذاته، ولا كيف يصير المرء كأحسن طبيب أو كأحسن قائد للجيش، بأن يتأمل مثال الخير، أن الطبيب يقدر عادة الصحة، فإنه لا يقدر إلا صحة الإنسان، أو بعبارة أحسن، إنه يقدر على الخصوص صحة شخص بعينه، لأنه لا يطبق الطب إلا على حالات خاصة.

وهكذا يثبت أرسطو أنه على خطأ في نقده لأفلاطون، من حيث يدري أم لا يدري، إنه في الوقت نفسه برهن أن أفلاطون على صواب، إن أفلاطون أوسع أفقاً من

أرسطو، من دون أدنى شك، لأن أفلاطون عد الإنسان والإنسان في ذاته شيئاً واحداً، غير أن أرسطو فصلهما دون أن يدرك أن ذلك مجاف للحقيقة.

عندما يضرب أرسطو الأمثلة العملية في الحائك والبناء والطبيب فإنه يفصل أيا منهما شخصية كإنسان عن كونه إنساناً فنياً أيضاً، إنه حين يفصل في عمل الطبيب، يجرد الطبيب الإنسان من عمل الطبيب الفني، ينسل أرسطو أو تناس أن خلق الطبيب الفني له تأثير كبير على فهم صنعته العملية وتنفيذها على الوجه الأكمل.

أستطيع القول، أن مسكويه حين يعرف الخير أو يتحدث عن الخير، فإن كلامه مزج من فلسفتي أفلاطون وأرسطو، إضافة إلى ما يضيفه مما قد استوعبه من تعاليم الشريعة الإسلامية، وهكذا يبدأ مسكويه القول، أن الخير المحض هو غاية متوخاة لذاتها، أي هو و الأمر المطلوب نفسه المقصود لذاته، إن الأمر الذي هو غاية، ولاسيما غاية في نهاية النفاسة، ليس يكون من أجل شيء آخر، إن أفعال الإنسان إذا صارت كلها إلهية فهي كلها إنما تصدر عن لبالبه وذاته الحقيقة التي هي عقله الالهي، الذي هو ذاته بالحقيقة، وتزول وتنهدر وتموت سائر دواعي طباعة البدنية، بسائر عوارض النفسية وعوارض التخيل المتولد عنها وعن دواعي نفسه الحسية.

هذه الحال هي آخر رتب الفضائل التي يتقبل فيها الإنسان أفعال المبدأ الأول، خالق الكل عز وجل، أعني أن يكون في ما يفعله لا يطلب به حظاً ولا مجازاة ولا عوضاً ولا زيادة لكن يكون فعله بعينه هو غرضه، أي ليس يفعل من أجل شيء غير ذات الفعل وغير ذاته، وهو أن لا يفعل ما يفعله من أجل شيء غير فعله نفسه وذاته نفسها هي العقل الإلهي نفسه.

يضيف مسكويه، أن سبيل الإنسان إذا أبلغ الغاية القصوى في الإمكان من الاقتداء بالباري عز وجل، تكون أفعاله التي يفعلها على القصد الأول من أجل ذاته التي هي العقل الإلهي، أنه لا يفعل ذلك لاجتلاب منفعة ولا لدفع مضرة، ولا للتباهي وطلب الرئاسة ومحبة الكرامة.

ينتهي مسكويه، إلى أن هذا هو غرض الفلسفة ومنتهى السعادة، أن الإنسان يصل هذه الحالة بعد أن تفنى إرادته كلها التي بحسب الأمور الخارجة، وتفنى العوارض النفسانية، وتموت خواطره التي تكون عن العوارض، ويمتلئ سعاراً الهيا وهمة الهية.

يبقى أرسطو عند رأيه، من أننا نطلب الخير لأجل ذاته، والسعادة هي الغاية لجميع الأشياء، أنه في الوقت أن الخير هو الذي يجب أن يبحث عنه لأجله وحده، هو أكثر نهائية من الذي يبحث عنه لأجل خير أخر، ما يلبث أن يقول أن السعادة التي هي لأجلها وحدها نحن نبحث عنها، السعادة إذن عنده على التحقيق شيء نهائي كامل مكتف بنفسه، ما دام أنه غاية جميع الأعمال الممكنة للإنسان، أنه يعقب جازماً على أن السعادة هي بلا معارضة أكبر الخيرات أي هي الخير الأعلى.

مع ذلك فإن أرسطو يقول، إن الوظيفة الخاصة بالإنسان تكون هي فعل النفس مطابقة للعقل، أو على الأقل، فعل النفس الذي لا يمكن أن يتم من دون العقل، إن الحياة الخاصة إذن في كل عمل، هي فاعلية النفس واستمرار أفعال يصاحبها العقل.

الشيء الذي لابد من ملاحظته هنا، ونحن نجد أن أرسطو يؤكد أن السعادة هي من أفعال النفس بموافقة العقل، إن الملاحظة التي تفرض نفسها في هذا المقام، أن هذه الموافقة أو الاتفاق في العمل ليس سعادة بل هو أداء الواجب. يأتي أرسطو بفكرة لطيفة جيدة، لا يتردد الإنسان في موافقته عليها، إن السعادة في رأيه، يجب أن تتحقق

طوال حياة تامة بأسرها، ليس من الممكن أن يشعر الإنسان في واحد على سعادة، أو حتى في زمن معين يكفي لجعل الإنسان سعيداً.

توجد مقولة لطيفة لأرسطو، مفادها أن الخطوة الأولى هي التي توصل إلى الألف ميل، أو أن البداية هي أكثر من النصف في كل شيء، أنه يقول أن من المبادئ ما قد اكتشف وعرض بالاستقراء، ومنها ما اكتشف بالحس، وأخرى بنوع من العادة، وأخرى تأتي من أصل آخر، ينبغي إذن تعلم معالجة كل واحد من هذه المبادئ بالطريقة التي توافق طبعه.

مسكويه يعتقد أن الذي يطلب السعادة التامة، لابد أن يعلم أجزاء الحكمة، أن السعادة في رأيه، تهذب له النفس ثم تطالب بالحكمة البالغة، إن هذه المرتبة الأخيرة من السعادة لا يصل إليها إلا أهلها الأعلون، ينصح مسكويه الذي يصبو إلى أن يصل إلى هذه الرتبة، أن يترقى بالتدرج في الحكمة، ويتصاعد فيها بجهده، إذا بلغ الإنسان إلى غاية هذه السعادة ثم فارق جسمه الكثيف دنياه الدنيئة، وتجرد بنفسه اللطيفة التي عُني بتطهيرها من الأدناس الطبيعية لأخراه العلية، فقد فاز وأعد ذاته للقاء خالقه عز وجل أعداداً روحانياً ليس فيها نزاع إلى تلك القوى التي كانت تعوقه عن سعادته.

نلاحظ أن أرسطو يكاد ينكر عن وجود سعادة في هذه الحياة، أنه يقول ليست سعادة تلك التي يشعر بها الإنسان في فترة معينة قصيرة بل لابد أن تكون دائمة، إن من الطبيعي في حياة الإنسان لا تكون سعادة دائمة، ما دام الإنسان معرضاً لعاملي الكون والفساد الإنسان يمرض ويخسر ويموت أحبابه وعرضه للمصائب.

أما مسكويه، فإننا نلاحظ من خلال حدة للسعادة، أن السعادة لا تتحقق في هذه الحياة، طالما أن الإنسان تعكر صفوة الحياة الطبيعية مسكويه يعتقد إذن أن الإنسان يخطى بالسعادة في الحياة الآخرة، الإنسان بعد أن يتخلص من المعوقات الحسية، يكون

قد تطهر وتنزه، ولم تبق فيه إرادة لها ولا حرص عليها، فيشتاق لجوار رب العالمين، يستشهد مسكويه بقول تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ وبقول النبي (ﷺ): (هناك ما لا عين رأت ولا إذن سمعت ولا خطر على قلب بشر).

أما السير عند مسكويه فهي ثلاث: سيرة اللذة وسيرة الكرامة وسيرة الحكمة، إن سيرة الحكمة أتمها وأشرفها، ولما كانت فضائل النفس كثيرة، وجب أن يفضل الإنسان بأفضلها ويشرف بأشرفها، أن سيرة الأفاضل السعداء سيرة لذيذة بنفسها، لأن أفعالهم أبداً مختارة وممدوحة إن كل إنسان يلتذ بما هو محبوب عنده، فالعادل يلتذ بالعدل والحكيم يلتذ بالحكمة.

بعد أن قسم أرسطو الخيرات إلى ثلاث: خيرات النفس وخيرات البدن وخيرات خارجية فإن أرسطو يعد خيرات النفس فقط خيرات، أما الإنسان السعيد فهو الذي يسير سيرة حسنة ويفلح السعادة إذن هي نوع من الفلاح والصلاح.

لاشك أن السعادة عند بعض الناس هي من الفضيلة، وعند آخرين من التعبد، وعند البعض من الحكمة بعضهم يرون أن السعادة في كل هذه مجتمعة، بعضهم يضم إليها اللذة أيضاً آخر ومن يريدون أن يضيفوا إلى كل ما تقدم، وفرة من الخيرات الخارجية.

المهم أن أرسطو يؤكد أن الذين يسيرون سيرة صالحة، هم الذين يستطيعون أن يتطلعوا في الحياة إلى المجد وإلى السعادة يستدرك أرسطو، فيقول أن الرجال الأفاضل لا يحتاجون إلى إضافة كلمة اللذة، لأن الفضيلة تضم اللذة كنوع من التتمة.

لاشك أن امتزاج الفضيلة باللذة، أو أن الرجل الفاضل يشعر باللذة في سيرته الشخصية نظرية أفلاطونية، الرواقيون بعد ذلك سوف يتبنون هذه النظرية، ويتكون صلب فلسفتهم الأخلاقية.

أرسطو يضرب الأمثال الأخلاقية فيقول، أن العدل أجمل ما يكون، والصحة أحسن ما تكون، والحصول على ما يجب هو الذ ما يكون للقلب، يضيف قائلاً، إن هذه المزايا توجد مجتمعة في الأعمال الصالحة غير أن أرسطو ينتهي إلى القول: إن الفعل الوحيد الذي هو الأحسن والأكمل، هو ما نسميه: السعادة.

مسكويه يرى أن لذة السعادة لذة حقيقية، إن الذي يعرف حقيقة السعادة يسر سروراً بها، ويخرج من حد المحبة إلى العشق والهيمان، إنه يبتعد عن لذائذ الحسن، لأنها باطلة سرعان ما تزول أو تنقلب إلى ألم، أن للحسن لذة عرضية وللعقل لذة ذاتية، أن العاقل من يتبع الحكمة العملية أن أجل أن يعرف الخير المطلق والفضيلة التامة.

يأتي أرسطو إلى فكرة أن السعادة لا تأتي بالمصادفة بل نتيجة للجهود، وهذا يعني أنه يريد أن يقول أن السعادة ممارسة، بعد هذا يقول أن الإنسان وحده يمكن أن يكون سعيداً لأنه وحده جدير بالفضيلة مع ذلك فهو يضيف أن لا يمكن أن يكون الإنسان سعيداً ما دام حياً، لأنه معرض للنكبات.

مشكلة أرسطو أنه يأخذ عن أفلاطون، ويحاول أن ينتقد أفلاطون كي يضع نظرية جديدة خاصة به، أن أفلاطون يتساءل على لسان سقراط في عدة محاورات، مثل (مينون) و (بروتاغوراس) و (الجمهورية) فيما إذا يمكن تعليم الفضيلة يأتي أرسطو بعد ذلك، وهو لا يفرق بين الفضيلة والسعادة، فيتساءل هل يمكن تعليم السعادة والفضيلة في آن واحد؟

أرسطو يقول صراحة، إذا كانت السعادة لم يقصر أمرها على أنها مرسلة من لدن الإلهة، وإذا كنا نحصلها بمزاولة الفضيلة أو بتعلم طويل أو بجهاد مستمر، فذلك لا يمنع من أنها إحدى الأشياء الأقدس في دنيانا، ما دام ثمن الفضيلة وغرضها هما شيء نفيس ونعيم حقيقي.

يضيف أرسطو، أن السعادة هي بوجه ما ممكنة المنال لنا جميعاً، أن من الممكن لكل إنسان أن يصل إلى السعادة بدراسة أو بعنايات ملائمة، إن اكتساب السعادة إذن بهذا الثمن أولى من نسبتها إلى الاتفاق.

أرسطو يقول، أن هذه القاعدة تنطبق على جميع الفنون، لأن من غير المعقول أن نسند أعظم وأجمل ما يكون لمجرد الاتفاق، ما يلبث أن يعود للقول أن السعادة هي فاعلية ما للنفس مطابقة للفضيلة.

بعد أن يقرر مسكويه أن لذة السعادة لذة حقيقية، فهو يذهب في الرأي، إلى أن السعادة ألذ الأشياء وأفضلها وأجودها وأصحها، بعد ذلك يقسم اللذة إلى قسمين: أحدهما لذة انفعالية، والأخر لذة فاعلة اللذة الانفعالية شبيهة بلذة الإناث، واللذة الفاعلة تشبه لذة الذكور.

اللذات عند مسكويه عرضية وذاتية إن اللذات العرضية، الحسية المقترنة بالشهوات تزول سريعاً وتنقضي وشيكاً، أما اللذة الذاتية فإنها لذيذة دائماً وثابتة لا تتغير، السعيد من الناس إذن من تكون لذته ذاتية لا عرضية، وعقلية لا حسية، وإلهية لا بهيمة.

السعادة في نظر مسكويه أجل من كل مديح فهي في غاية الفضل ولا يوجد لها مدح، لأنها أفضل وأجل من أن تمدح، ليس هناك من الناس من يمدح السعادة كما يمدح العدل، مع ذلك، فإن كل إنسان يجل السعادة ويكرمها، على أنها أمر إلهي أن السعادة والسعداء فإنها أمور إلهية ونحن نفعل الأشياء كلها لأجلها، فهي إذن ممجدة، على هذا ينبغي أن لا نمدح السعادة لأنها أجل من كل مديح بل نمجدها في نفسها ونمدح الأمور كلها بها.

يفلسف أرسطو، قضية السعادة بعد الموت، فيقول أننا لا نستطيع أن نسلم، بأن الإنسان لا يكون سعيداً إلا بعد الموت إنه يؤكد أن الإنسان يكون سعيداً، حينما يكون بمعزل عن مصائب جميع الشرور وجميع حروف الدهر.

يفلسف أرسطو الحالة من حين يقول أنه يبقى بعد الموت خيرات وشرور، سوف يعاني منها الإنسان، كما كان يعاني منها في الحياة، من غير أن يحسها شخصياً إن أرسطو يذكر التكريم أو الإهانة التي تلحق الشخص بعد وفاته إضافة إلى ما يقع لأولاده وأهل بيته.

ارسطو يعلل الأمر، أن الشخص حتى لو كان سعيداً طوال حياته ومن ضمنها شيخوخته، وقد يموت وهو في غاية النعيم، غير أنه قد يلحقه من ذريته مما يحدث لهم من تقلبات في هذه الحياة، ما يلبث أرسطو أن يستدرك أنه ليس من المعقول أن نفرض أن ما يمس الأبناء يمكن أن يصعد إلى آبائهم.

مسكويه يحاول أن يناقش أرسطو في حالة السعادة بعد الموت، إن أول شيء مهم ينتبه إليه مسكويه، أننا نستشف من كلام أرسطو، أنه يقول ببقاء النفس بعد الموت، مسكويه أيضاً يرى أن من الشناعة أن نقول أن الإنسان إذا مات صار سعيداً.

مسكويه أيضاً لا يرضى على رأي أرسطو القائل أن الميت يلحقه خير وشر، أكثر من هذا فإن مسكويه يستنكر على أرسطو، قوله أن الميت مرة يكون سعيداً ومرة يكون شقياً، بحسب تقلبات وتصرفات ذريته مسكويه ينكر أن تكون أمور الأولاد متصلة بالوالدين بعد الموت.

مسكويه يأخذ على أرسطو، قوله أن الإنسان قد يعيش سعيداً طوال حياته بضمنها شيخوخته ولكن بعد وفاته قد يلحقه سوء من أفعال أولاده وأحفاده، مسكويه

يقول: لماذا فات على أرسطو أن يؤثر سوء الأولاد على الأب في حياته، ولماذا فقط بعد موته.

يعود أرسطو إلى القول، أنه لا حاجة إلى انتظار موت الإنسان، حتى نقول أنه سعيد في الوقت نفسه، فإن الحياة معرضة للتقلبات، وإن الإنسان قد يكون مرة سعيداً ومرة يعاني من الشقاء، الأعمال الفاضلة إذن هي الحكم في أمر السعادة.

إن ثبات الإنسان على السعادة طوال حياته، منوط إذن بعمله الذي يطابق الفضيلة، إنه يتعلق بالفضيلة أكثر من سواه، ويتحمل صروف الدهر بصبر، وأنه يبقى محافظاً على كرامته، مهما لاقى من مصاعب ومحن.

لاشك أن الحياة إذا كانت موائمة تكون الحياة فيها أكثر سعادة، وتعطي بهاء جديداً للفضيلة، أما إذا كانت غير ملائمة، فإنها تحطم السعادة وتكدر صفاءها، الفضيلة هنا يكون لها أثر إيجابي حين يحتمل المرء بنفس طيبة، شدائد عظمية بكرامة وكبرياء.

أعمال الفضيلة إذن هي التي تتحكم في الحياة الإنسانية، وأن الرجل الشريف، هو الذي يطلب السعادة في الفضيلة، ولا يمكن أن يكون بائساً أو يرتكب أفعالاً مذمومة، إن الإنسان الحكيم إذن هو الذي تمر عليه تقلبات الزمان من دون أن يفقد كرامته.

الرجل السعيد إذن هو صالح، ولا يكون شقياً، إنه لا يتلون من لحظة إلى أخرى، ولا يتزعزع بسهولة عن سعادته، إنه إذا صادف عثرات الحظ، وأصابته المصائب فإنه قد لا يرجع سعيداً كما كان في فترة قصيرة من الزمن، ولكن ذلك يكون بعد فترة طويلة.

ما يلبث أرسطو بعد ذلك أن يعلن قائلاً، ما الذي يمنعنا أن نعرج بأن الإنسان السعيد هو ذلك الذي يسير دائماً على مقتضى الفضيلة الكاملة، أنه يجب أن يعيش رغيداً وأن يموت في وضعية ملائمة.

السعادة إذن هي غاية، وشيء نهائي من جميع الوجوه، إن السعداء إذن هم الذين يتمتعون أو سيتمتعون بجميع الخيرات مع ذلك تبقى كلمة سعيد قابلة للأخذ والرد، بقدر ما يكونه الإنسان من حياة رغيدة آمنة مستقرة.

لاشك أن مسكويه كان ذكياً حين أشار إلى أن أرسطو من خلال تقويمه للأموات، وأنهم قد يكونون سعداء أو أشقياء، بحسب ما ينالهم من تصرفات أولادهم وأحفادهم بعد وفاتهم.

مسكوية على حق، حين أثار هذه النقطة على أرسطو، وهو يلج هذه الحالة ويسهب فيها، أن المعروف عن أفلاطون أنه يؤمن بأن النفس تفارق الجسد وأنها خالدة، أرسطو يعتقد أن الإنسان نفس وبدن ولا ينفك أحدهما عن الآخر، يأتي أرسطو الآن، وهو يضفي على الأموات نوعاً من السعادة والشقاء، لا بسبب تصرفهم في الحياة، بل من جراء ما يفعله أبناؤهم بعد وفاتهم. أرسطو يستدرك رأيه بعض الشيء، فيقول أن هناك فرقاً في الإحساس في الحياة وبعد الموت كالفرق بين الواقعي وبين الحوادث المخيفة.

لا أدري في الحقيقة كيف يضفي أرسطو إحساساً على الأموات، وهو المنطقي الطبيعي الذي لا يؤمن بخلود النفس، بل أنه يؤمن أن النفس تموت كما يموت الجسم، لأنهما مكونان رئيسان للإنسان ولا ينفك أحدهما عن الآخر أو يتحرر منه.

مع ذلك فإن أرسطو يتساءل عما إذا كان الموتى ما يزال بهم شيء من الإحساس بالسعادة أو الشقاء. يردف بعد ذلك، بشيء من الشك، إذا كان بعض التأثير بالخير أم

بالشر، ينال الأموات، أرسطو يضيف الحياء، أن هذا التأثير ينبغي أن يكون ضعيفاً جداً وغامضاً، أما في ذاته وإما بالنسبة للأموات، ينتهي إلى القول، أن هذا التأثير ليس قوياً، ولا من شأنه أن يصبرهم سعداء أو يسلبهم سعادتهم.

المهم في هذا الشأن، أن أرسطو لا ينكر هذا التأثير على الأموات ولا ينفيه، إنه يفلسف الحالة، ويتلاعب بالألفاظ، ويقدم ويؤخر في التعبير، غير أنه ما زال يعتقد أن هناك تأثيراً وتأثيراً بدرجة ما قد تكون ضعيفة جداً، بين الأموات وذويهم وأصدقائهم.

لا يريد أرسطو أن يترك شيئاً يخص السعادة إلا أن يقوله، أو أن يبدي رأيه فيه، أو يأتي بنظرية جديدة من أجله، يبدأ في أول الأمر أشبه بالمتسائل فيما إذا كانت السعادة تستحق المديح، ثم يقرر أن السعادة لا تمدح بل تحترم.

الرجل العادل يمدح، كما أن الرجل الشجاع يمدح أيضاً، إن كل رجل خير وفضيلة يمدح على عمله وما يحقق من جراء الفضيلة التي يمارسها، يمدح أيضاً كل صاحب فن وقريحة وملكة، فإننا نمدح الرجل القوي والخفيف في الجري.

إننا نعجب بسعادة أولئك الذين يصلون إلى درجة عالية، أقرب ما يكونون للالهة على أننا لا نمدحهم، أننا نمدح العدل، لكن لا أحد يفكر أن يثني على السعادة بل يثني عليها فحسب.

إن المدح يمكن أن ينطبق على الفضيلة، لأن الفضيلة هي التي تعلم الناس فعل الخير، باختصار فإن المدح ممكن أن يوجه إلى أعمال النفس وإلى أعمال الجسم على السواء، إما السعادة فإنها غرضنا في كل ما نعمل، ولذا علينا أن نحمل لها كل ما نستطيع من القدسية والاحترام.

يتعدى أرسطو، دراسة السعادة من حيث أنها ظاهرة شخصية إلى ما يهم المجموع، أرسطو يقول ما دمنا قد عرفنا السعادة بأنها فاعلية للنفس، مسيرة بالفضيلة الكاملة، فإن الفضيلة إذن ينبغي أن تكون موضوع أشغال السياسي الحقيقي كي يجعل الأهالي فضلاء مطيعين للقانون.

يقول أفلاطون، أننا حين ندرس الفضيلة، ندرس الفضيلة الإنسانية، من حيث الخير الإنساني وسعادة الإنسانية، إن رجل السياسة عليه أن يعرف أمور النفس، كالطبيب الذي يعالج الجسم، إن السياسة أرفع وأنفع من الطب لأن الطبيب يدرس الجسم ويعالجه، على أن السياسي تهمه مصلحة الإنسان.

الفصل الثامن

اللـــذة

اللـــذة

يعرف أرسطو اللـذة أنهـا أكثـر الإحـساسات ملائمـة للنـوع الإنـساني، إننـا باللـذة والألم، نوجه حياتنا لما هو خير لنا، إن هذا التأثير يبقى طـوال الحياة، ولـه تـأثير كـبير في أمر الفضيلة والسعادة مـا دام الإنـسان يطلـب الأشـياء الـتي تلـذ لـه ويتجنـب الأشـياء المؤلمة.

قبل أن يبـدي أرسـطو رأيـه المباشـر في اللـذة، يـشير إلى أن بعـض النـاس يـرون أن اللذة خير وبعضهم الآخر يقولـون أنهـا شـر وأنهـا رديئـة، يـضرب هـؤلاء مـثلاً بالعامـة لأنهم يسارعون إلى الانـدفاع بكل ما هو لذيذ دون التـفكير في النتائج، لابد إذن من ينبـه هؤلاء لارتـداد إلى ما هو وسط.

أرسطو يرى أن على الحكيم أن يقول الحق وأن لا يبالغ، إن الإنسان ربما يتجـه إلى لذة معينة تجلب له شهوة، فهو ليس منغمراً في كل الشهوات معاً، لا سـيما وأن العـامي لا يميز الأشياء ولا يحدها.

يحلل بعد ذلك اللذة، فيقول أن اللذة خير لأن لكـل الكائنـات بـلا اسـتثناء ترغـب فيها وتطلبها سواء أكانت عاقلة أم غير عـاقلة في الوقت نفسه، فإن كل الكائنـات تتجنـب الألم، اللذة إذن مطلوبة ومرغوبة، والألم مرفوض ومكروه.

يحلل أرسطو الحالة، فيقول إذا كان الأمر كذلك، فيمكننا أن نعد اللـذة خـيراً، بـل ربما هي فوق كل خير، يذكر أرسطو أن أفلاطون يقول أن اللذة ليست هي الخير الأعلى، إن أفلاطون يعتقد أن اللذة مرغـوب فيها مـع الحكمـة أكثـر منهـا دون حكمـة، يـضيف أفلاطون حتى لو مزجت حياة الحكمة مع اللذة، فليست هي الخير الأعلى.

يرد أرسطو، أنه ليس من الصواب أن نقول أن اللذة التي تثير جميع الكائنات ليست خيراً، أنه ليست الكائنات المحرومة من العقل ترغب في اللذة، بل حتى الكائنات العاقلة ترغب في اللذة، يمكننا أن نقول حتى الكائنات البسيطة فإن فيها شيئاً من الغريزة الطبيعية، تتجه بها إلى الخير الخاص بها.

يعرف مسكويه اللذة، أنها التي تحصل بعد ألم لحق به، يعقب قائلاً أن كل لذة حسية هي خلاص من أذى أو أمل بعد ذلك ينصح مسكويه بتجنب اللذات البدنية، ويحمل بقسوة على الذين ارتضوا لأنفسهم إتباع اللذات الجسدية، إنه شبههم بالعبيد الذين يخضعون لأهوائهم، مسكويه يقول إن الإنسان يناسب الملائكة بنفسه الكريمة، فليس من الكرامة أن ينمط بنفسه إلى الشهوات الرديئة.

يحلل مسكويه بعد هذا الحالة فيقول، أنه طالما أن الجسد مركب من طبائع الحرارة والبرودة فإن اللذات ضرورة للجسد من حيث أن يعالج بالمآكل والمشارب، أمراضاً تحدث عند الانحلال، الإنسان إذن يحفظ تركيبة نفسه على حالة واحدة طبيعية.

مع ذلك فإن علاج المرض عند مسكويه ليس بسعادة تامة، والراحة من الألم ليس بغاية مطلوبة ولا خير محض، إن السعيد هو من لا يعرض نفسه لمرض البتة إن السعيد من الناس من يلتزم طريق الاعتدال في الحياة، ويستهين باللذات الجسدية ما ليلتزم جانب الفضيلة والسلوك القويم.

ليس من الصواب أن نقول إذا كان الألم شراً فإن اللذة خير ربما يكون الألم واللذة خيراً، وربما يكون الألم شراً كما قد يكون في الألم خير وفي اللذة شر، إنهما صنوان متقابلان، وإن الكائنات تطلب إحداهما باعتباره خيراً وتفر عن الآخر كونه شراً.

المهم أن اللذة ليست هي دائماً في عداد الخيرات، إن الخير وحده شيء نهائي ومحدود، في حين أن اللذة غير محدودة، ما دامت قابلة للزيادة والنقصان، مع ذلك فإن أرسطو يستدرك أننا إذا كنا نحكم على اللذة بهذا المقياس فإن هذا الفرق موجود لجميع الفضائل، أننا نقول أن شخصاً أعدل أو أشجع من شخص أخر، إن المرء قد يكون في عمله أقل عدلاً أو أكثر كما أن المرء يسلك قليلاً أو كثيراً في سبيل الحكمة.

يضرب أرسطو مثالاً بالصحة يقول أن الصحة شيء نهائي ومحدود، ولكنها قابلة للأكثر والأقل، فما المانع من أن تكون اللذة كذلك أن اعتدال الصحة ليس ثابتاً في جميع الكائنات، بل اعتدالها ليس واحداً في شخص واحد بعينه، قد تعتل الصحة، وتزيد أو تنقص، فلماذا لا يكون الأمر كذلك للذة؟

اللذة عند أرسطو ليست حركة حتى لو تمتع بها الإنسان بسرعة الإنسان حسبما يقول يغضب أيضاً بسرعة لكن لا نقول أن الغضب حركة ربما أن المرء يتغير تغيراً بطيئاً أو سريعاً من جراء اللذة، ولكن فعل اللذة لا يمكن أن يكون سريعاً، أن ما تسببه اللذة وتولده إنما هو الألم الذي يفسدها.

اللذة ليست قضاء حاجة في رأي أرسطو إن الإنسان حين يرضي الطبع فإنه يحس باللذة، كما أنه يحس بالألم حين يجرح نفسه، أن الإنسان إذا حرم من الغذاء يشعر بالألم، وعندما يسد حاجته يشعر باللذة، أن نظرية سد الحاجة على ما يبدو فإن منشأها اللذات والآلام المتعلقة بالتغذية.

إن المعروف نظرياً إن اللذة يسببها الألم، بناء على هذه المقولة، فإن الألم إذن يسبق اللذة الإنسان يحسن بألم الجوع فيلتذ بلذة الطعام، وهو يحس بالعطش فيلتذ حين يرتوي بالماء.

أرسطو يقول أن اللذات التي تسببها ممارسة العلوم، لا تصاحبها آلام لا شك أن هذه الفكرة موجودة قبل أن يذكرها أرسطو، إن كل حكيم يعرف جيداً أن الحكمة تسبب لذة ولكن هذه اللذة لا يصحبها ولا يعقبها آلم.

حين يتعرض أرسطو للحواس، يقول أن من بين الحواس هناك لذات لا تصحبها آلام، مثل لذات الشم ولذات السمع والبصر، كما يشير أن لذات التذكر والرجاء، فإن عدد كبيراً منها لا يصحبها ألم.

اعتقد أن أرسطو مبالغ أو أنه يرى نصف الحقيقة، أو يغض الطرف عمداً عن النصف الأخر، إن الإنسان المحروم من رؤية الجمال قد يكون مصاباً بألم خفي يتغلب عليه حين يشاهد شيئاً جميلاً، الشيء نفسه ينطبق على حالتي الشم والسمع أيضاً بعد هذا كيف يكون التذكر لذيذاً دائماً؟ وهل أن الإنسان الذي يرجو شيئاً يشعر باللذة فقط؟ من أدراه أن رجاءه سيتحقق كما يتصور؟ أليس من الممكن أن يجنب أمله في الرجاء الذي يتوقعه أن يكون في المستقبل؟

أرسطو يقرر دون تأمل، إن اللذات المخجلة ليست لذات على الإطلاق، أنه يقول أنها لذات مسقطة تسحر بعض الناس، فهي ليست لذات.

اعتقد أن أرسطو يجانب الصواب في رأيه المتسرع هذا أن اللذة لذة، وليس لنا الحق أن ننكرها أو نشطب بجرة قلم إن بإمكاننا أن نفرق بين لذة مريحة ولذة مزعجة، أو بين لذة شريفة المغزى ولذة ساقطة الهدف، غير أنه ليس من حقنا أن نثبت الأولى على أنها لذة، ونبعد الأخرى عن كونها ليست لذة، إن لنا الحق أن نصفها بأنها ساقطة، ولكنها لذة في كل حال من الأحوال.

يتساءل أرسطو بعد هذا، هل يمكن أن نطلق لذة على تلك التي تأتي أن طرق كدرة؟ يقرن أرسطو ذلك بمثالين، فيقول أن الثروة التي تأتي بأمانة مرغوب فيها،

والتي تأتي بخيانة غير مرغوب فيها؟ وهل أن الصحة مرغوب فيها، إذا كنا نتعاطي كل شيء بلا تمييز؟

يتساءل أيضاً: هل أن اللذات أنواع؟ وهل هناك لذة تأتي من العمل الشريف، ولذة تأتي من عمل مخل بالشرف؟ أنه يشبه ذلك بالمرء غير العادل، فإنه لا يتذوق لذة العدل.

يضرب أرسطو مثلاً باللذة التي تأتي من تصرف صديق مخلص إزاء صديقه، ولذة تأتي من شخص متملق مراء كذاب، لاشك أن كل لذة من هاتين تختلف عن الأخرى، بمقدار ما فيها من صدق وحقيقة وجلاء.

أرسطو يضيف بأن الإنسان يحب طوال حياته أن يشعر باللذة ولا يستثني لذة الأطفال، أكثر من هذا فإن الإنسان يود أن يتمتع بأشياء قد لا يجد فيها لذة، مثل النظر والتذكر والحفظ وحيازة الفضائل والمكان الكبيرة في الفنون، يقول أرسطو حتى لو قيل لي أن اللذة تنتج من هذه الأفعال لقلت لديهم، ما دمنا نريد هذه الإحساسات حتى لو لم ينتج منها أدنى لذة.

ينتهي أرسطو، لإيضاح النظريات التي عرضت في اللذة والألم، فيقول يجب الاعتراف بأن اللذة ليست هي الخير الأعلى، وليس كل لذة مرغوباً فيها، أن من اللذات ما هو مرغوب فيها، لذاتها ومنها ما تختلف أما بنوعها وأما بالأشياء التي تصدر عنها.

مسكويه يدعو إلى الحذر من ركوب القبائح من اللذات التي تدعو إليها نفس الإنسان، يبدأ مسكويه بإبداء النصيحة في تقويم أدب المطاعم، أنه يقول أن الطعام يطلب للصحة لا للذة، إن الأغذية كلها وجدت كي تسد الجوع وما يحدثه الجوع من ألم، أن الغذاء هنا يجري مجرى الدواء، إن الدواء لا يراد للذة، بل من أجل التخلص من ألم المرض.

مسكويه لا يقتصر في نصيحته على قدر معين من الطعام، على قدر الحاجة، دون أن يكثر إلى درجة الشرة، بل يوصي الشخص الذي يجلس على مائدة الطعام أن يكون متأنياً في الأكل، لا يزدرد الطعام ازدراداً، بل يكون شديد الأدب، ويقتنع بما يكفيه، وأن يقتصر على تناول نوع واحد من الطعام.

يذهب مسكويه أكثر بالإرشاد في آداب المائدة، أنه يوصي بالإقلال من الطعام، للفقراء والأغنياء على السواء، بعد هذا يوصي من الإقلال من أكل اللحوم والحلواء، لأنها تؤثر تأثيراً سلبياً على الجسم، كما أنها تغري بالإكثار، في الوقت نفسه عليه إلا يعود نفسه على شرب الماء والمسكرات مع الأكل عليه أن يجالس الأدباء والفضلاء على الطعام، وأن تكون مجاملاته نظيفة مقبولة، وأن يتجنب السخيف من الكلام، على المرء أن يعود نفسه على تناول وجبات الطعام، بعد أن يفرغ من أداء واجبة، كي يكون في كامل الراحة والاستعداد.

أن ما وددت الإشارة إليه في هذا الشأن، إذ على الرغم من أن مسكويه مسلم ومن واجبه الشرعي أن ينهى عن مجالس الشرب والسوء، غير أني أقول — للأمانة — أن مسكويه قد اقتبس هذه النصائح، من كتاب (تهذيب الأخلاق) لمؤلفه المسيحي يحيى بن عدي التكريتي.

يطنب مسكويه في النصائح، كرياضة المشي والسباحة وركوب الخيل، واللعب مختلف الألعاب المسلية، أكثر من هذا فهو يطلب من الشخص أن يبتعد عن الترف، وأن يعود نفسه على الخشونة في العيش، كل هذا في حدود الأدب، وما هو مسموح به في العلن، والابتعاد عن كل فعل قبيح، حتى في الخفاء، ينتهي مسكويه إلى هدفه الأخلاقي من هذه النصائح هو إلا يعقب هذه الأفعال ألم.

مسكويه يقول، أن هذه الآداب تنفع الصغار والكبار من الناس، أنها تعودهم على محبة الفضائل وضبط النفس واجتناب اللذات القبيحة، وتكفهم عن الانهماك في الرذائل، إن هذه الآداب، تسوقهم إلى مرتبة الفلسفة العالية، وترقيهم إلى معالي الأمور، وتقربهم من الله عز وجل، فيستعدون لدار البقاء والحياة السرمدية، مع أن اللذات البدنية كلها في الحقيقة، راحات من تعب وخلاص من آلام.

اللذة عند أرسطو كل قائم بذاته، ولا يستطيع المرء أن يشعر أن اللذة تستمر طويلاً، أو تكون أتم مما بدأت به من شعور، هذا يعني أن اللذة ليست حركة، لأن الحركة تكون مثل المشي، أو الانهماك في بناء وما أشبه.

الحركة في نظر أرسطو ناقصة غير مكتملة، أما اللذة فهي شيء تام في أي زمن اعتبرت فيه، اللذة والحركة إذن تختلفان، ما دمنا نضع اللذة في صف الأشياء التامة الكاملة، اللذة شيء تام وغير قابل للقسمة، ما دامت اللذة تحصل في اللحظة الحاضرة، أما الحركة فإنها تحدث في زمان وفي زمان، أي أنها تواصل للفعل أما اللذة فإن فعلها في لحظة آنية.

تتم اللذة عند المرء، في أحسن الظروف الملائمة، في وقت يكون الحس والشيء المحسوس في الظروف المطلوبة، إن الحاسة تفعل فعلاً كاملاً، في حين تكون في حالة حسنة، بالنسبة لأحسن الأشياء، التي يمكن أن تقع تحت هذه الحاسة.

يشبه أرسطو اللذة والفعل بالصحة والطب، أنه يقول كما أن الصحة والطب، هما على السواء السببان في أن يكون المرء في عافية، كذلك اللذة تتم الفعل، حين يكون الحس والمحسوس في حالة طيبة.

على الرغم من أن أرسطو يقول أنه توجد لذة في التفكير وفي التأمل المجرد، غير أنه يعطي الأهمية العظمى للحواس في التمتع باللذة، أليس المفروض بأرسطو، أن

يفصل أكثر باللذة التي يحصل عليها العقل من خلال التفكر، ثم يدرس في أن لذة الفكر لا يعبقها ألم، كما يحدث للذة الحواس.

المهم أن أرسطو يفصل القول، في كل حس من الحواس يجد لذة، بحسب قوته أن اللذة تكون أكبر حين يكون الحس أحدّ ما يكون، اللذة تستمر كما أن الألم هو الآخر غير مستمر، إننا نرى الشيء، ولا سيما إذا كان عن قرب، فنلتذ به، لكن هذه اللذة لا تحافظ على حدتها، بل سرعان ما تتراخى وتخمد وتنقضي.

يذهب أرسطو في الرأي، إلى أن الإنسان يحب اللذة لأنه يحب الحياة، اللذة تتم بالأفعال، وبالتبع تتم الحياة التي ترغب الكائنات في حفظها، هذا إذن هو السبب الذي يبرر طلب اللذة، ما دامت بها الحياة التي يحبها الكل حباً حاداً، إن حب اللذة وحب الحياة مرتبطان إلى درجة لا يمكن فصلهما.

مسكويه يفرق بين اللذة الحسية واللذة العقلية، إنه يرى اللذات الحسية تشركنا فيها الحيوانات التي ليست بناطقة، إن مسكويه يقول أن اللذات الحسية سرعان ما تمثلها الحواس وتنعدم سريعاً، أكثر من هذا فإنه يعتقد أن اللذة الحسية إذا دامت صارت كريهة، وربما عادت مؤلمة.

المهم أن مسكويه عنده أن لذة الحس لذة عرضية على أن لذة العقل ذاتية، يذهب مسكويه إلى أن من لا يعرف اللذة الحقيقية، لا يعرف كيف يلتذ بها، بعد ذلك ينصح الإنسان بأن يعرف الخير المطلق والفضيلة التامة، كما أن عليه أن يعرف الحكمة العملية وذلك بإيثار الأفضل والعمل به، كي يلتذ ويتنعم بالحياة.

اللذات في رأي أرسطو، تختلف في النوع الواحد، كما تختلف لذة الحواس عن لذة الفكر، إن كل لذة تكون قوتها بقوة الفعل التي يتعاطاها المرء، ويتحكم في الأشياء بمقدار ما يكون له من اللذة في إتيانها، إن اللذة تساعد على النشاط العقلي، بحسب نوع

العمل الذي يمارسه كل إنسان، إن الموسيقي لذته في الموسيقى، والمهندس في فن المعمار، إن كلاً منهما تكون لذته قوية بمقدار نجاحه في عمله وشغفه فيه، وما يؤتيه من همة ونشاط.

أكثر من هذا، فإن الذهول قد يأخذ الشخص المختص بنوع معين أكثر من غيره، إن الموسيقار يلتذ بسماع صوت آلة يلعب بقربه، ويشغله عن الحديث الذي حوله، مهما كان هذا الحديث مهماً ومفيداً.

الشيء نفسه ينطبق على الذي يؤدي عملين معاً، أو يلتذ من مصدرين في اللحظة ذاتها، إن اللذة الأقوى تؤثر فيه أكثر،وربما تقضي على الأضعف وتمحو أثرها، هذا يعني بكل بساطة أن الإنسان عاجز أن يعمل عملين معاً، وينتسي بهما معاً.

قد تأتي اللذة من فعل معين لشخص يكون فيه ألم لشخص آخر، فعل الكتابة شيء معروف لكل أحد أحدهم يحب الكتابة ويشغف بها، إنه يجد لذة عارمة حين ينغمس في ممارسة الكتابة، شخص آخر لا يحب الكتابة ويستثقلها بل ربما يكرهها، إنه إذا أجبر على الكتابة، أو حتى إذا أراد ممارسة العمل الكتابي ذاتياً فإنه يحس بالألم.

يذهب أرسطو في القول، كما أن الأفعال تختلف في أن بعضها حسنة وبعضها قبيحة، فإن بعضها مرغوب وبعضها مكروه، وبعضها لا هذا ولا ذاك، اللذة كذلك تختلف في الموقع، فإن اللذة الخاصة بالفعل الفاضل لذة شريفة، واللذة الخاصة بالفعل القبيح لذة سيئة، إننا نمدح اللذات التي تكون نتيجة الأفعال الجميلة، أما اللذة التي تأتي من الأشياء المخزية فهي موضوع لوم.

اللذة تختلف عند المرء الواحد بحسب الحس الذي يلتذ إن لذة النظر أكثر صفاء وضبطاً من لذة اللمس، لذات السمع والشم والذوق، تختلف كل واحدة عن الأخرى كماً وكيفاً، أما لذات التفكير، فإنها تختلف عن كل لذات الحواس المذكورة.

أما الحيوانات، فإن لكل حيوان لذته الخاصة به، لذة الكلب — مثلاً — تختلف عن لذة الحصان، الحمار يلتذ بالتبن ولا يأبه بالذهب، مع ذلك، فإن لذات الكائنات المتحدة الأنواع، تكون لذاتها متقاربة.

هناك خلاف أيضاً بالشعور في اللذة من شخص لآخر، ربما تكون لذة سارة لشخص معين محزنة لآخر، ربما يكون شيء محبوب عند بعضهم، يكون مؤلم ومكروه عند آخرين الشيء نفسه يحدث بين السليم والمحموم، فإن الحلو عند الشخص الصحيح يكون مراً عند المريض.

يحكم أرسطو بعد هذا، إن الفضيلة هي المقياس الحق لكل شيء، إن رجل الخير، هو الحكم الوحيد، كما أن اللذات الحقة، هي تلك التي يقدرها هو كذلك، إن الاستمتاع الذي يستمتع به هو الاستمتاع الحقيقي، إن ما يكون مؤلماً لرجل الخير قد يكون ملائماً لغيره، وهذا ليس بعجيب، ما دام الاختلاف موجوداً بين الأفاضل من الناس والأراذل.

بعد هذا، فإن اللذات التي يجمع عليها الناس إنها مخجلة، فليس من اللائق أن تسمى لذات، إلا أنهم عند فاسدي الأخلاق، أما اللذات الحقة للإنسان فهي اللذات عند الإنسان التام السعيد، أما اللذات الأخرى، فإن درجاتها تتفاوت بحسب درجات الأفعال التي تنطبق عليها.

يعود أرسطو للحديث عن السعادة، رابطاً إياها باللذة، لاشك أن أرسطو قد وضع السعادة بين الأفعال التي يختارها المرء ويرغب فيها لذواتها، لا لأجل الأفعال التي تطلب لأجل أغيارها، السعادة لا يصح أن تحتاج إلى شيء، بل أن تكتفي بذاتها الكفاية كلها، إن الأفعال المطلوبة هي الأفعال المطابقة للفضيلة، إن الأشياء الجميلة والطيبة، هي التي يجب على الإنسان أن يطلبها لذواتها.

مع ذلك، فإن أرسطو يقول أن كثيراً من الناس المحسودين على سعادتهم، لا شيء أهم عندهم من أن يسلموا أنفسهم إلى صنوف اللهوَ الطغاة أيضاً يقدرون كثيراً، أولئك الذين يظهرون بأنهم ظرفان يسراء في هذه الأنواع من اللذات، إن المتملقين مقبولون في الأشياء التي يرغب فيها الطغاة، والطغاة في حاجة إلى أناس يلهونهم ويسلونهم ولا سيما أن بعضهم يتصورون أن اللهو واللعب جزء من السعادة.

يؤكد أرسطو أن العقل والفضيلة هما ينبوع السعادة والأفعال الشريفة، أما الأناس الذين يرتمون في لذات البدن، فهم يعتقدون إن هذه اللذات الجافية هي المرغوب فيها كأحسن ما يكون، لا عجب في هذا، لان الكهول والأطفال يختلفون في تقدير الأشياء، كما أن الأشرار والأخيار يقدرون الأشياء تقديراً مضاداً.

السعادة إذن لا تنحصر في اللهو، ومن السخف أن يكون اللهو هو غرض الحياة، كما أن من السخف أن يشتغل المرء طوال حياته ويتألم، لا لشيء إلا ليلهو، إن المرء الذي يجد في الحياة ويجتهد له غرض شريف في الحياة، ربما نقول أن المرء لا يستطيع مواصلة العمل بلا انقطاع فالراحة إذن حاجة، ولكن ليس اللهو الفارغ.

إن الأمور الجدية في الحياة، هي فوق الهزليات والدعابات، وإن أحسن فعل يقدمه الإنسان، هو الفعل الذي يدخل في باب الجد، إن الفعل الأحسن هذا، هو الذي يجلب السعادة أكثر أما الأعمال الفاسدة والرذائل الحقيرة، فتسبب اللهو الحقير، بينما السعادة تنحصر في الأفعال المطابقة للفضيلة.

بعد أن قرر أرسطو، أن السعادة هي الفعل المطابق للفضيلة ما ينحو نحو الفعل العقلي، أرسطو يقول الجزء المطابق للفضيلة، يجب أن يكون هو السعادة الكاملة وأن هذا الفعل هو فعل التفكر والتأمل.

يؤكد أرسطو على أن اللذة يجب أن تخالط السعادة، وبما أن الأفعال المطابقة للفضيلة هي تعاطي الحكمة والعلم، فإن اللذات تجلبها الفلسفة أنها طاهرة ومؤكدة ولهذا فإن العلم سعادة أكثر من طلب العلم.

إن الاستقلال إذن يكون في الحياة العقلية والتأملية، إن الإنسان العادل مثلاً، يحتاج إلى أناس يقيم بينهم عدله، الإنسان المعتدل والإنسان الشجاع، في حاجة إلى الغير طبعاً، الحكيم العالم يمكنه بانفراده بنفسه أن ينكب على الدرس والتأمل، أنه أكثر الناس استقلالاً وأشدهم اكتفاء بنفسه.

لا بأس أن أشير إلى أن فكرة الحياة العقلية بكاملها فكرة أفلاطونية، أرسطو استعملها من غير أن يشير إلى أستاذه بالعرفان بالجميل، لو أراد مخالفتها لقال: يتذكر بعض الناس، وأننا نقدم الحق على الصداقة، المهم أن حياة التأمل وممارسة الحكمة فكرة أفلاطونية، حتى تقسيم الفضائل مثل العدل والشجاعة هي أفلاطونية أيضاً.

يحصر أرسطو السعادة في الراحة والطمأنينة، أن المرء يعمل للوصول إلى الفراغ، وقد تقام الحرب للوصول إلى السلام، مع كل ذلك، فإن الفضائل العملية تمارس في السياسة أم في الحرب لا يفوت أرسطو أن يقول أن الحرب تقضي على الراحة، لأن المرء ينشغل خلال الحرب في جميع الأوقات.

الرجل السياسي هو الآخر، راحته قليلة أو، كرجل الحرب، الرجل مشغول طوال وقته في تصريف أمور الدولة بلا انقطاع، إنه في الوقت نفسه مهتم بالحصول على تحقيق سعادته الخاصة به وسعادة مواطنيه الشخصية أيضاً.

وهكذا فإن السعادة تكون للمستقل المكتفي بذاته، لأنه يحقق الطمأنينة والسكينة، بواسطة التفكير والتأمل، وهذا عكس رجل الحرب ورجل السياسة، لأنهما لا يجدا الوقت الكافي، من حيث أن حياتهما مملوءة بالمشاغل والاضطراب.

ينتبه أرسطو إلى حياة الفكر والتأمل فوق طاقة كل إنسان، يسند أرسطو رأيه، بأن في الإنسان شيئاً قدسياً، وليس هو فقط الجانب الفاني، إنه يحث الإنسان أن يسمو إلى كل فعل مطابق للفضيلة ليس من الصواب أن يهتم الإنسان بالأشياء الفانية فقط، إن على الإنسان أن يحيا حسب أشرف أصل من الأصول التي تكمل تكوينه، لا بأس عليه أن يخلد نفسه قدر ما يمكن، أو في الأقل أن يسعى إلى حياة القوة والكرامة.

إن الإنسان يعرف جيداً، أنه فيه الجزء الحاكم والأعلى، فجدير به إذن أن يحيا حياة الفهم، ما دام الفهم هو في الحق كل الإنسان، وبالنتيجة فإن حياة الفهم هي أيضاً أسعد حياة يمكن المرء أن يحياها.

مسكويه يؤكد على أن اللذة العقلية هي اللذة الحقيقية الكاملة، مسكويه على نهجه في إتباع الخط الإسلامي في كتاباته الأخلاقية، إنه يقول إن الجوهر الالهي الذي في الإنسان، إذا صفا من كدوراته التي حصلت فيه من ملابسة الطبيعة، ولم تجذبه أنواع الشهوات، اشتاق إلى شبهه ورأي بعين عقله، الخير الأول المحض الذي لا تشوبه مادة، حينئذ يفيض نور ذلك الخير الأول عليه، فيلتذ به لذة لا تشبهها لذة ويصير إلى معنى الاتحاد، إن من فضائل هذه المحبة الالهية أنها لا تقبل النقصان ولا تقدح فيها السعاية، ولا تكون إلا بين الأخيار.

أرسطو يخص السعادة بأنها مناسبة مع التفكير والتأمل، وأن السعادة الكاملة هي التأمل المحض مثال الالهة يعقب أرسطو قائلاً، أن الحيوانات لا سعادة لها لأنها لا تفكر البتة.

إذا كان فعل الحكمة والعلم له المكانة الأولى في الحياة الإنسانية، وهو فعل العقل، فإن الأفعال الإنسانية مثل العدل والشجاعة، تعد ملكات ثانوية، لأنها تتعامل في الحياة العادية.

من هنا تختلف السعادة العقلية عن السعادة الناشئة عن الفضيلة الأخلاقية، سعادة العقل لا تكاد تحتاج إلى خيرات خارجية، ولكن فضيلة الأخلاق تحتاج إلى الأشياء الضرورية، إن الشخص الذي يخصص نفسه للحياة السياسية يحتاج إلى نشاط جسمي أكثر، والإنسان السخي يحتاج إلى ثروة يحقق بها كرمه، والعادل يحتاج إلى الآخرين ليؤدي دورة، حتى الإنسان المعتدل، يحتاج إلى نوع من الرفاهية كي يرضي نفسه بالموازنة ويعرف أنه معتدل.

لاشك أن الفضيلة تتحقق بالنية والفعل معاً، أما السعادة فإن المفكر المتأمل قد يكتفي ذاتياً بتحقيق سعادته الخاصة به، أما الإنسان من حيث هو إنسان، فإنه لا يستطيع أن يحقق سعادته إلا مع الآخرين من حيث الحاجة إلى ما تهم، ومن حيث أنه إنسان لابد أن يؤدي دوره في المجتمع.

يكرر أرسطو القول، في أن السعادة الكاملة هي في التأمل المحض، أرسطو حين يقول أن فعل الالهة يعلو في السعادة على كل فعل آخر، لأنه فعل تأملي محض، إن الفعل الذي يقترب عند الناس من ذلك الفعل، أنه يؤكد أكثر ما يكون من السعادة. الوجود إذن للآلهة كله سعيد، أما بالنسبة للناس، فالحياة تكون سعيدة بقدر تقليدها لذلك العمل القدسي، إن الكائنات الأكثر أهلية للتصور، والتأمل هي الأكثر سعادة، إذن السعادة ضرب من التأمل.

أرسطو لا ينكر من أن الإنسان إنسان، فهو في حاجة إلى رغد خارجي ليكون سعيداً، إن طبيعة الإنسان ليست عقلية محضة، بل أن الإنسان يحتاج إلى جسم صحيح، يكتفي من الأغذية الضرورية، ويلقى ما يحتاج من عناية.

مع ذلك، فليس من الصواب أن نبالغ ونقول أن الإنسان لا يحظى بالسعادة إلا بمزيد من الخيرات الخارجية، المهم في الإنسان أن لا ينتهي إلى الإفراط في حياته

الاجتماعية، إن المرء يمكن أن يقدم أفعالاً جميلة، دون أن يكون له مركز سياسي أو إداري، إن الإنسان يستطيع أن يقدم الخير الكثير إذا سلك سلوك الفضيلة، حسب المرء أن يكتفي بالقليل، لتكون حياته سعيدة، ما دام قد اتخذ الفضيلة قائداً في مسيرة حياته العامة.

ربما أن المرء الذي يملك مالاً محدوداً يحيا حياة سعيدة، إذا ما عاش باعتدال وحكمة ومارس الأعمال الشريفة، ربما أن شخصاً أخر يملك ثروة طائلة، لا يحقق السعادة في حياته، إذا تصرف تصرفاً طائشاً، يفتقر إلى الحكمة وبعد النظر.

وهكذا يعود أرسطو إلى القول، إن الإنسان الذي يحيا ويعمل بعقله، ويعني بتثقيف عقله، أنه أحسن الناس وأحبهم إلى الالهة، الحكيم إذن هو محبوب من الالهة، وتبعاً لذلك فهو أسعد الناس، وأكمل ما تكون عليه السعادة.

مسكويه يؤكد على محبة اللذات البدنية والراحات الجسمية، إن ذلك شيء طبيعي للإنسان، من حيث أن الإنسان يحتاج في حياته إلى التمتع بالخيرات الطبيعية، من أجل ديمومة الحياة، يوصي مسكويه بعد ذلك، أن نتصرف بهذه اللذات تصرفاً معتدلاً، وإن نذم أنفسنا عنها بذمام العقل، حتى نقف في حدود المعقول، ونقتصر على المقدار الضروري.

يضيف مسكويه قائلاً، ينبغي لمن رزق الكفاية ووجد القصد من السعادة الخارجية، عليه إلا يفرط بفضول العيش لأنها بلا نهاية، إن الذي يطنب في الطلب، قد يقع في المكارة ويلقى صنوف الآلام.

مسكويه يرى أن الغرض الصحيح في العيش السليم، هو مداواة الآلام والتحرز من الوقوع فيها، وليس الإفراط بالتمتع في اللذات، المهم للإنسان أن يطالب دوام صحة

البدن بالتلذذ في الأشياء، لا إتباع اللذة من أجل اللذة التي قد تفقده الصحة وتسبب له الألم.

يوصي مسكويه الإنسان، ألا يتجاوز القصد في الحصول على الرزق بل يكتفي بقدر حاجته ليس من مصلحته أن يشتد في الحرص على المكاسب، فيعرض نفسه إلى ضروب المهالك والمعاطب بل عليه أن يعتدل ويتجمل في الطلب.

يحث مسكويه بعد ذلك بالاكتفاء بما هو ضروري لأبداننا، وإلا نشغل عقولنا وإفناء أعمارنا بالتسابق للحصول على ما يرهقنا ويسبب لنا الآلام، علينا أن نحافظ على الصحة، بأن لا نحرك القوة الشهوانية ولا القوة الغضبية، بل علينا استخدام القوة الناطقة لتدبير حياتنا على الوجه الأفضل.

يستأنف أرسطو القول، أن في الشؤون العملية، ليس الغرض الحقيقي هو التأمل والعلم بل هو تطبيقهما، أما في ما يخص الفضيلة فهو يقول لا يكفي أن نعرف ما هي، بقدر ما نعود أنفسنا على حيازتها واستعمالها لنكون فضلاء أخياراً، أرسطو كان ينتقد سقراط وأفلاطون على هذا الرأي الأخير، ولكنه استعمله عن طيب خاطر.

يذهب أرسطو في الرأي، إلى أن الخطب والكتب عاجزة أن توصلنا وحدها إلى الفضيلة، إن المبادئ الخيرة — في رأيه — تشد عزم بعض فتيان كرام على الثبات في الخير، وتجعل القالب الشريف بالفطرة صديقاً للفضيلة، أما العامة فإن المبادئ تقف عاجزة أن تدفعهم إلى الخير، العامة لا يطيعون بالاحترام ولا يكفون عن الشر بإحساس الخزي بل خوف العقوبات.

إنهم يعيشون للشهوات ويطلبون اللذات الخاصة بهم، والوسائل التي توصلهم إلى اللذات، أما الجميل واللذة الحقة، فليس لديهم منهما أدنى فكرة، أرسطو يؤكد أنه ليس من السهل تغيير عادات قد أقرتها الشهوات من زمان طويل بمجرد الكلام.

اعتقد أن أرسطو مبالغ في رأيه هذا إلى حد الجمود، أنا معه في أن العوام تهمهم لذاتهم الآنية، وينساقون وراء شهواتهم العابرة، غير أنه ليس من الصواب أن نجردهم من إنسانيتهم ونقطع كل أمل في إصلاحهم، إذا كانت العقوبات تخيف الجميع، والقانون حارس أمين، فإن للعلم والحكمة والتربية أثرها أيضاً في إرشاد الإنسان.

أرسطو يقرر أن المخلوق الذي لا يعيش إلا بالشهوة، لا يمكن أن يصغي لعيوب العقل، أو بالأحرى أن الشهوة لا تطيع العقل ولا تخضع إلا للقوة، إن اول شرط هو أن يكون القلب ميالاً بالفطرة للفضيلة، ومحباً للجميل وكارهاً للقبيح، مع هذا فهذا يحتاج أن يربى الإنسان منذ طفولته تحت سلطات قوانين صالحة.

أرسطو يعطي أهمية للقوانين، فهو يقول يلزم أن يكون القانون وراء الإنسان طوال حياته، لأن أكثر الناس يخضعون للضرورة أكثر من العقل، وللعقوبات أكثر من الشرف، إن فكرة العقوبات والقانون، قد فعلهما أفلاطون وناقش القضية مناقشة مسهبة في كتابيه (الجمهورية) و (القوانين).

في الوقت الذي يستحسن أرسطو المشرعين، الذين يجذبون الناس إلى الفضيلة بالإقناع وباسم الخير، وأن الأخيار من الناس سيستمعون إلى هذا الصوت، فهو يحمل حملة شعواء على العصاة وفاسدي الأخلاق، بل انه يذهب في القول أن واجب المشرعين أن يطهروا المدينة نهائياً من أولئك الذين لا براء، لهم من فساد الأخلاق، إنه يوصي أن يجازى بالخير الذي يثوب إلى الرشد، أما الإنسان الفاسد فتجب معاقبته بالألم.

لا بأس أن تحكم القانون بالإنسان، قد عالجه أفلاطون في كتابه (القوانين) أرسطو يقول يجب أن تطهر المدينة من المفسدين تماماً، أنها تشبه نظرية أفلاطون أيضاً، التي يقول فيها بنفي المجرمين خارج أسوار المدينة الفاضلة.

يؤكد أرسطو أن المرء يصير فاضلاً إذا أحسنت تربيته في البداية، على الرغم من أن أرسطو يقول أن ولاية الأب ليس لها صفة الإكراه، ولا ولاية أي رجل آخر، غير أن أرسطو يعطي للقانون قوة قهرية مساوية لقوة الضرورة لأن القانون هو ترجمان الحكمة والعقل، لأنه يأمر بها هو عدل وما هو خير.

أرسطو إذن يعطي أهمية للتربية العمومية التي تكفلها القوانين، إذا أهملت هذه العناية، يجب على كل فرد من أفراد المدينة أن يحمل واجبه الشخصي، في أولاده وأصحابه على الفضيلة، أرسطو يعطي أهمية للآباء داخل العائلات، لأن أول إحساس يفهمه طبع الأطفال هو الحب والطاعة.

المصادر

١- القرآن الكريم.

٢- أرسطو:

أ- علم الأخلاق، القاهرة، ١٩٢٤.

ب- السياسة، دمشق، ١٩٥٧.

ت- في النفس.

٣- مسكويه:

أ- تهذيب الأخلاق، بيروت، ١٩٦٦.

ب- الفوز الأصغر.

ت- الفوز الأكبر.

٤- أفلاطون:

أ- كتاب الجمهورية.

ب- فيدون.

ت- فايدروس.

ث- المأدبة.

ج- ليندیس.

٥- الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، بيروت.

٦- الكندي: رسالة في دفع الاحزان (رسائل الكندي الفلسفية، القاهرة، ١٩٦٩).

٧- أبو بكر الرازي: الطب الروحاني (رسائل فلسفية، القاهرة ، ١٩٥٠).

٨- يحي بن عدي: تهذيب الأخلاق، بيروت،١٩٧٨.

٩- ابن المقفع:

أ- الأدب الصغير.

ب- الأدب الكبير.

١٠- أبو حيان التوحيدي:

أ- المقابسات، القاهرة، ١٩٢٩.

ب- الهوامل والشوامل.

١١- جالينوس: كتاب الأخلاق، القاهرة، ١٩٣٧.

١٢- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، القاهرة، ١٩٢٤.

المحتويات

الرقم	الموضوع		رقم الصفحة
١.	**الفصل الأول:**	النفس	٣٣
٢.	**الفصل الثاني:**	الفضيلة	٥٥
٣.	**الفصل الثالث:**	العقل	٧٧
٤.	**الفصل الرابع:**	العدل	٩١
٥.	**الفصل الخامس:**	عدم الاعتدال	١٢٣
٦.	**الفصل السادس:**	الصداقة	١٣٥
٧.	**الفصل السابع:**	الخير والسعادة	١٧١
٨.	**الفصل الثامن:**	اللذة	١٩٩
٩.	**المصادر**		٢١٩